ليون توليستوي

أنا كارنينا

ترجمة

صبحي سلامة

الكتاب: أنَّا كارنينا (رواية)

الكاتب: ليون توليستوي

ترجمة : صبحي سلامة

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توليستوي ، ليون

أنَّا كارنينا/ (رواية) ليون توليستوي، ترجمة : صبحي سلامة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٩٥ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٨١٤ / ٢٠٢٠

أنَّا كارنينا



من هو تولستوي ؟

يُعتبر تولستوي من أشهر الكُتاب الروس المشهورين، وفي عام ١٨٤٤ م قُبل تولستوي طالباً في جامعة كازان كُلية اللغات الشرقية، قسم اللغتين التركيّة والعربيّة، واختار هذا الاختصاص لسببين، الأول لأنّه أراد أن يُصبح دبلوماسياً في الشرق العربي، والثاني، لأنّه مُهتم بآداب شعوب الشرق ولكن طريقة التدريس لم تُعجبه فهجرها للأعمال الحُرة عام ١٨٤٧م، وبدأ بتثقيف نفسه، وشرع في الكتابة، وفي تلك المرحلة من حياته كتب ثلاثة كُتب وهي (الطفولة) ١٨٥٢م، (الصبا) ١٨٥٤م، (الشباب) ١٨٥٧م.

سئم حياته تلك فالتحق بالجيش الذي كان في حالة حرب بالقفقاس، وشارك في بعض المعارك، ولكنه أحب القفقاس وأثرت فيه حياة شعوبهم وكتب عن تجاربه تلك موضوعات نُشرت في الصحف، وألَّف عنها كتابه (الكوزاك) ١٨٦٣م الذي يحتوي على عدة قصص.. وبعد تقاعده من الخدمة العسكرية سافر لأوروبا الغربية وأعجب بطرق التدريس هناك، ولما عاد لمسقط رأسه بدأ في تطبيق النظريات التربوية التقدمية التي عرفها، وذلك بأن فتح مدرسة خاصة لأبناء المُزارعين، وأنشأ مجلة تربوية تُدعى ياسنايا بوليانا شرح فيها أفكاره التربوية ونشرها بين الناس.

ويُعد كتاب (الحرب والسلام) ١٨٦٩م من أشهر أعمال تولستوي، ويتناول هذا الكتاب مراحل الحياة المُختلفة، كما يصف الحوادث السياسية والعسكرية التي حدثت في أوروبا في الفترة ما بين ١٨٠٥ و١٨٢٠م، وتناول فيها غزو نابليون لروسيا عام ١٨١٢م، ومن أشهر كتبه أيضاً (أنا كارنينا) الذي عالج فيه قضايا اجتماعية وأخلاقية وفلسفية في شكل مأساة غرامية كانت بطلتها هي أنَّا كارنينا، ومن كُتب تولستوي أيضاً كتاب (ما الفن؟) وأوضح فيه أن الفن ينبغي أن يُوجِّه الناس أخلاقياً، وأن يعمل على تحسين أوضاعهم، ولا بد أن يكون الفن بسيطاً يُخاطب عامة الناس، وقد تعمق في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما، ولم تقبل الكنيسة آراءه التي انتشرت بسرعة كبيرة، فكفرته وأبعدته عنها وأعلنت حرمانه من رعايتها، وأُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقره بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركاً عائلته الثرية المُترفة. وهو كفيلسوف أخلاقي اعتنق أفكار المُقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب "مملكة الرب بداخلك" وهو العمل الذي أثر على مشاهير القرن العشرين مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج في جهادهما الذي اتسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف.

وفي أواخر حياته عاد تولستوي لكتابة القصص الخيالية فكتب (موت إيفان إيلييتش) ١٨٨٦م، كما كتب بعض الأعمال المسرحية مثل (قوة الظلام) ١٨٨٨م. وأشهر أعماله التي كتبها في أواخر حياته كانت

(البعث) وهي قصة كتبها ١٨٩٩م وتليها في الشهرة قصة (الشيطان) ١٨٨٩م، كريوتزسوناتا ١٨٩١م، (الحاج مراد) التي نُشرت بعد وفاته والتي توضح عُمق معرفته بعلم النفس، ومهارته في الكتابة الأدبية، ومدى حُبه ومعرفته بالقفقاس وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعُمق وبالطرافة والجمال، وأشهر أعماله التي كتبها في أواخر حياته كانت "البعث" وهي قصة كتبها وتليها في الشهرة قصة "الشيطان"ورواية " الميت الحي" ومسرحية " سلطان الظلام" وروايات "كريتسيروفا سوناتا"، و"الحاج مراد" و"وفاة ايفان ايليتش" وقصة "الأب سيرجي" والتي توضح عُمق معرفته بعلم النفس، ومهارته في الكتابة الأدبية. وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعمق وبالطرافة والجمال، وقال أنه يجب أن نحيا حياتنا بأقصى وأعمق ما نستطيع وأن نجعل الدنيا نعيماً لأبناء البشر ونتحمل وحدنا المسئولية.

لقد أضمر الكاتب الروسي احتراماً خاصاً للأدب العربي، والثقافة العربية، والأدب الشعبي العربي، فعرف الحكايات العربية مُنذ طفولته، وعرف حكاية "علاء الدين والمصباح السحري"، وقرأ "ألف ليلة وليلة"، وعرف حكاية "علي بابا والأربعون حرامي"، وحكاية "قمر الزمان بين الملك شهرمان"، ولقد ذكر هاتين الحكايتين ضمن قائمة الحكايات، التي تركت في نفسه أثراً كبيراً، قبل أن يُصبح عمره أربعة عشر عاماً. وهناك دليل آخر على احترام تولستوي للتراث العربي، فيذكر الكاتب أنّه أمضى إحدى الليالي في غرفة جدته، وأصغى لحكايات المُحدث الأعمى ليف ستيبانفتش، الذي كان يعرف حكاياتٍ عربيةً كثيرةً، ومنها حكاية "قمر الزمان بن الملك شهرمان"، وكتب ف.ف. لازورسكي في مُذكراته:

"وحدثنا ليف نيكولايفتش حكايةً عربيةً، من "ألف ليلة وليلة"، حيث تحول الساحرة الأمير إلى فرسٍ، إنّه يُحبّ كثيراً الحكايات العربية، ويُقدرّها تقديراً عالياً، ويقول: يجب معرفتها مُنذ الطفولة... ويرى تولستوي إنّها نافعة أكثر من مقالة "ما هي الليبرالية"، التي نُشرت في مجلة "النقد الأدبي" (١٦٢، ص ٤٦٠). عتب ليف تولستوي على خ. د. التشيفسكيا، لأنّها لم تضمّن قائمة الكتب المقترحة للقراءة الشعبية الحكايات العربية فكتب لها، "لماذا لم تقترحي الحكايات العربية؟ إنّ الشعب يرغب في قراءتها! هذا تقصير من جانبك"، استلم تولستوي، في السنوات الأخيرة من عُمره طبعةً فرنسيةً جديدةً "لألف ليلة وليلة"، وقرأها من جديدٍ بكلّ سرورٍ..

وتعود علاقة تولستوي الأولى بالأدب الشعبي العربي إلى عام ١٨٨٢، فلقد نشر في ملحق مجلته التربوية (ياسنايا بوليانا)، بعض الحكايات العربية الشعبية، منها حكاية "علي بابا والأربعين حرامي". ويظهر تأثر ليو تولستوي بألف ليلة وليلة في روايته لحن كريستر. أيضاً يُذكر أنه تراسل مع الإمام محمد عبده، ولكن توفي الاثنان ولم يُكملا تحاورهما بعد رسالتين فقط.

تزوج تولستوي من صوفي بيرز التي أثبتت أنها خير الزوجات وأفضل رفاق الحياة بالرغم من أنها تصغره بستة عشر عاماً، أنجبا ١٣ طفلاً مات خمسة منهم في الصغر، كان زواجه ملاذه لهدوء البال والطمأنينة، لأنه كان يُعيده إلى واقع الحياة هرباً من دوامة أفكاره، صوفي

كانت خير عون له في كتابته، فقد نسخت مخطوطة روايته "الحرب والسلام" ٧ مرات حتى كانت النسخة الأخيرة والتي تم نشرها، وحتى في شيخوخته كان مُتماسكاً، وقوي الذاكرة دون أن تضعف رؤاه، إلا أنه وفي توجهه لزيارة شقيقته في ديرٍ كانت هي رئيسته، في ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ مات من الالتهاب الرئوي في محطة قطار وعلى ما يبدو بسبب البرد الشديد، حين هرب من بيته وحياة الترف، وأصيب بالالتهاب الرئوي في الطريق، وكان قد بلغ من العُمر ٨٢ عاماً، ودُفن في حديقة ضيعة ياسنايا بوليانا.

المترجم

الفصل الأول

لقد نزل بأسرة أوبلونسكي شقاء غير مُنتظر، فلقد اضطرب البيت وحلت فيه القطيعة على الوئام، والفوضى محل النظام، وذلك أن الزوجة اكتشفت وجود علاقة آثمة بين زوجها وبين المربية الفرنسية التي طردت من البيت منذ أيام. وصرخت الزوجة في حزم:

- لن أعيش مع هذا الزوج تحت سقف واحد بعد الآن.

لزمت الزوجة غرفتها منذ ثلاثة أيام، وراح الزوج يقضي يومه خارج البيت، وأفلت الأولاد من كل رقابة.. وتشاجرت المربية الإنجليزية مع مدبرة البيت، وكتبت إلى صديقة لها ترجوها أن تبحث لها عن عمل آخر.. وخرج الطاهي في اليوم السابق ولم يعد.. وفي اليوم الثالث بعد الخلاف الذي حدث بن البرنس ستيفن أوبلولسكي وزوجته، استيقظ الزوج في الصباح كعادته بارتياح، وتذكر الحلم السعيد الذي تراءى له في نومه، ثم تذكر لماذا قضى ليلته في أحد المقاعد ولم يقضها في فراشه، فزالت الابتسامة عن شفتيه.. غمغم:

- يا إلهي.. يا إلهي..

واستعرض في ذهنه تفاصيل العراك، وقال:

- كلا.. كلا.. إنها لن تغفر لي.. إنها لا تستطيع أن تغفر لي

كانت الصدمة عنيفة، وزاد في عنفها أنه لم يجد زوجته في قاعة الاستقبال، أو في قاعة الطعام، ولما بحث عنها وجدها في مخدعها، وبيدها تلك الرسالة التعسة التي فضحت جُرمه، ورأى على وجهها دلائل الهم والقلق، وبعينيها نظرة ذُعر ويأس وغضب فسألها بلطف:

- ماذا بك يا داريا؟

فأجابته بصوت عميق يضطرب من الانفعال:

- ماذا بي؟... اقرأ.

وقدمت إليه الرسالة، فقرأها، وحدث له ما يحدث عادة لأولئك الذين يُضبطون مُتلبسين بعمل فاضح، ولم يتسع له الوقت للظهور بالمظهر الذي يُلائم الموقف، بل ابتسم تلك الابتسامة العريضة الهادئة، فكانت أفصح من كُل اعتراف، ولم يستطع أن يغفر لنفسه هذه الابتسامة البلهاء التي ما إن رأتها زوجته حتى انتفضت، وصبت على رأسه سيلاً من سيئات الكلام، ثُم انطلقت من الغرفة مُسرعة ورفضت بعد ذلك أن تراه، وقال لنفسه في يأس:

- كُل هذا بسبب تلك الابتسامة الحمقاء.. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل الآن.. ماذا أستطيع أن أفعل؟؟

فكر، وعصر ذهنه، ولم يهتد إلى مخرج.

لم يكن بمقدوره أن يندم على أنه وهو في الرابعة والثلاثين من

عمره لا يستطيع أن يُحب زوجة في مثل سنه، ورزق منها بسبعة أطفال مات منهم اثنان وبقي الخمسة على قيد الحياة، ولكنه على الرغم من ذلك أحس بتعاسة الموقف وشعر بالشفقة على امرأته ولو أنه علم بأن خيانته ستجرُّ على زوجته كل هذا الشقاء لحاول أن يستر سلوكه ويخفيه، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك لأنه كان يشعر شعوراً مُبهماً بأن زوجته تعرف سلوكه وتغض الطرف عنه، بل قد خطر له مراراً أن هذه الزوجة التي لا تعيش إلا لبيتها وأولادها والتي أفقدها الزمن فتنتها وملاحتها يتعين عليها ولو على سبيل الإنصاف أن تأخذه بالهوادة، وتغمض عينيها عن هفوات زوج مثله مُمتلئ شباباً وصحة وفتوة. غمغم:

"هذا مُخيف! هذا مُخيف! لقد كُنا سعيدين قبل ذلك.. وكانت (داريا) قانعة بحياتها بين أولادها وخدمها إلى أن انفجرت هذه الفضيحة، إذاً من قُصر النظر وفساد الذوق حقاً أن يتصل الرجل بمُربية أولاده، ولكن يا إلهي، أية مربية!"

ارتسمت في ذهنه صورة آنسة رولان وتذكر نظراتها المُغرية وابتسامتها الفاتنة، فتنهد، وهتف:

- ولكن ما العمل الآن؟

استوى جالساً.. دق الجرس.. أقبل خادمه العجوز ماثيو حاملاً ثيابه وحذاءه وبرقية، فتناول أبلونسكي البرقية وفضها وألقى نظرة على مضمونها وتهلل وجهه قائلاً:

- **غداً تصل أختي (أنا كارنينا) يا ماثيو.**

هتف الخادم:

- **شكراً لله يا سيدي.**

دلل بهتافه على أنه يُدرك الأهمية التي يُعلقها سيده على قدوم أخته وعلى أمله بأن تتمكن (أنّا كارنينا) من إصلاح ذات البين، فسأل:

- **وهل جاء معها زوجها؟**
- **بل جاءت بمفردها.**
- **هل نعد لإقامتها إحدى الغرف في الطابق الثاني؟**
- **أظن أنه يُستحسن أن نتفاهم في ذلك مع داريا ألسكندروفنا.**

فقال الخادم في شيء من الارتياب:

- **مع داريا ألكسندروفنا؟!**
- **نعم.. اذهب إليها بهذه البرقية، وانظر ماذا تقول؟**

انطلق الخادم بالبرقية للزوجة، وبعد قليل عاد ماثيو والبرقية بيده قائلاً:

- **أجابت بأنها ستبرح المنزل، وتستطيع أن تفعل ما تشاء.**

ارتسمت على وجه أبلونسكي ابتسامة مُحزنة، وغمغم:

- وما العمل يا ماثيو؟!

- لا بأس يا سيدي.. إن جميع المشاكل المستعصية تحل نفسها

- هل تظن ذلكّ؟ ولكن من هذا؟!

ذلك أنه سمع حفيف ثوب من ناحية الباب فنظر خلفه ورأى ماترينا فلمونوفنا خادمة الأطفال سألها:

- ماذا تُريدين يا ماترينا؟

- ألا تقوم بمحاولة أخرى يا سيدي؟! أتوسل إليك أن تُحاول، إنها تتألم كثيراً، وحالها يدعو إلى الشفقة، ثُم إن كُل شيء في المنزل قد أصبح رأسا على عقب، فحاول مرة أخرى يا سيدي ولو من أجل الأطفال.

- ولكنها لا تسمح لي بمُقابلتها.

- قم بواجبك يا سيدي، والله قادر على أن يُكلل سعيك بالنجاح.

أجابها في ضجر:

- حسنا.. حسنا.. اذهبي.

ارتدى أبلونسكي ثيابه، ومشى لقاعة الطعام مشية الرجل السعيد المُمتلئ صحة وقوة، وجلس أمام المائدة، وراح يتناول طعامه، ويتصفح

جريدته، وكان مُشتركاً في إحدى صحف الأحرار ليس لأنه يعتنق مبادئهم وإنما لأن هذه الصحيفة كانت تُعبر عن آراء الأغلبية، ولم يكن له رأي خاص في العلوم والفنون والسياسة، فجعل من نفسه ذيلاً للأغلبية، وراح يُغير مبادئه كُلما غيرت الأغلبية مبادئها، كما كان يُغير قُبعته كُلما شاع طراز جديد من القبعات، بيد أنه كان قد شعر في قرارة نفسه بعطف غريزي على مبادئ الأحرار ليس لأنها أصدق أو أصلح من سواها، وإنما لأنها كانت تنطبق على حياته الخاصة إلى حد ما. فقد قال حزب الأحرار: "إن كُل شيء في روسيا قد أدركه العطب".

آمن أبلونسكي بذلك لأنه كان مُثقلاً بالديون، ودب الفساد بميزانيته حتى استحال عليه أن يوازنها، وقال حزب الأحرار: "إن قوانين الزواج تحتاج لإصلاح"، فصُعق أبلونسكي لهذا الرأي لأن حياته الزوجية كانت مبعث شقائه وهمومه.

حمل حزب الأحرار على رجال الدين، فارتاح أبلونسكي لهذه الحملة لأنه لم يجد مُبرراً لقضاء ساعة أو بعض الساعة واقفاً على قدميه لسماع موعظة عن الدار الآخرة بينما يستطيع الإنسان أن يحيا سعيداً في هذه الدار، ويُضاف إلى ذلك أن أبلونسكي كان شغوفا بالنكتة البارعة، وضحك من النكات الموجودة بالجربدة وتنفس ملء رئتيه، وقصد إلى مخدع زوجته بخطوات ثابتة.. وكان كل شيء بالمخدع رأساً على عقب، وقد وقفت زوجته بين الأشياء المُبعثرة بأرض الغرفة، وراحت تطوي بعض الثياب، ثُم سمعت وقع خطوات زوجها وهو يقترب، فنظرت للباب،

وحاولت أن تضع على وجهها مسحة من الصلابة والاحتقار ولكنها حاولت عبثاً، وكانت تشعر بالخوف منه، وبإشفاقها من نتيجة المُقابلة التي لا مناص منها.. وقد أرادت مراراً خلال الأيام الثلاثة الأخيرة أن تنفذ ما وطنت عزمها على إنفاذه، فتجمع ثيابها، وثياب أولادها، وتنطلق بهم إلى بيت أمها، ولكنها كانت لا تهم بالعمل حتى تخذلها عزيمتها فتهالكت على مقعدها، وتقول لنفسها المرة بعد الأخرى كأنما لتستمد من ضعفها قوة:

- لا يُمكن أن يستمر الحال كذلك، ويجب أن أعمل شيئاً لإذلاله والانتقام منه.

وظلت تقول لنفسها: "يجب أن أهجره"، ولكنها كانت تشعر بأن ذلك مُستحيل عليها لأنها اعتادت أن تعتبره زوجها وأن تُحبه، ولأنها لا تستطيع أن تصطحب أولادها الخمسة لبيت أمها حيث يتعذر عليها العناية بهم كما ينبغي، ولا أن تتركهم في بيت زوجها فلا يعتني أحد بنظافتهم وطعامهم، ولكنها مع ذلك ظلت تخدع نفسها وتجمع أشياءها وتطوي ثيابها كأنها تنوي الرحيل حقاً، ولما رأت زوجها دست يديها في أحد الأدراج، وتظاهرت بأنها تبحث عن شيء، ولم تُحول إليه وجهها إلا عندما وقف بجانبها، وكانت تُريد أن تُطالعه بوجه ينم عن الصلابة والصرامة، ولكنها لم تستطع السيطرة على المشاعر التي تعتمل في أعماقها، فارتسم على وجهها مزيج من الحيرة والألم العميق. غمغمت بصوت خافت:

- داريا.

أحنى رأسه على صدره، إظهاراً لندمه وخضوعه ويأسه، بيد أن نشاطه وفتوته، وتقاطيعه المرحة والرائحة المُنعشة التي تنبعث من وجهه وثيابه، كل ذلك كان يُكذب مظاهر اليأس والندامة التي اصطنعها، ونظرت إليه داريا من رأسه لقدمه، ونقمت عليه هذا النشاط وهذا المرح الذي يُقربانه لقلوب أصدقائه، قالت له بصوت قوي:

- ماذا تُريد؟!

أجابها بلسان مُتلعثم:

- داريا.. إن أختي أنّا كارنينا ستحضر غداً.

- وماذا يُهمني؟ إنني لا أستطيع أن أستقبلها.

- إن من اللياقة على كل حال أن تستقبليها يا داريا.

فصاحت دون أن تنظر إليه، وبصوت الإنسان الذي يُعاني ألماً جسمانياً:

- اذهب عني.. اذهب عني.

كان في استطاعة أوبلونسكي أن يُفكر في امرأته في هدوء وطمأنينة وأن يقرأ في جريدته، ويشرب قهوته، وهو ناعم البال، ولكنه ما كاد يرى وجهها الشاحب اليائس، ويسمع صوتها الحزين المُتألم، حتى

تحركت في أعماقه عوامل الشفقة والندم، فاغرورقت عيناه بالدموع وهتف:

- يا إلهي.. ماذا فعلت يا دارايا.. أنت تعلمين..

لم يُتم عبارته، وأغلقت داريا الدولاب بعنف ونظرت إليه، فغمغم:

- ماذا أستطيع أن أفعل غير أن أطلب الصفح، لقد قضينا معاً تسعة أعوام، كنا خلالها أسعد زوجين، ألا تشفع لي هذه الأعوام الطويلة عن... عن...

فأطرقت برأسها وانتظرت كأنها ترجو أن تسمع منه كلمة تُقنعها بأنها أخطأت الظن، وأنه بريء مما نسبته إليه.. وأتم أوبلونسكي عبارته:

- ألا تشفع لي هذه الأعوام الطويلة عن لحظة جنون.

فعضت على شفتيها كما يفعل المريض لكي يكتم صيحة ألم توشك أن تفلت من فمه وقالت:

- اذهب عني، ولا تتحدث إليَّ عن لحظات جنونك وتبذلك.

قال والدموع تترقرق بعينيه:

- فكري بالأطفال، أي ذنب جناه الأبرياء؟! افعلي بي ما شئت فإني أستحق العقاب، قولي ماذا يجب عليَّ أن أصنع، وكيف أُكفر عن جريمتي؟ إنني مذنب، وليس عندي ما أقوله أكثر من أن أطب

صفحك وغفرانك.

- إنك لا تُفكر بالأطفال إلا إذا أردت أن تُداعبهم، أما أنا فأفكر فيهم دائماً واعلم الآن أنك ضيعتهم وجلبت لهم الشقاء، ولكنني لا أعلم كيف أنقذهم، وهل أنتزعهم من أحضان أبيهم أو أتركهم لهذا الأب الفاسق المُبتذل... أتظن أنه من الممكن أن نعيش معاً بعد الذي حدث؟ أتظن أن ذلك مُمكن! تكلم، هل يُمكن أن تستقيم لنا الحياة بينما زوجي ووالد أطفالي يُغازل مُربيتهم؟!

قال بصوت خافت:

- ولكن ما العمل الآن؟

صاحت بغضب:

- إنك رجل مقيت ودموعك دموع التماسيح، إنك لم تُحبني قط ولم تعرف معنى الرحمة والكرامة والشرف، ولا يجب أن تربطني بك أية رابطة.

نطقت هذه العبارة بلهجة تنم عن الألم، ولم يفهم أن إشفاقه عليها قد ضاعف حنقها، لأنها وجدت هذه الشفقة حيث كان يجب أن تجد الحب.

قال لنفسه: "كلا، إنها تمقتني، ولن تغفر لي".

فجأة سمع الزوجان بكاء أحد الأطفال في الغرفة المجاورة، فأرهفت داريا أذنيها، ونهضت مُسرعة وقصدت إلى الباب، ولاحظ أبلونسكي التحول الذي طرأ على زوجته وقال لنفسه: "إنها تُحب أولادي، فكيف يُمكن أن تكرهني؟"

تقدم ناحيتها وهو يقول بصوت مُرتفع:

- كلمة أخرى يا داريا.

صاحت:

- إذا سرت خلفي فسأدعو الخدم والأولاد لأشهدهم جميعاً على أنك وغد. سأترك البيت بعد قليل، وفي استطاعتك أن تُقيم فيه مع عشيقتك متى أردت.

انصرفت من الغرفة، وأغلقت الباب وراءها بعنف، وتنهد أوبلونسكي وغمغم:

"إن جميع المشاكل المُستعصية تحل نفسها، هكذا قال ماثيو، ولكن كيف؟!"

تذكر صياح زوجته قائلاً: "لقد سمع الخدم صياحها بغير شك، يا إلهي.. كُل هذا مُزعج".. وظل جامداً في مكانه لحظة، ثُم دعا خادمه ماثيو وقال له:

- عليك أن تتعاون مع ماترينا على إعداد غرفة الاستقبال لإقامة أختي أنّا.

- حسنا يا سيدي.

حمل عصاه وتأهب للخروج، فسأله ماثيو:

- هل يعود سيدي لتناول طعام الغذاء؟

فتردد أوبلونسك قليلاً ثم أجاب:

- لا أعلم.. سوف نرى..

وانصرف.. وسمعت داريا صوت المركبة وهي تبتعد بزوجها، فعادت لمخدعها، وحاولت أن تتذكر الحديث الذي دار بينها وبين زوجها وشعرت بالجزع حين فكرت في أن هذا الحديث ربما كان آخر عهدها به، وأطلت ماترينا فلمونوفنا برأسها من الباب وسألت:

- أليس من الأفضل أن أرسل بطلب أخي؟ إنه يستطيع على كل حال أن يُعد الطعام، وإلا قضي الأطفال يومهم جياعاً كما حدث أمس.

أجابت داريا:

- حسناً، أرسلي في طلبه.. هل أعددتم اللبن؟

انصرفت داريا لأعمال المنزل لتُفرغ فيه همها وحزنها.

كان أوبلونسكي رغم صغر سنه يشغل منصباً حكومياً مهماً بموسكو، وقد حصل على هذا المنصب بفضل ألكسيس كارنين زوج شقيقته أنّا، وهو وزير له قامته بالحكومة، وكان في استطاعة أوبلونسكي أن يصل لهذا المنصب بدون وساطة كارنين، فقد كان لأوبلونسكي مئات من الأقارب ذوي المكانة الرفيعة يستطيع كُل منهم أن يُهيئ له منصباً كهذا بمُرتب ستة آلاف روبل بالعام، وكان نصف عُظماء موسكو وبطرسبرج من أقاربه وأصدقائه فهو من أبناء الطبقة التي تُسيطر على البلاد، ولا يُمكن أن يغفلوا عنه، لذلك كان طبيعياً ومؤكداً أن يحصل على المنصب الذي يُريد بشرط ألا يكون واسع المطامع أو سيئ الخُلق أو مُحباً للشجار وهو بطبيعته لم يكن كذلك.

وصل أبلونسكي لمقر عمله فأحنى الخدم والموظفون قاماتهم احتراماً له، وجلس أمام مكتبه، وأقبل عليه الموظفون بما عندهم من أوراق، وكان أوبلونسكي يُدرك أكثر من أي إنسان سواه أهمية البساطة والحُرية والتفاهم في إنجاز العمل. فقضى بعض الوقت مع موظفيه في التحدث والضحك، ثم بدأ عمله، وطلب إلى أحدهم أن يتلو عليه بعض الأوراق.. وأطاع الموظف، وتظاهر أوبلونسكي بالإصغاء، ولكنه كان يقول لنفسه:

- لو علم هؤلاء الموظفون كيف كان رئيسهم واقفاً وقفة المُجرم مُنذ نصف ساعة!!

لم يتمالك نفسه من الابتسام، وبعد قليل دخل عليه شاب طويل

القامة عريض الكتفين، فما كاد يراه حتى وثب من مقعده وهو يصيح:

- أهذا أنت يا ليفين؟

شد على يده بحرارة وقبله وسأل:

- متى قدمت إلى موسكو؟
- الآن فقط.

ثم أردف بشيء من الارتباك:

- لقد جئت خصيصاً للتحدث إليك.

كانت الصلة بين أوبلونسكي وجميع معارفه كأحسن ما تكون الصلات، وقد كان يكتفي بأن يتناول قدحاً من الشراب مع أحد الأشخاص لكي يُصبح ذلك الشخص صديقاً له، ولكن الصداقة بينه وبين ليفين كانت أقوى وأوثق من صداقة (كأس الشراب) وبدأت مُنذ الصغر، ولم يُدركها الفتور عندما افترقت بهما السُبل، فالتحق أبولونسكي بمنصبه الرفيع، وفر ليفين للريف نفوراً من موسكو وجوها الصاخب. قال أبلونسكي:

- يسرني كثيراً أن أراك يا ليفين، لقد كُنت أنتظرك مُنذ وقت طويل، ما قولك في أن نتناول معاً طعام الغداء؟!

فكر قليلاً قائلاً:

- لا أظن أنني أستطيع حتى حديثي معك لن يستغرق طويلاً.

- لا أقل من أن تُفصح عن غرضك على أن نستأنف الحديث حول مائدة العشاء.

- كُل ما أريد أن أقوله لك هو...

سأل بخجل:

- ماذا عندك من أنباء البرنس شرباتسكي وأسرته؟

ابتسم أوبلونسكي، كان يعلم أن ليفين مفتون بالآنسة كاترين ابنة البرنس شرباتسكي وشقيقة زوجته داريا، فأجاب:

- إنهم في خير حال، وإذا أردت أن تراهم فاذهب لحلبة التزلج على الثلج في حديقة الحيوانات، إن كاترين تذهب لهناك كل يوم بين الرابعة والخامسة.

برقت أسارير ليفين ثُم احمر وجهه وقال:

- هل أنتظرك هنا؟!

- نعم، ومن ثم نتناول العشاء معاً ونتحدث فيما تريد.

وانصرف ليفين وهو يلعن خجله ويلعن نفسه لأنه لم يجسر على أن يقول لأوبلونسكي في التو واللحظة إنه إنما جاء لموسكو خصيصا ليطلب يد كاترين، وكانت أسرتا شرباتسكي وليفين من أعرق الأسر في موسكو،

وقد توثقت الألفة بينهما مُنذ عهد بعيد، ودعتهما الصداقة التي قامت بين ليفين ونيكولا شرباتسكي (شقيق داريا وكاترين) عندما كان الفتيان يتلقيان العلم معاً بجامعة موسكو، وقد أوشك ليفين بوقت ما أن يقع في غرام داريا، وسبقه أوبلونسكي لخطبتها، وعندئذ فقد أحس ليفين بأن كاترين هي أقرب لقلبه من أختها داريا، فراح يتقرب لأسرة شرباتسكي حتى أيقن أخيراً بأنه قد وقع حقاً في غرام كاترين، وأنها الفتاة الوحيدة التي تستطيع أن تُهيئ له حياة زوجة سعيدة، ولم تكن ثمة غرابة في أن يتقدم شاب واسع الثراء مثل ليفين لطلب يد كاترين شرباتسكي، ولكن ليفين كان غارقا بالحب لأذنيه فخُيل إليه أن كاترين هي أكمل مخلوق على ظهر الأرض وأنه يعتبر نفسه ليس جديراً بها، وقد قضى بموسكو شهرين كان خلالهما يرى كاترين كل يوم، ويجتمع بها بكل مكان، فكبرت الفتاة بنظره وصغر بنظر نفسه، وأيقن آخر الأمر أنه يطلب المُستحيل، فعاد أدراجه للريف وهو كئيب مُثقل القلب، وقد نشأ شعوره بهذه الاستحالة عن وهم بأن كاترين لا يُمكن أن تُحبه، ولا أن ترضاه زوجاً، بيد أنه شعر بالوحشة والقلق وأيقن أنه لن يقر له قرار أو يهدأ له بال حتى يقطع برأي في أمر زواجه من كاترين، لا سيما وأنه لم يتلق رداً قاطعاً من الفتاة أو والديها، وليس هناك دليل على أن طلبه سيُقابل بالرفض، ولذلك قرر أن يعود لموسكو وأن يطلب يد كاترين وأن يقترن بها إذا وافقت.. أما إذا رفضت، ولم يجسر على التفكير فيما يكون من أمره إذا رفضت كاترين الاقتران به...

الفصل الثاني

سار ليفين في الطريق لحلبة التزلج على الثلج وهو يُقدم رجلاً ويُؤخر الأخرى، وكان خافق القلب لاهث الأنفاس لا كاد يُصدق أنه سيرى كاترين ويتحدث إليها، ولكنه كان واثقاً من أنه سيجدها هُناك بدليل من هذا السرور وهذا الفزع اللذين يملآن قلبه، والواقع أنه ما كاد يقترب من الحلبة ويسمع صيحات المرح ويُرسل بصره بين المُتزلجين حتى برزت كاترين أمام عينيه كالابتسامة وسط العبوس، وكالزهرة بين الأشواك، فجمد في مكانه، وخُيل إليه أن أنفاسه قد انقطعت وأن قلبه قد كف عن الحركة، وبهره مرآها كما تُبهر الشمس عين الناظر إليها، فأطرق برأسه ولكنه ظل يراها كما يرى الإنسان الشمس دون أن يتطلع إليها، وهو بذهول واضطراب إذا بصوت يهتف به:

- هو ذا بطل روسيا بالتزلج على الثلج، متى حضرت لموسكو يا ليفين؟ تقدم للحلبة، إن الثلج بديع.

كان المُتكلم هو إيفان رباتسكي ابن عم كاترين، وقد أراد ليفين أن يُجيبه ولكنه أحس بالشمس تقترب منه فاحتبست أنفاسه، ولم يقو على الكلام، واقتربت كاترين في شيء كثير من الخوف والحذر، ولم تكن تُجيد التزلج فراحت تترنح وتلوح بساعدييها حتى دنت من ابن عمها، فألقت بيديها على كتفه لتمنع نفسها من السقوط، وخُيل لليفين أنه لم يرها قط أجمل مما كانت في تلك اللحظة، وكان كُلما فكر فيها رأى

بعين الخيال رأساً أشقر جميلاً قائماً على كتفين مُعتدلتين، وصدراً بارزاً مُكتمل النضوج، وعينين زرقاوين بريئتين كعيون الأطفال.. أما اليوم فإنه رأى في عينيها الصافيتين الصدق والهدوء والصراحة ورأى على شفتيها الرقيقتين ابتسامة ساحرة وادعة جعلت قلبه يثبت في صدره.. قالت له وهي تشد على يده:

هل حضرت إلى موسكو منذ وقت طويل؟

أجاب مُتلعثماً:

- أنا؟ كلا، بل حضرت أمس، أعني... حضرت اليوم.

ثم أردف:

- لقد حضرت لأراك.

تذكر لماذا جاء ليراها، وقال بسرعة:

- لم أكن أعلم أنك تتزلجين بهذه البراعة.

- إطراؤك أعتز به لأنه من رجل يقول الجميع أنه أبرع مُتزلج على الثلج.

أزالت بأصابعها بعض البلورات الثلجية التي علقت بثوبها.. أجاب:

- الحق أنني أقبلت على هذه اللعبة بحماسة لأنها استهوتني فأردت

أن أجيدها.

قالت وهي تبتسم:

- إنك شديد الحماسة لكل ما يستهويك وكم أود أن أرى مبلغ براعتك فهلم ننزلج معا.

نظر إليها ولم يُصدق أذنيه، وخلع معطفه، وتأهب للتزلج وهو يقول لنفسه: "هل أصارحها الآن؟! إنني الآن سعيد بآمالي فماذا يكون من أمري لو أنها..."

فاض قلبه بين جنبيه لمجرد التفكير بأن طلبه قد يُقابل بالرفض، ولم تمض بضع دقائق حتى كان يتزلج نحوها في خجل، ولكنه ما لبث أن رأى على شفتيها تلك الابتسامة الساحرة الحلوة فاطمأن، وتناول يدها، وأخذ يدور بها بالحلبة ببطء أولاً ثم بسرعة، وعندئذ أحس بيدها تضغط على يده وسمعها تقول:

- لا شك أنك ستُساعدني على الإجادة فإني أشعر معك بالطمأنينة.

- ولكني لا أطمئن إلى نفسي، وأنت مُتكئة على ساعدي.

ثُم ذُعر لجرأته واحمرّ وجهه، والواقع أنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى أظلم وجهها كما يُظلم قُرص الشمس وراء السحب وخُيل إلى ليفين أنه رأى على جبينها الناصع تجعدات لم تكن هناك من قبل، قال:

- هل حدث ما يزعجك؟ أعلم أنه ليس من حقي أن أسأل.

- ولماذا!! كلا.. لم يحدث ما يُزعجني.. (ثم أردفت) ألا تُضايقك الإقامة في الأرياف في فصل الشتاء؟

- كلا.. إن أعمالي الكثيرة تدفع عني السأم والملل.

- هل ستقضي هُناً وقتاً طويلاً؟

أجاب في غير تدبر:

- لا أعلم.

- لا تعلم؟

- كلا.. إن الأمر منوط بك.

وشعر بجرأته مرة أخرى، ونظر إليها في ذعر.. غيرت مجرى الحديث في الحال وسألته قائلة:

- هل رأيت أمي؟

كان لا يزال في ذُعره وذهوله حين اقتادته الفتاة إلى حيث كانت أمها، وقالت الأم ببرود وهي تشد على يده:

- يسرني أن أراك يا ليفين.

ثم التفتت لابنتها وسألت:

- ألا ننصرف الآن يا كاترين؟

- نعم يا أماه.

وشرعت تتأهب للانصراف. قالت الأم:

- إننا نستقبل الزائرين يوم الخميس كما هي العادة يا ليفين.

فأجاب:

- واليوم هو يوم الخميس.

فقالت بجفاء:

- نعم وسوف يسرنا أن نراك.

ولاحظت كاترين خشونة أمها، وأرادت أن تُخفف من وقعها في نفس الشاب فالتفتت إليه وقالت وعلى شفتيها ابتسامة حلوة:

- إلى اللقاء إذن.

وتأبطت ساعد أمها. وفي هذه اللحظة أقبل أوبلونسكي وهو باسم الوجه يختال في مشيته ولكنه ما كاد يرى الأميرة شرباتسكي حتى غاضت الابتسامة عن شفتيه، وسألته الأميرة عن ابنتها داريا فأجابها مُطمئناً وهو مُطرق برأسه إطراقة المُذنب، ثُم تأبط ساعد ليفين وسأله:

- هل تذهب؟

أجاب ليفين وابتسامة كاترين وصوتها مازالا يملآن بصره وسمعه:

- نعم.. نعم.. هلم بنا.

وفي منزل أحد الأصدقاء دار حوار بين ليفين وستيفان الذي علم بأمر رغبة أوبلونسكي في الزواج فقال:

- إنني أتمنى لك النجاح من كل قلبي.

احمر وجه ليفين وهتف بصوت أجوف:

- هل تعلم حقا ماذا أعني؟ وهل تظن أن ذلك ممكن؟

- ولم لا؟

- كُن صريحا يا ستيفان.. إنني أشفق على نفسي وعليها من الرفض.

- مهما كان الجواب فإن ذلك لا يضيرها ولا يضيرك، فجميع الفتيات يشعرن بالخيلاء إذا كثر طلبهن.

- هذا صحيح بالنسبة لجمع الفتيات، أما هي فلا، اصغ إليَّ يا ستيفان، إنني لك أكشف خبيئة نفسي لإنسان سواك، لأنك صديقي وأنا أحبك رغم اختلاف طباعنا وتنافر أغراضنا فكن صريحاً يا ستيفان.

أجاب أبولنسكي وهو يبتسم:

- لقد صارحتك برأيي وإذا أردت المزيد فأقول، إن زوجتي تؤمن كذلك بأن المُستقبل لك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنها تُرحب بك زوجاً لأختها كاترين.

فانبسطت أسارير ليفين وارتسمت على شفتيه ابتسامة كدموع الحنان وهتف:

- أتقول حقاً؟! لقد كُنت دائماً أعتقد أن زوجتك ملاك كريم.. (ثم أردف وهو ينهض من مقعده) كفى، كفى، إنك جعلتني أسعد مخلوق على ظهر الأرض.

- صبراً لحظة، أريد أن أقول لك شيئا آخر: هل تعرف فرونسكي؟

- كلا.. لماذا؟

- إنه أحد مُزاحميك.

امتقع وجه ليفين وسأل بجزع واستنكار:

- ومن هو فرونسكي هذا؟

- إنه ابن الكونت إيفان فرونسك وهو نموذج بديع لشبيبة (بطرسبرج) وقد عرفته في (تيفير) حيث كُنت أؤدي الخدمة العسكرية، إنه على جانب عظيم من الثراء والأناقة وله صلات وثيقة بجميع الشخصيات

البارزة، ثُم إنه طيب الخُلق عظيم الذكاء، والمُستقبل فسيح أمامه.. ولقد جاء من موسكو بعد رحيلك، وقد فهمت أنه غارق إلى أذنيه في حُب كاترين، ولعلك تعرف ان أمها...

قطب ليفين شفتيه وقاطعه بقوله:

- معذرة.. إنني لا أعرف شيئا.

قال أوبلونسكي وهو يبتسم:

- رفه عنك، لقد حدثتك بكل ما أعلم ولكنني مازلت أعتقد أن كفتك أرجح من كفة غريمك.

فأطرق ليفين برأسه ولم يجب.. وقال أوبلونسكي:

- والرأي عندي هو أن تطلب يدها بأسرع ما يمكن.

وملأ كأس صديقه فصاح:

- كلا، كلا، إنني لا أريد أن أتقدم إليها وأنا ثمل.

استطرد:

- إنك وعدت مراراً بالاشتراك معي بالصيد، فلماذا لا تأتي بهذا الربيع؟

كان يُريد أن يغير مجرى الحديث.. والواقع أنه شعر بالندم على أنه

صارِح أوبلونسكي بمكنون صدره، وأحس بأنه من الإهانة له ولعواطفه أن يكون له مُنافساً مهما كان مركزه في المجتمع.. وأدرك أوبلونسكي ما يعتمل في نفس صديقه، وفهم غرضه فأجابه وهو يبتسم:

- كُن مُطمئناً، فسأحضر لزيارتك في أحد الأيام ولو فقط لأرى في أية صومعة تعيش.

ثم أشعل لفافة تبغ وأردف:

- الحق يا صديقي، إن النساء هُن المحور الذي ندور جميعاً حوله، وهُن مصدر متاعبي وشقائي.

نظر إليه كمن يُريد أن يقول: "هل يمكن أن يكون هذا الدب المرح شقياً؟!"

قال أوبلونسكي:

- إنني أطلب نصيحتك يا ليفين، هب أنك متزوج وتحب زوجتك ثُم فُتنت بامرأة أخرى.

قاطعه ليفين:

- معذرة، إنني لا أفهمك، كما لا أستطيع أن أفهم كيف يُمكن بعد أن أكلت وامتلأ بطني أن أتسلل بعد قليل لحانوت أحد الخبازين لأسرق منه رغيفا.

فلمعت عينا أوبلونسكي وقال:

- ولم لا؟ إن رائحة الخُبز الطازج تُغري دائماً، بيد أن هذا الجواب لا يحل المُشكلة، إن مثلك مثل الرجل الذي يُمسك بالمسائل المُستعصية بيده اليُسرى، ويُلقي بها من فوق كتفه اليُمنى.. إن إنكار الحقائق ليس جواباً، فحدثني ماذا يجب أن أصنع؟ إن زوجتي قد فقدت فتنتها، وأنا لا أزال مُمتلئاً قوة وفتوة، والرجل عادة لا يكاد يدور على عقبيه حتى يجد أن حُبه لزوجته قد نضب أو أدركه الفتور، ثُم يحدث فجأة أن يعبر الحُب طريقه فيجد نفسه حائراً لا يدري ما يصنع.

تنهد بيأس وأردف:

- وأنا الآن أجد نفسي في هذه الحيرة ولا أدري ما أصنع؟

فقال ليفين:

- لا تسرق الرغيف.

انفجر أوبلونسكي ضاحكاً وقال:

- دع الدعابة يا ليفين وتأمل الموقف، هنا امراتان، إحداهما تُطالبك بحقها الطبيعي وهو الحُب، ولكنك لا تستطيع أن تُحبها، والأخرى تُضحي بنفسها من أجلك ولا تُطالبك بشيء.. فماذا تفعل؟ وأي المرأتين ترضي؟ هذه المأساة.

- إذا أردت رأيي فإنني أصارحك بأنني لا أرى وجوداً للمأساة، ذلك لأن الحب على نوعين كما تعلم، حُب أفلاطوني بريء، وحب غريزي غير بريء، وبعض الرجال لا يفهمون إلا النوع الثاني، وهؤلاء ليس من حقهم أن يتحدثوا عن وجود مأساة، لأنه ليس عليهم بالواقع إلا أن يقولوا للمرأة: شكراً لك على ما هيأت لنا من أسباب المُتعة، ووداعا.. وينتهي كُل شيء.. أما الحب الأفلاطوني فلا محل فيه للمأساة كذلك، لأن كُل شيء فيه طاهر بريء واضح.

تنهد أوبلونسكي ولم يجد ما يقوله، وساد الصمت بين الرجلين، وشعرا فجأة رغم صداقتهما القديمة ورغم أن جلستهما معاً حول مائدة الطعام والشراب كانت جديرة بأن تُقرب بينهما وتوثق صداقتهما بأن كل منهما غريب عن صاحبه بمشاعره وميوله وآرائه، وبأن كليهما لا يستطيع أن يُفكر في شؤونه الخاصة دون شؤون زميله.. وقد حدث مراراً قبل ذلك أن أحس أوبلونسكي بمثل هذه الوحشة والعزلة بدلا من الألفة التي ينشدها من تناول الطعام والشراب مع أصدقائه، وكان يعرف ماذا يجب عمله في مثل هذه الحالة، فدعا الخادم ودفع الحساب.

الفصل الثالث

ما كادت كاترين شرباتسي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وتبرز في المجتمع حتى أصابت نجاحاً فاق كل ما توقعته أمها، فقد أُعجب بها جميع فتيان موسكو الذين راقصوها، ولاح في أفق حياتها في الحال خطيبان محتملان هُما ليفين والكونت فرونسكي، وكان تردد ليفين على بيتها وهيامه الظاهر بها مُدعاة لاهتمام والديها بأمر مُستقبلها، وفاتحة لسلسلة من المُشاحنات بينهما، وذلك لأن الأب كان يعطف على ليفين، ولا يتمنى لابنته زوجاً خيراً منه، أما الأم فإنها لجأت بغريزتها النسوية إلى اللف والدوران، فقالت:

- إن كاترين لا تزال دون سن الزواج، وإن ليفين لم يُبرهن على أنه جاد في نواياه، وأن كاترين لا تُحبه، إلى غير ذلك من الأعذار، ولم تقل له الحقيقة، وهي أنها تُريد لابنتها زوجاً أفضل من ليفين وأنها لا تُحب ليفين ولا تفهمه..

ولما رحل ليفين عن موسكو فجأة، لم تكتم الأم ارتياحها وشعورها بالفوز فقالت لزوجها:

- ألم أكن على حق؟

ثم ظهر فرونسكي في الأفق، فزاد ارتياحها واشتد إصرارها على وجوب اختيار أفضل زوج لكاترين، وكان من رأيها أنه لا مجال للمُقارنة

بين ليفين وفرونسكي، فالأول غريب الأطوار شديد التبرم بالمُجتمع، تهمه أبقاره وخنازيره أكثر مما تهمه زوجته، وهي إذا صح لها أن تغفر له كُل هذه النقائص فإنها لا تستطيع أن تغفر له أنه ظل يتردد على ابنتها كل يوم خلال ستة أسابيع مُتوالية دون أن يحزم رأيه على أمر، كأنما يعز عليه أن يُشرفهم بطلب يد ابنتهم، وكأنه لا يفهم، إن الشاب إذا أكثر التردد على فتاة يُراد تزويجها فإن من اللياقة أن يوضح أغراضه ويُفصح عن نواياه، لا أن ينقطع عنها فجأة ويفر من المدينة كُلها فرار الخائف المذعور.. أما فرونسكي فقد كان في نظرها الشخص الكامل الذي تتوفر له جميع الصفات التي تجعل منه أفضل زوج لابنتها، فهو واسع الغنى، عريق الأصلاب، يشغل وظيفة ضابط في حرس القيصر، وأمامه السلك العسكري مُستقبل فسيح، ثُم إنه أنيق جميل الطلعة حلو الحديث، وماذا تُريد المرأة من زوجها أكثر من هذا؟

وشعرت كاترين في الفترة بين العشاء وبداية السهرة بما يشعر به الجندي قُبيل المعركة، فكانت تعلم أن الشابين سيلتقيان عندها في ذلك المساء لأول مرة، وأن على لقائهما يتوقف مصيرها، فراحت تتخيل كُلٍ منهما على انفراد، ثُم تتخيلهما معاً، ووجدت أنها لا تستطيع أن تُفكر في ليفين وفي صداقتهما الطويلة دون أن تشعر بالعطف والحنان، ولا أن تُفكر في فرونسكي دون أن تحس بقلق يُخالطه شعور بالزيف ولكن المُستقبل مع أولهما مُحاط بالغموض، ومع الثاني يُبشر بالسعادة والرفاهية والنعيم..

ونظرت كاترين لنفسها في المرآة، وهي ترتدي ثياب السهرة وسرها أن تجد أنها في أفضل حالاتها، ومضت إلى قاعة الاستقبال وما كادت تدخلها حتى أعلن كبير الخدم قدوم ميشيل ليفين، وهُنا ركض قلبها بشدة وحانت منها التفاتة إلى مرآة على الجدار فهالها شحوب وجهها، وكانت على يقين من أنه إنما بكر بالحضور لينفرد بها ويطلب يدها، وعندئذ فقط أحست بأن قراراها لا يعنيها وحدها، وأنها عما قليل ستكون سبباً في إيلام رجل يُحبها، وتعطف عليه ولكن لا بد مما ليس له بد منه، ودخل ليفين، فنظرت في عينيه كأنها تضرع إليه أن يعفيها من قسوة الموقف، وشد الفتى على يدها وهو يقول:

- أحسب أنني قد بكرت في الحضور.

وأجال البصر حوله، ووجد الغرفة خالية وليس هناك ما يمنعه من التحدث إليها، وقال بشجاعة:

- والواقع.. أنني أردت أن أجدك بمفردك.

- ستأتي والدتي بعد بضع دقائق، إنها كانت مُتعبة أمس.

فنظر إليها واحمر وجهها وصمتت، غمغم:

- لقد قلت لك أنا لا أعلم هل تطول إقامتي في موسكو أو لا تطول، وأن الأمر متوقف عليك.

أطرقت برأسها وعضت على شفتها، قال بلسان مُتلعثم:

- نعم، إن الأمر متوقف عليك، أريد أن أقول إني إنما جئت لكِ، إنني أسألك هل تريدين أن تكوني زوجتي؟

راحت كاترين تلتقط أنفاسها بعنف، ولا تنظر إليه، ولم تكن تتوقع قط أن يترك اعترافه في نفسها كُل هذا التأثير ويُشعرها بكل هذه السعادة، ولكن هذا التأثير لم يدم إلا لحظة، ثُم تذكرت فرونسكي، فرفعت إلى ليفين عينين صافيتين صريحتين، وغمغمت:

- معذرة، إن هذا مستحيل.

- كان يجب أن أتوقع هذا.

وأحنى قامته وتحول لينصرف.

في هذه اللحظة أقبلت الأميرة شربانسكي ورأت الشابين على انفراد، فارتسمت في عينيها نظرة ذُعر، ثُم لاحظت إطراقهما فاطمأنت وابتسمت، وحياها ليفين بانحناء قامته، ولم ينطق بكلمة، فدعته للجلوس وراحت تسأل عن حياته في الريف وهو يُحييها بعبارات مُقتضبة، إلى أن بدأ المدعوون في القدوم، وفجأة وجد وجه كاترين يتهلل بشراً فأيقن أن القادم لا بد أن يكون فرونسكي وأن الفتاة تُحبه بغير شك، وكان في نيته أن يرحل في الحال، ولكنه عدل عن ذلك بدافع الفضول إلى معرفة المزيد من أمر غريمه.. ومن الناس ما إذا قابل غريمه أغمض عينيه عن فضائله ولم ير إلا نقائصه، ومنهم من يفعل عكس ذلك ويُحاول أن يتلمس في غريمه السعيد جميع المزايا التي هيئت له الفوز والنجاح، وقد

كان ليفين من هؤلاء، بيد أنه لم يبذل شيئاً من الجهد لمعرفة كُل حسن بفرونسكي فقد كان الضابط الشاب مُعتدل القامة، جميل الطلعة، تدل تقاطيع وجهه وبساطة ثيابه على الصراحة والأناقة في غير تكلف ولا تصنع.

قالت الأميرة تُحدث فرونسكي:

- دعني أقدمك إلى صديقنا ميشيل ليفن.

وقدمته في ذات الوقت إلى ليفين بقولها:

- الكونت ألكسيس فرونسكي.

نهض فرونسكي بالحال وبسط يده لليفين قائلاً:

- لقد كان المفروض أن نجتمع قبل الآن على مائدة الأميرة، ولكنك رحلت فجأة، هل تُقيم دائماً بالريف؟ يُخيل إليّ أن الحياة في الريف تدعو إلى السأم.. لا سيما في فصل الشتاء.

فأجاب ليفين مُقتضباً:

- إن من يجد لديه عملاً في الريف لا يشعر قط بالسأم.

فقال فرونسكي:

- إنني أحب الريف كثيراً.

فقالت الكونتس نوردسون:

- ولكنني لا أظنك ترتضيه مُقاماً لك دائما يا كونت.

- لا أدري، إنني لم أُجرب طول الإقامة بالريف، ولكنني لم أشعر بالحنين للريف الروسي إلا بالعام الماضي حين كُنت أقضي الشتاء مع والدتي في مدينة (نيس)، إن نيس مدينة صغيرة، ولكنها موحشة، وهي مثل نابولي ومدينة البندقية، لا تطيب فيها الحياة إلا لأجل قصير.

والتقت عينا كاترين بعيني ليفين، وأحست الفتاة بالشفقة والرثاء وقالت نظرتها: "إنني سعيدة، فاعف عني إذا كان في استطاعتك أن تعفو"، وأجابها ليفين بعينيه: "إنني أمقت العالم كله وأمقتك وأمقت نفسي".

دار الحديث بعد ذلك عن حفلة راقصة يُقيمها آل شرباتسكي في الأسبوع التالي، ولم يجد ليفين ما يقوله، فتناول قُبعته واستأذن في الانصراف، وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي قصد فرونسكي لمحطة (موسكو) لاستقبال والدته، فالتقى هُناك بأوبلونسكي الذي كان يتوقع قدوم أخته في ذات القطار، وهتف أبلونسكي عندما أبصر بفرونسكي:

- ماذا جئت تصنع هنا يا كونت؟

فأجاب فرونسكي وهو يبتسم:

- إنني أنتظر قدوم والدتي من بطرسبرج اليوم.

- أين كُنت ليلة أمس؟.. إنني لم أجدك عند آل شرباتسكي.

- الحق أنني انصرفت مُبكراً، وقصدت تواً إلى منزلي، ولم أشأ إفساد الأثر الطيب الذي تركته السهرة في نفسي بالذهاب إلى مكان آخر.

فأجاب أبلونسكي:

- أحسنت صنعاً.

ردد العبارة:

- أنا أعرف الجواد الكريم من بعض خصاله، والعاشق من نظراته.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة دلت على أنه فهم مغزى العبارة، ولكنه عمد لتغيير مجرى الحديث فسأل:

- وأنت.. ماذا جئت تصنع هُنا؟

- أنا؟.. إني جئت لاستقبال سيدة حسناء.

بُهت فرونسكي وهتف في دهشة:

- سيدة حسناء؟!

- لا تُسيء بي الظن بهذه السرعة يا صديقي، إني جئت لاستقبال شقيقتي أنّا.

- آه.. تعني أنّا كارنينا.

- هل تعرفها؟

فأجاب فرونسكي وهو يحاول أن يتذكر:

- ربما.. إنني لا أذكر تماماً.

- ولكنك بغير شك تعرف زوجها أليكسيس كارنين، إنه رجل ذائع الصيت.

- نعم، إنني أعرفه وأعلم أنه ذو شخصية بارزة ومكانة مُحترمة.

- بهذه المُناسبة، هل تعرفت ليلة أمس إلى صديقي ليفين. ميشيل ليفين؟

فأجاب فرونسكي:

- طبعاً، ولكن لسوء الحظ أنه انصرف مُبكراً.

- إنه شاب ذكي أليس كذلك؟

- أنا لا أعرفه حق المعرفة، ولكن خُيل في الفترة القصيرة التي قضيتها معه أمس أنه شاب غريب الأطوار سريع الانفعال.

- إنك لم تُنصفه يا صديقي، فهو دمث الخلق، ولكني أعتقد أنه كان لديه من الأسباب أمس ما يحمله على أن يكون سعيداً جداً، أو شقياً جداً.

كف فرونسكي عن السير، وسأل في صراحة:

- ماذا تعني؟ هل تعتقد أنه ذهب إلى بيت آل شرباتسكي أمس، ليطلب يد الآنسة كاترين؟!

أجاب أوبلونسكي:

- ربما، لقد خُيل إليَّ أمس أنه ينوي ذلك، وما دام قد انصرف مُبكراً وهو بحالة تأثر وانفعال ومعنى ذلك أنه مسكين، إنه يُحبها مُنذ أمد طويل.

قال فرونسكي وهو يتنفس ملء رئتيه:

- لكني أظن أنها جديرة بزوج أفضل منه ومهما يكن من أمر فإنني لا أعرفه حق المعرفة كما قلت لك.. آه.. هو ذا القطار قد أقبل.

والواقع أنهما سمعا في هذه اللحظة صفيراً ثاقباً ثم اهتزت الأرض تحت أقدامهما، وتهادى القطار في المحطة ببطء وأخذ بعض المُسافرين في النزول قبل أن يقف القطار تماماً، فراح فرونسكي يرقبهم بعينين شاردتين، وهو يُفكر فيما قاله أوبلونسكي عن كاترين، ويشعر بارتياح يُمازجه سرور مُبهم، وشغله التفكير في ذلك عن كُل شيء، فنسي القطار ونسي أمه، ولم يفق من ذهوله إلا عندما سمع ضابطاً من ضُباط حرس القيصر يقول:

- الكونتس فرونسكي في هذه المركبة.

وقصد فرونسكي للمركبة التي أومأ إليها الضابط وهم بالصعود إليها، ثُم رأى سيدة تُريد الهبوط، فأفسح لها السبيل، وقد أدرك من أول نظرة إلى هذه السيدة أنها تنتمي إلى أرقى طبقة في الهيئة الاجتماعية، فاعتذر لها عن وقوفه في طريقها، وانتظر حتى هبطت، ثُم صعد إلى المركبة ولكنه اضطر أن ينظر إلى تلك السيدة مرة أخرى ليس فقط لأنها على جانب عظيم من الجمال، أو لأنها أرشق امرأة وقع عليها بصره رغم بساطة ثيابها، وإنما لأنه رأى على وجهها الفاتن آية عجيبة من آيات الدعة واللطف..

واتفق في تلك اللحظة أنها نظرت وراءها، فوقع بصرها عليه ولمعت عيناها كأنها عرفته، ثُم أجالت الطرف بين الجموع المُحتشدة على إفريز المحطة كأنها تبحث عن شخص بعينه، ودخل فرونسكي المركبة، وأبصرت به أمه وبسطت إليه يدها الهزيلة فقبلها، وتناولت الأم وجه ابنها بين يديها، وقبلت جبينه بلطف وقالت له:

- **هل تسلمت برقيتي، وهل أنت بخير!!.. شكراً لله.**

فقال وهو يجلس بجانبها:

- **هل كانت رحلة موفقة؟!**

لم يسمع جواب أمه لأنه كان يصغي بالرغم منه لصوت آخر عند باب المركبة خُيل إليه أنه صوت السيدة التي صادفها منذ لحظة، وكانت تلك السيدة تقول:

- مهما يكن من أمر، فإنني لا أقرك على هذا الرأي..

قال يُحدثها:

- إنك تنظرين إلى الأشياء بالعين التي ينظر بها أهل بطرسبرج.

فأجابت السيدة ببساطة:

- بل بالعين التي تنظر بها كل امرأة.

- سوف أنتهز أول فرصة لإقناعك يا سيدتي، أما الآن فإلى اللقاء.

- إلى اللقاء يا إيفان بتروفتش، أرجوك إذا صادفت أخي أن تبعث به إلى هنا..

عادت السيدة للمركبة، فسألتها الكونتس فرونسكي:

- هل وجدت أخاك؟

عندئذ فطن فرونسكي إلى أن هذه السيدة لا بد أن تكون شقيقة أوبلونسكي، فقال وهو ينهض:

- إن أخاك هنا يا سيدتي، معذرة إذ لم أكن قد عرفتك في التو.

أحنى قامته باحترام، فقالت وعلى شفتيها ابتسامة فاتنة:

- بل أعتقد أنه يجب عليَّ أن أعرفك قبل أن تعرفني، فوالدتك لم

تُحدثني أثناء الطريق إلا عنك... ولكن أين أخي!!

فقالت الكونتس العجوز لابنها:

- اذهب وادعه يا أليكسيس.

فخرج فرونسكي من المركبة لاستدعاء أوبلونسكي، ولم تنتظر أنّا كارنينا حتى يحضر أخوها، فغادرت المركبة بخطوات ثابتة سريعة، وما كادت ترى أوبلونسكي، حتى أحاطت عنقه بساعدها وقبلت خده برشاقة أثارت إعجاب فرونسكي، فلم يحول عينيه عنها، وظل يبتسم دون أن يدري لماذا يبتسم، ولكنه ما لبث أن تذكر أن والدته تنتظره في المركبة فقصد إليها، قالت الكونتس:

- إنها ظريفة جداً، أليس كذلك؟ وقد لذ لي حديثها أثناء الطريق، فلم أشعر بسأم أو ملالة (ثم أردفت بالفرنسية) لقد قيل لي إنك وقعت على فتاة من أكرم الأسر، فدعني أهنئك يا ولدي.

فأجابها ببرود:

- إنني لا أفهم ماذا تعنين يا أماه.

وفي هذه اللحظة، عادت أنّا كارنينا لكي تودع الكونتس، وقالت لها في لطف:

- ها أنت قد قابلت ولدك يا سيدتي الكونتس، كما أنني قابلت أخي،

ومن حُسن الحظ أننا وصلنا في الوقت المُناسب حين فرغت جُعبتي من القصص وكدت لا أعرف كيف أدفع عنك السأم.

أجابت الكونتس وهي تشد على يدها:

- كلا.. كلا يا ابنتي، إنني أستطيع أن أطوف حول العالم معك دون أن أشعر بسأم. إنك من النساء القلائل اللائي يطيب للإنسان أن يجالسهن. سواء تكلمن أو صمتن. ولكنني أرجوك ألا تقلقي من أجل ولدك. وأن تهيئي نفسك دائماً لمثل هذا الفَراق. والواقع ... أي أم لا ترغمها الظروف على فراق ابنها.

فصمتت أنّا كارنينا، وظلت عيناها تبتسمان، وقالت الكونتس لولدها موضحة:

- إن لأنّا كارنينا طفلا أظنه في الثامنة من عمره. وقد كانت شديدة القلق والانزعاج من أجله، لأنها لم تفارقه قبل الآن .

فقالت أنّا ووجهها مشرق بابتسامة فاتنة:

- نعم.. إنني والكونتس قد قضينا الوقت كله في الحديث: أنا عن ولدي، وهي عن ولدها.

فأجابها فرونسكي مداعباً:

- وهو حديث يدعو إلى الضجر بغير شك.

ولكن دعابته لم تجد صدى عندها، لأنها ما لبثت أن تحولت إلى الكونتس وقالت لها:

- دعيني أكرر لك شكري على ما لقيت من كرم خلقك وسعة صدرك يا سيدتي الكونتس، وإلى اللقاء.

- إلى اللقاء يا عزيزتي.. اسمحي لي أن أقبل وجهك الجميل. إنني امرأة متقدمة في السن، لا أعرف الخداع، وإني أقول لك في صراحة أنك أذهلتني وخلبت لبي بظرفك ورقة حديثك

فاحمر وجه أنّا كارنينا، وانحنت إلى الأمام لتسمح للكونتس بتقبيلها، ثُم شدت على يد فرونسكي، وانصرفت من المركبة وهي تمشي بنشاط ورشاقة طبيعيين وغمغمت الكونتس:

- إنها امرأة فاتنة حقاً.

كان ذلك أيضاً رأي ولدها، فإنه ظل ينظر إلى أنّا كارنينا، ويتبع قامتها الرشيقة ببصره حتى غادرت المركبة، ثُم رآها من النافذة، وهي تتحدث إلى أخيها بحدة حديثاً أيقن فرونسكي أنه لا يتصل به من قريب أو من بعيد، فأشعره ذلك بشيء من الضيق والحرج، وتحول الشاب إلى أمه أخيراً وقال:

- لننصرف الآن يا أماه، فقد خفت وطأة الزحام.

وتأبط ساعدها، ولكنهما ما كادا يبرحان المركبة حتى هم بهما بعض

الناس وبينهم ناظر المحطة وهم يهرولون، وعلى وجوههم علامات القلق والفزع، ولم يكن ثمة شك في أن أمراً غير عادي قد حدث، وصاح بعض المسافرين:

- ماذا؟.. ماذا!! أين؟ ألقى بنفسه تحت.. وهل قتل!!

وأصغى أوبلونسكي وشقيقته إلى ما يُقال حولهما، وارتسمت في عيونهما نظرة ذعر، واشتد الزحام على الأثر وساد الاضطراب والجزع فعادت أنّا كارنينا والكونتس للمركبة، ولحق أوبلونسكي وفرونسكي بالقوم لاستطلاع الخبر، وهناك علماً أن أحد الحراس لم يشعر باقتراب القطار. إما لأنه كان ثملاً، أو لأنه كان يعصب رأسه وأذنيه اتقاء البرد، فدهمه القطار ومزقه إرباً.

وعاد أوبلونسكي وفرونسكي بعد أن شهدا الجثة الممزقة..

وفي هذه الأثناء، كانت أنّا كارنينا والكونتس قد علمتا بالحادث، فقال أوبلونسكي، وعضلات وجهه تختلج كمن يهم بالبكاء:

- يا له من منظر مخيف، أواه يا أنّا، لو شهدت ذلك المسكين، وقد أصبح كتلة مختلطة من اللحم والدم.

أما فرونسكي فإنه لزم الصمت وظل وجهه الجميل مُحتفظاً بهدوئه واستطرد بصوت يرتجف:

- إن زوجته هُناك، وكان منظرها عندما ألقت بنفسها فوق جثته مُؤلماً ومُخيفاً، وقيل لي أن الرجل التعس كان يعول أسرة كبيرة.

هتفت أنّا كارنينا بصوت ينم عن الانفعال والتأثر:

- ألا يُمكن عمل شيء من أجل هذه الأسرة الشقية!

فرمقها فرونسكي بنظرة سريعة ثم ابتعد وهو يقول لأمه:

- صبراً لحظة يا أماه.

ولما عاد بعد بضع دقائق كان أوبلونسكي قد نسي الحادث المُحزن، وراح يتحدث لأخته عن الملاهي والمسارح، وعن مُغنية جديدة ينتظرها أهل موسكو بفارغ صبر، وتأبط فرونسكي ساعد أمه، وسار بها في المقدمة، وتبعهما أوبلونسكي وأنّا كارنينا، ولكنهم ما كادوا يبلغون الباب الخارجي. حتى لحق بهم ناظر المحطة وهو يلهث. وقال محدثاً فرونسكي:

- إنك أعطيت مساعدي مائتي (روبل)، فهلا تكرمت ذكر الغرض من هذه الهبة؟

- إنها لأرملة الحارس القتيل (ثم هز كتفيه واستطرد) وهل الأمر يحتاج إلى سؤال؟!

صاح أوبلونسكي:

- هل تبرعت للأرملة بهذا المبلغ؟!

وضغط على ساعد أخته وغمغم:

- ما أطيب قلبه!! ما أطيب قلبه!!

انصرف فرونسكي ووالدته، وأبطأ أوبلونسكي وأخته قليلاً بانتظار مركبة تذهب بهما، وكان المُسافرون لا يزالون يتحدثون عن الحارس التعس، فقال أحدهم:

- يا لها من موتة بشعة، لقد قيل لي إن القطار شطره شطرين.

فقال آخر:

- إنها موتة بشعة حقاً، ولكنها سهلة وسريعة.

وقال ثالث:

- لست أعلم لماذا لا يتخذون الاحتياطات اللازمة لمنع هذه الكوارث.

استوقف أوبلونسكي إحدى المركبات، وساعد أخته على الصعود ولاحظ في دهشة أن شفتيها ترتجفان، وأنها تحبس دموعها بمشقة، فسألها:

- ماذا بك يا أنّا؟

- لا شيء.. هذه نبوءة سيئة.

- ياللخرافة؟! إنك هنا، وبخير، وهذا هو المهم، إنك لا تتصورين مبلغ الآمال التي أعقدها عليك.

فسألته فجأة:

- هل تعرف فرونسكي منذ وقت طويل؟

- نعم.. ونحن نأمل أن يعقد قرانه قريباً على كاترين

فقالت بصوت خافت:

- أحقاً تقول!!

ثُم هزت رأسها كأنها تُريد التخلص من خاطر مُلح، وقالت:

- ولكن دعنا نتحدث عنك، إنني تسلمت رسالتك، وأنا حضرت فأنبئني، ماذا حدث بينك وبين داريا؟

راح يسرد عليها القصة في صراحة، ولما وصلا للبيت ساعدها على النزول من المركبة ثُم شد على يدها ومضى لبعض شؤونه.

في المساء كتبت أنا كارنينا إلى أوبلونسكي لكي تتناول طعام العشاء في بيته وختمت رسالتها بهذه الكلمات: «حمداً لله لقد وفقت في مهمتي».

تناول أوبلونسكي العشاء مع أخته وزوجته وأولاده، وبادلته داريا الحديث لأول مرة منذ بضعة أيام، وعلى الرغم من أن الصلة بينهما ظلت على فتورها، فإن فكرة الفراق أو الطلاق استبعدت تماماً بفضل وجود أنا وتأثيرها، وبعد العشاء أقبلت كاترين لزيارة أنا كارنينا، ولم تكن تعرفها إلا قليلاً، ولكنها سمعت الكثير عن فتنتها وذكائها وقوة شخصيتها. على أنها لم تلبث حينما اجتمعت بها، أن اعترفت فيما بينها وبين نفسها بأن ما سمعته من إطراء هو دون الحقيقة بكثير، ولم يكن هناك وجه للمقارنة بين أنّا كارنينا وأية امرأة متزوجة أو غير متزوجة عرفتها كاترين، فإن الناظر إلى وجهها الفتي، وتكوينها الفاتن، وحيويتها، يؤمن بأنها لا تتجاوز العشرين من عمرها، وهي على الرغم من بساطتها وصراحتها، تشعر محدثها بأن في شخصيتها الجذابة ناحية غامضة مجهولة ليس من السهل تحليلها والتغلغل فيها..

وكانت داريا قد انسحبت إلى غرفتها، وجلس أوبلونسكي يدخن لفافة تبغ، فأومأت أنّا برأسها نحو غرفة داريا، وقالت لأخيها:

- اذهب يا ستيفان، وليوفقك الله..

فأدرك غرضها وألقى بلفافة التبغ ونفذ من الباب، وبقيت أنّا بين الأولاد تُداعبهم ويُداعبونها إلى أن قالت كاترين:

- إننا سنُقيم حفلة راقصة بالأسبوع القادم، ويسرني أن تُساهمي فيها، وأؤكد لك أنك ستجدين فيها الشيء الكثير من ضروب التسلية.

فأجابت أنّا بتهكم:

- هل لا تزال توجد حفلات مُسلية! أنا شخصياً لا أستطيع أن أصف إحدى الحفلات بأنها أوفر تسلية من سواها، فالحفلات جميعاً مُضجرة، وكُل ما هُنالك أن نسبة الضجر تتفاوت بكل منها

فهتفت كاترين، وقد ازداد شعورها بغموض مُحدثتها:

- كيف لمثلك أن تشعر بالضجر بإحدى الحفلات.

- ولم لا؟

فأجابت كاترين ببساطة وصراحة:

- لأنك يجب أن تكوني دائماً أجمل كوكب في كل حفلة.

وكانت أنّا سريعة الخجل، فاحمر وجهها في الحال وأجابت:

- هذا ليس صحيحاً، وعلى فرض أنه صحيح، فما الأهمية؟

- يسرني أن تساهمي في هذه الحفلة.

ثم رمقتها بإعجاب واستطردت:

- يا إلهي، كم تكونين جميلة في ثوب وردي!!

- في ثوب وردي؟! أنا أعلم لماذا تريدينني أن أساهم في هذه الحفلة،

إنك تتوقعين نتيجة سارة، وتريدين أن يساهم الجميع في سرورك.

- هذه هي الحقيقة، ولكن كيف علمت؟!

فاستطردت أنّا دون أن تُجيبها:

- ما أبدع هذه الفترة من حياتك، إنها الفترة التي تلتقي فيها أحلام الشباب الموزعة، لتنصب بأخدود واحد، لغاية واحدة تقصد إليها الفتاة، وبنفسها مزيج مُمتع من السعادة والجزع، أية امرأة لم تمر بهذه الفترة!!

ابتسمت كاترين ونظرت إليها في فضول.. كمن يريد أن يقول:

- وأنت.. كيف مررت بهذه الفترة؟.. ليتني أعرف قصتك.

ارتسمت في ذهنها صورة أليكسيس كارنين ووجهه الدميم، وعجبت لأنّا كيف أمكن أن تنتهي قافلة أحلامها عند مثل هذا الزوج؟

قالت أنّا:

- لقد حدثني ستيفان عن فرونسكي، وإني أهنئك من كل قلبي فهو شاب كريم الخلق، وقد قابلته اليوم في المحطة.

فاحمر وجه كاترين وهتفت:

- هل قابلته حقاً؟؟ وماذا قال لك ستيفان؟

- إنه قال أشياء كثيرة. ويسرني حقاً أن يعقد لك على فرونسكي.

- إنني قطعت الرحلة مع أمه، فكانت تتحدث عنه طول الطريق، والظاهر أنه أحب أبنائها إليها.

- وماذا قالت أمه؟

- إنها بالغت في إطراء نبله. فقالت مثلاً إنه نزل عن كل أملاكه لينقذ أخاه من ورطة مالية. وجازف مرة بحياته لينقذ امرأة من الغرق.. إنه بطل كما ترين.

وتذكرت المائتي روبل التي تبرع بها لأرملة الحارس، ولم تتمالك نفسها من الابتسام، بيد أنها لم تُحدث كاترين بقصة هذا التبرع، وكانت تشعر شعوراً مُبهماً بأن وراء هذا التبرع حافزاً آخر يتصل بها شخصياً، وكان يجب ألا يكون.

وقضت كاترين وقتاً طويلاً في العناية بكل صغيرة وكبيرة تتصل بهندامها ومظهرها، استعداداً للحفلة التي توقعت أن تسفر عن إعلان خطوبتها للكونت فرونسكي، ولما غادرت غرفتها أخيراً، وتهادت بين الشموع والورود في طريقها إلى قاعة المرقص.. كانت أنغام الموسيقى تتجاوب في أنحاء المنزل، والحفلة قد بدأت فعلاً. ولم تكد تدخل قاعة الرقص حتى وقع بصرها على أنّا كارنينا، وكانت قد اجتمعت بها مراراً خلال الأسبوع وأعجبت بها، ولكنها لم تقدر جمالها وفتنتها حق قدرهما إلا في تلك اللحظة، وكانت تتخيلها دائماً في ثوب وردي يضارع لون

خديها، ولكنها وجدتها أشد ما تكون فتنة في الثوب الأسود الذي كان ترتديه ولم يسعها إلا أن تعترف فيما بينها وبين نفسها بأن الثياب لا قيمة لها حين تكون القامة الرشيقة هي كل شيء. والواقع أن رشاقة أنّا الطبيعية طغت على ثوبها المخملي الأسود، فكان الثوب منها كالإطار من الصورة الجميلة، يكتسب منها رونقاً ولا يزيدها جمالاً.

ووقفت أنّا كارنينا بين المدعوين والمدعوات، فبرزت عليهم ببساطتها، وفتنتها، ومرحها، وحيويتها، وكانت تتحدث مع أستاذ للرقص يُدعى كورسونسكي حين اقتربت كاترين، فابتسمت لها بعطف، وتأملت هندامها بنظرة نسوية خاطفة، وعبرت عن موافقتها وإعجابها بإيماءة من رأسها فهمتها كاترين، وقالت أنّا:

- إنك تمشين إلى الحفلة مشية أرشق من الرقص.

قال كورسونسكي:

- إنها أفضل تلميذة لدي، الموسيقى تعزف يا أنّا أفلا ترقصين؟

- إنني لا أرقص، متى كان في استطاعتي أن أعتذر.

- ولكن ليس في استطاعتك الليلة أن تعتذري.

في هذه اللحظة أقبل فرونسكي، فقالت أنّا:

- ما دام ذلك كذلك، فهلم إلى الرقص.

ووضعت يدها على كتف كورسونسكي بسرعة، دون أن تحفل بفرونسكي الذي حياها بإحناء قامته، ولاحظت كاترين أن أنّا قد أغفلت تحية فرونسكي عمداً، ودهشت، وسألت نفسها: "تُرى لماذا تجاهلته؟"

أما فرونسكي فإنه اقترب من كاترين وحياها وراح يعبر لها عن أسفه لأنه لم يستطع زيارتها طيلة الأسبوع الماضي، وأصغت الفتاة إليه وهي تنظر في ذات الوقت إلى أنّا وتتأمل رقصتها وتعجب برشاقتها، وكانت تتوقع أن يدعوها فرونسكي إلى مراقصته، ولشد ما كان يأسها وألمها حين لم يفعل. بيد أنه تنبه أخيراً، واحمر وجهه، ودعاها إلى مراقصته.

ورمقته كاترين بنظرة عميقة، تُعبر عما يعتمل في أعماقها من حُب وظلت بعد ذلك أعواماً طوالاً، تذكر هذه النظرة وتشعر بالخجل، لأنها لم تجد لها صدى في عينيه وحواسه، ورقصت كاترين وفرونسكي شوطين آخرين، ودار الحديث بينهما أثناء الرقص حول شؤون عادية، واضطربت كاترين ظهراً لبطن حين سألها فرونسكي عن ليفين، وعما إذا كان لا يزال موجوداً في موسكو، وقد توقعت الفتاة أن يكون هذا السؤال ممهداً لحديث آخر عن الحب والخطوبة والزواج، ولكن فرونسكي لم يتحدث في شيء من ذلك. فأيقنت كاترين أنه يرجئ مفاتحتها إلى رقصة (الفالس) الكبرى وهي آخر الرقصات وأهمها جميعاً. ولم يزعجها أنه لم يدعها إلى الاشتراك معه في رقصة (الفالس)، لأنها كانت واثقة من أنها ستزامله حتماً في هذه الرقصة، ولذلك اعتذرت لجميع الراقصين الذين توسلوا إليها أن ترقص معهم رقصة (الفالس)، وقالت لهم جميعاً أنها

وعدت (آخر) بهذه الرقصة، وكانت أنّا تُراقص فرونسكي، وفرونسكي يتحدث إليها بصوت خافت، وعلى وجهه آية بليغة من آيات المذلة والتوسل، وفي عينيه نظرة خضوع وتهيب، هي نظرة الرجل الذي يهم بالركوع تحت قدمي مُحدثه، وكانت أنّا تصغي إليه، وفي عينيها نظرة سرور وعلى شفتيها الورديتين الرقيقتين ابتسامة سعادة، وقد بدا عليها كأنها تُحاول ضبط عواطفها وإخفاء شعورها بالغبطة والسعادة، فيأبى هذا الشعور إلا أن يطل من عينيها، ويرتسم على قسمات وجهها ويتفجر من جسدها بحركات رشيقة، كُلها فتنة وحيوية، وأحست الفتاة المسكينة كسحابة كثيفة قد غشيت عينيها وتلبدت في جو المكان، فحجبت الوجوه الضاحكة والشموع المُضيئة، والزهور اليانعة، ولكنها استطاعت بفضل متانة خلقها فقط، أن تفعل ما كان يتعين عليها أن تفعله في هذا الموقف، فراحت تتحدث، وتُجيب عن الأسئلة التي تُلقى عليها، بل وتبتسم أيضاً..

وأخيراً حان موعد رقصة (الفالس)، وغاص قلب كاترين بين جنبيها حين لاحظت أن فرونسكي لم يبرح مكانه بالقرب من أنّا كارنينا، وأنه لم يتقدم لدعوتها للرقص واستولى عليها مزيج من اليأس والذعر، فإنها اعتذرت لجميع الذين طلبوا مُراقصتها، وكُل راقص قد اختار الآن زميلته ولا أمل في أن يتقدم إليها أحد، وتحطم قلبها وانهارت آمالها، بل وخُيل إليها أن الدنيا كُلها قد انهارت حولها، ووجدت أنه لا سبيل للتخلص من الخزي والعار إلا أن تصطنع المرض وتنسحب، ولكنها لم تقو حتى على ذلك، فمشيت في المكان مشية الحيوان الجريح، وتهالكت على مقعد

في أحد الأركان.

على الرغم من أنها كانت في الظاهر في تلك اللحظة أشبه بفراشة جميلة قد استقرت على عود من العشب لتنشر جناحيها وتُحلق في الفضاء في آية لحظة، فإن قلبها كان في الواقع يتحطم بين جنبيها تحت ثقل الحزن واليأس وخيبة الأمل، وراحت تُجادل نفسها بقولها:

- ولكن، رُبما كنت على خطأ، رُبما لم يكن بينهما شيء مما أتوهم.

استعاد ذهنها، وقلبها، كُل ما شهدته، وأحست به، واعترفت فيما بينها وبين نفسها بأنها لم تكن على خطأ، وفجأة سمعت صوتاً يقول:

- ما معنى هذا يا كاترين؟!

رفعت رأسها، ورأت الكونتس نوردسون، وكانت الكونتس قد اقتربت منها بخطوات غير مسموعة، وارتجفت شفتا كاترين، ونهضت واقفة دون أن تُجيب، وهتفت الكونتس:

- ألا تشتركين في رقصة (الفالس) يا كاترين.

فأجابت كاترين بصوت تخنقه العبرات: "كلا.. كلا.."

فقالت الكونتس:

- إنه توسل إليها أمامي أن تشترك معه بهذه الرقصة، فسألته «ألم تعد

الآنسة كاترين بهذا الشوط؟»، فأجاب بالنفي، والحلف عليها مرة أخرى أن تراقصه...

فهزت كاترين كتفيها وهمست: "سيان عندي".

لم يكن هناك من يفهم حقيقة موقفها سواها، لأن أحداً سواها لا يعلم أنها صُدت مُنذ أيام رجلاً يحبها. وربما كانت تحبه كذلك وصدته لأنها وضعت ثقتها في رجل آخر ليس أهلاً لهذه الثقة، وكان من المتفق عليه بين كورسونسكي والكونتس نوردسون أن يرقصا معاً رقصة الفالس. ولكن الكونتس اعتذرت في اللحظة الأخيرة، وطلبت إلى كورسونسكي أن يراقص كاترين.

وهكذا أُنقذ الموقف، ومن حُسن حظ كاترين أنها لم تضطر إلى التحدث لكورسونسكي أثناء الرقص، فقد كان هذا الأخير في شغل بمراقبة الراقصين وإصدار التعليمات لرجال الموسيقى، ووقع بصر كاترين على أنّا كارنينا وفرونسكي وهما يرقصان معاً، وزاد يقينها من أن الضربة قد سقطت، وكانا كأنهما في واد آخر، وكأن المكان لا يضم أحداً سواهما، وقد بدت على وجه فرونسكي مسحة من الحيرة والخضوع كتلك التي تبدو على الكلب الذكي حين يشعر بأنه أذنب، وكان إذا ابتسمت أنّا شاع الابتسام على وجهه، وإذا تجهمت تجهم وعبس..

وأحست كاترين بقوة قاهرة، تجذب بصرها إلى وجه أنّا ولم يسعها إلا أن تُعجب بها، وإلا أن تعترف لها بالفتنة رغم بساطة ثوبها ولكنها

فتنة مُخيفة ممزوجة بشيء كثير من القسوة، وكُلما زاد إعجابها بأنّا، زاد كذلك شعورها باليأس والفشل، وانعكس هذا الشعور على مرآة وجهها، حتى كاد فرونسكي ألا يعرفها، حين قادته قدماه على مقربة منها، وأراد أن يقول لها أي شيء فقال:

- يا لها من حفلة باهرة؟!

- نعم.

وفرق الراقصون بينهما.

صمتت أنغام الموسيقى أخيراً، وانفرط عقد الراقصين، وجلس بعضهم وهو يلهث من التعب، ونظرت كاترين إلى حيث كانت أنّا كارنينا، فوجدتها واقفة تبتسم بين كورسونسكي وفرونسكي، وقالت لنفسها، وهي ترقب بريق عينيها، وحركات يديها:

- نعم... إن في جمالها شيئاً غريباً.. شيطانياً.

ولم يكن في نية أنّا كارنينا أن تبقى لتتناول طعام العشاء مع المدعوين، فقال كورسونسكي ليغريها بالبقاء:

- إنني ابتكرت رقصة جديدة يا أنّا كارنينا، وبودي أن تشتركي فيها بعد العشاء.

فأجابت وهي تبتسم:

- كلا.. إنني سأنصرف.

أيقن كورسونسكي من لهجتها الحازمة، وبالرغم من ابتسامتها، أنها مصممة على الانصراف.. واستطردت أنّا:

إنني رقصت الليلة بموسكو، أكثر مما رقصت طيلة الشتاء في بطرسبرج، ثُم إنني يجب أن أستريح وأتأهب للسفر.

هتف فرونسكي:

- هل ترحلين غداً حقاً؟

- نعم.

رمقته بنظرة سريعة، كأنها أدهشتها جرأته، وأحس فرونسكي بنظرتها تنفذ إلى أعماقه، وتُشعل النار في قلبه.

الفصل الرابع

لوحت أنّا بيدها مودعة أخاها وهي في القطار، وظلت تُشيعه ببصرها حتى غادر القطار المحطة، وعندئذ غمغمت: "حمداً لله.. لقد انتهى كل شيء".

تهالكت على مقعد بأحد أركان المركبة ورددت مرة أخرى:

- حمداً لله، غداً أرى (سيرج) و(أليكسيس كارنين)، وتسير حياتي بمجراها الهادئ الطبيعي كالمعتاد.

فتحت حقيبتها، وأخرجت منها وسادة صغيرة وضعتها على ركبتيها، وغطاء أحاطت به قدميها، وكانت بالقرب منها سيدتان مُتقدمتان في السن، راحتا تتحدثان إليها عن وسائل التدفئة في مركبات السكة الحديدية، فأجابتهما باختصار ولم تجد ما يُغريها على الاشتراك معهما في الحديث، فأخرجت من حقيبتها كتاباً وراحت تقرأ

ولكنها لم تستطع القراءة في البداية، وأزعجتها جلبة المُسافرين وكان من المستحيل ألا تصغي على الرغم منها لأحاديثهم عن رداءة الطقس والريح الشديدة التي تهب في الخارج، وتُبشر بعاصفة ثلجية شديدة، وسكنت الضجة قليلاً، فشرعت أنّا كارنينا تقرأ كتابها، ثُم لاحظت فجأة أنها لا تكاد تفهم شيئاً مما تقرأ، وأنها لا تزال على الرغم

منها تُفكر في موسكو، وفي الأثر الذي تركته الزيارة في نفسها، كانت تحتفظ من هذه الزيارة بأمتع الذكريات وأسعدها.

فكرت في الحفلة الراقصة وفخامتها، وفي فرونسكي ونظراته الجائعة الخاشعة، ووجدت أنها لم تفعل ولم يكن هناك ما تخجل منه، ولكنها مع ذلك كانت تشعر في قرارة نفسها بالقلق والخجل، واستبد بها هذا الشعور حتى وجدت من الضرروي أن تتخلص منه، فقالت لنفسها وهي تعتدل بمقعدها: "ما معنى هذا؟ هل يُخيفني أن أنظر للواقع في وجهه؟ ولماذا أحس بالقلق والخجل، هل توجد أو يُمكن أن توجد بيني وبين هذا الضابط الشاب أية علاقة تختلف عن علاقتي العادية بسائر الناس؟"

ابتسمت بازدراء، وتناولت كتابها، وحاولت القراءة، ولكنها لم تستطع بحال أن تفهم شيئاً مما تقرأ، وعندئذ ألقت بالكتاب جانباً، ونهضت للنافذة، وألصقت جبينها بزجاجها البارد، وأحست بأن أعصابها مُتوترة لدرجة الانفصام، وأن قدميها وأصابعها تختلج وتتحرك من تلقاء نفسها، وأن شيئاً بأعماقها يحبس أنفاسها، وكان القطار قد بلغ المحطة التالية، فسارت أنّا لباب المركبة وسألها أحد موظفي القطار:

- هل تُريدين الخروج؟

- نعم.. إني في حاجة إلى الهواء. إن الجو خانق هنا.

ما كادت تفتح الباب حتى لفحت الريح الثلجية وجهها، وكادت أن

تردها على عقبيها، ولكنها تجلدت لها ووثبت لأفريز المحطة، وتلقفتها الريح العاتية الثلجية، وعصفت بثوبها، وصفرت في أذنيها، ولكنها لم تعبأ بشيء وجعلت تسير على أفريز المحطة جيئة وذهاباً، وتتنفس ملء رئتيها، إلى أن صفر القطار، فعادت للمركبة بيد أنها ما كادت تغلق الباب، وتدور على عقبيها، حتى فُتح الباب مرة أخرى، وهبت منه لفحة هواء كادت تحمل قُبعتها، فألقت بيدها على القبعة، ونظرت وراءها، وأبصرت بفرونسكي واقفاً بالباب، وحياها الضابط الشاب بانحناء قامته وسألها إن كانت في حاجة لشيء، أو كان باستطاعته أن يُقدم إليها خدمة ما، فنظرت إليه طويلاً ولم تُجبه، ورأت بعينيه نظرة الافتتان وعلى وجهه مسحة الخشوع اللتين رأتهما الليلة السابقة، وتركتا في نفسها أعمق الأثر، وكانت تُؤكد لنفسها طيلة الليلة الماضية، بل ومنذ بضع دقائق، أن ما بينها وبين فرونسكي لا يُمكن أن يختلف عما بينها وبين مئات الشباب الذين قابلتهم في كل مكان، وأنها لن تسمح لنفسها بالتفكير فيه إلا كما تُفكر في شخص قابلته عرضاً في إحدى الحفلات، ومر في حياتها مرور عابر السبيل، وانتهى ما بينها وبينه (إن كان بينهما شيء على الإطلاق) بانتهاء الحفلة التي جمعت بينهما، بيد أنها ما كادت تراه الآن، حتى أحست في الحال بمزيج من السعادة والخيلاء. لم تكن بحاجة لأن تسأله عن سبب وجوده بالقطار لأنها عرفت السبب وشعرت بأنه إنما سافر معها ليكون حيث تكون، قالت:

- لم أكن أعلم أنك معتزم الرحيل إلى بطرسبرج، فلماذا ترحل؟

وأضاء وجهها بسعادة لم تستطع كتمانها. فأجاب وهو ينظر في عينيها:

- لماذا أرحل لبطرسبرج؟ أنت تعلمين أنني أرحل لأكون معك حيث تكونين.

وأردف بعد قليل كأنه يحدث نفسه: "ليس في طاقتي أن أفعل غير ذلك".

كانت الريح لا تزال تعصف في الخارج بشدة، وتمزج صفير القطار بأنين مُحزن مُخيف، ولكن أنين الريح وصفير القطار كانا في هذه اللحظة أشهى إلى أذنيها من أنغام الموسيقى، فقد امتزجا بصوت فرونسكي وهو يقول لها ما يحن قلبها لسماعه، ويضطرب عقلها من معناه، ولم تُجبه بالتو واللحظة، ورأى الشاب على وجهها أثر المعركة التي قامت في نفسها، وقال لها في خشوع:

- معذرة، إذا كانت كلماتي قد أساءتك.

- إن ما قلته ليس صواباً، ويجب أن تنساه، كما سأحاول أن أنساه.

هتف على الفور:

- كلا، إنني لن أنساه، وليس بمقدوري أن أنسى أية كلمة من كلماتك، أو أية حركة من حركاتك.

فصاحت، وهي تُحاول عبثاً أن تكسب وجهها الفاتن شيئاً من الصلابة: "كفى.. كفى" وأسرعت لمكانها في المركبة، وجلست تُفكر فيما حدث، ولم تستطع أن تذكر كلماته أو كلماتها، ولكنها أحست بالغريزة بأن هذا الحديث القصير قد قرب بينهما، وسرها ذلك وأزعجها في ذات الوقت، واشتد قلقها وتوتر أعصابها حتى خُيل إليها أن شيئاً في أعماقها يوشك أن يتمزق، وقضت الليل كله وهي تُفكر وتسبح في عالم الخيال، ثُم غلبها التعب والنعاس فأغمضت عينيها، ولم تستيقظ إلا عندما وصل القطار لبطرسبرج، وما أن غادرت المركبة حتى وقع بصرها على زوجها، واستقرت عيناها على وجهه الصارم، وعينيه البارزتين، ولم تتمالك من أن تهمس: "يا إلهي.. ماذا حدث لأذنيه؟!"

خُيل إليها أنها لم تر ضخامة أذنيه قبل تلك اللحظة، واقترب منها زوجها، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة مألوفة ونظر إليها بعينين واسعتين مُتعبتين فشعرت تحت نظراته بشيء ثقيل يرزح فوق قلبها، وأحست بالامتعاض من نفسها، وهو إحساس كان يُخالجها دائماً كُلما رأته، وقال لها بصوته الهادئ المألوف:

- هأنذا قد جئت لاستقبالك بحماسة الزوج في الشهر الأول من زواجه.

ضحكت ضحكة مصطنعة ومشت معه...

الفصل الخامس

قضي فرونسكي الساعات الطويلة جالساً ينظر أمامه ولم يغمض له جفن في تلك الليلة، وعجب الذين حوله من صمته الطويل، وحاول أحدهم أن يُجاذبه أطراف الحديث، ولما لم ينجح هز القوم أكتافهم وأيقنوا أن الضابط الشاب مريض بالكبرياء ولا أمل في شفائه، أما فرونسكي فإنه كان يسبح بأفكاره، وأحلامه في واد آخر، وكان يشعر بأنه أسعد مخلوق على الأرض، وليس لأنه كان واثقاً من أنه ترك أثراً في نفس أنّا، وإنما لأن الأثر الذي تركته هي في نفسه أشعره بسعادة وخيلاء لا حد لهما، وكانت قواه ومواهبه وعواطفه كلها موزعة قبل أن يراها. أما الآن فإنها تركزت جميعاً واجتمعت في نقطة واحدة، وليست له إلا غاية واحدة هي أن يراها ويسمع صوتها، وقد سره أنه تحدث إلى أنّا في صراحة، فهي تعلم الآن أنه يحبها وتفكر فيه على الرغم منها.

ولما وقف القطار في محطة بطرسبرج، خرج فرونسكي من المركبة وهو يشعر بالنشاط رغم الليلة المسهدة التي قضاها. وأخذ يسير على أفريز المحطة وهو يفكر فيها، ويقول لنفسه أنه سيراها. ويرى وجهها ومشيتها، وأنها قد تنظر إليه. وقد تقول له شيئاً، وقد تبتسم له، بيد أنه رأى زوجها قبل أن يراها، وعرفه بين الموظفين الذين راحوا يهرولون حوله ليفسحوا له الطريق. هتف على الرغم منه "الزوج".

كان يعلم بأن لها زوجاً، ولكنه لم يُؤمن بوجود هذا الزوج، حتى رآه ورأى رأسه وكتفيه والسروال الأسود الذي يحتوي على ساقيه، ورأى يده الغليظة تُمسك بيدها الصغيرة إمساك صاحب المتاع بمتاعه، حينئذ فقد آمن فرونسكي بوجوده، وحينئذ أحس بالامتعاض الذي يحس به الظمآن حين يقترب من البئر مُتلهفاً فيجد كلباً أو خروفاً أو خنزيراً قد سبقه إليها ولوث ماءها.. واقترن امتعاض فرونسكي باشمئزاز لا حد له حين أطال النظر لكارنين ولاحظ رزانته وبروده، وطول أذنيه، وضخامة قدميه.. أما أنّا كارنينا، فقد ظلت كعهده بها فاتنة رشيقة نشيطة، وقد أشعره منظرها ببهجة ذهبت بامتعاضه واشمئزازه من منظر كارنين..

وشهد فرونسكي لقاء الزوجين، ولاحظ بدقة العاشق وثاقب نظره علامات الحيرة والقلق التي ارتسمت على وجه أنّا وهي تتحدث لزوجها، فقال لنفسه بلهجة المُقتنع: "كلا.. إنها لا تُحبه، ولا يُمكن".

ولما اقترب منها لاحظ والفرح يملأ قلبه أنها قد أحست باقترابه وهمت بأن تنظر إليه، ولكنها عدلت عن ذلك فجأة واستمرت في حديثها مع زوجها، قال لها وهو يحني قامته للزوجين معاً: "هل قضيت ليلة طيبة!!"، فأجابت في اختصار: "نعم.. شكراً لك".

أصغت على الرغم منها إلى وقع خطوات فرونسكي وهو يبتعد، ثم سألت زوجها عن ولدها سيرج، وكيف قضى مدة غيابها، فأجاب كارنين:

- لقد قالت لي (مارييتا) أنه قضاها على خير حال، ويحزنني أن أقول

لك أنه لم يشعر بالوحشة، ولم يأسف لفراقك، بقدر ما أسف زوجك. هُناك شخص آخر يسره أنك قدمت موعد حضورك يوماً وأعني بهذا الشخص صديقتنا الكونتس ليديا إيفانوفنا، فإنها لم تكف عن السؤال عنك والاستفسار عن أنبائك، ولعلك تعلمين مبلغ اهتمامها بمسألة أوبلونسكي، وبهذه المناسبة هل وفقت في مهمتك؟!

- نعم.. شكراً لله.

قصت على زوجها تفاصيل رحلتها مع الكونتس فرونسكي، وقال كارنين:

- مهما يكن من أمر، فإنني يسرني نجاحك في التوفيق بين أوبلونسكي وامرأته، ويقول الناس في موسكو عن مشروع التجنيد الإجباري الذي أثرته في مجلس الوزراء منذ أسبوع أنه مشروع أحدث ضجة عظيمة، وذلك يدعو إلى الاغتباط لأنه يدل على نضج الشعور القومي في هذه البلاد، وسأتركك وأمضي الآن لعملي يا أنّا، لشد ما أنا سعيد بعودتك، إنني لن أتناول الطعام بمفردي بعد الآن.

غمغمت قائلة: "اذهب.. بارك الله فيك".

قالت لنفسها: "إنه طيب القلب، أمين، مُخلص، بارز في الجو الذي يعيش فيه"، وكأنها أرادت بهذه الكلمات أن تُدافع عن زوجها ضد خصم غير منظور يحاول أن يؤكد لها أن من المستحيل عليها أن تحب رجلاً كهذا.

أردفت على الفور: "ولكن لماذا طالت أذناه وتضخمتا لهذا الحد! لا بد أنه قص شعر رأسه لأقصر مما يجب". تذكرت نظرة فرونسكي لزوجها وتساءلت: "بأي حق كان ينظر إليه هكذا؟".

كان ولدها سيرج أول من استقبلها عندما وصلت للبيت، فاحتوته بين ساعديها، وقبلته بحنان، وشرعت بعد ذلك في ترتيب ثيابها، وتلاوة الرسائل التي وردت إليها في غيابها، والإشراف على شؤون بيتها، وزايلها شعورها الغامض بالقلق والخجل، وأحست وهي في بيتها وفي جوها العادي وبين محوطاتها العزيزة المألوفة بالطمأنينة ورسوخ القدم، وبأنه ليس هناك ما تندم عليه أو تخجل منه.

وعجبت لاضطرابها في الليلة السابقة، وقالت لنفسها: "ماذا حدث؟! لا شيء.. لقد قال فرونسكي كلاماً سخيفاً فأجبته بما ينبغي، ومن غير الضروري، بل ومن المستحيل أن أحدث زوجي بالأمر، وإذا حدثته فمعنى ذلك أنني أعقد على الموضوع أهمية ليست له".

تذكرت كيف تحدثت إلى زوجها ذات مرة في أمر شاب من مرؤوسيه علق بها وأوشك أن يفاتحها بغرامه، وكيف أجابها كارنين بأن كل امرأة في المجتمع عرضة لمثل ذلك، وأنه واثق من حسن تصرفها ومتانة خلقها، ولن يهين نفسه ويهينها بالارتياب في سلوكها أو الغيرة عليها.

تذكرت كل ذلك وقالت لنفسها: "إذن لا ضرورة لأن أحدثه، وبعد فليس هناك ما أحدثه به والحمد لله". وخبا اللهب الذي كان يتألق في عينيها في موسكو، وانطفأ الشعاع الذي كان يضيء وجهها.

الفصل السادس

في الشتاء جاء الطبيب الكبير، وكان لا يزال في مُقتبل العمر، فأصر على وجوب فحص المريضة فحصاً تاماً، وقرر أن احتشام الفتيات والنساء أمام الطبيب ليس إلا أثراً من آثار الهمجية وبقية من بقايا العصور الأولى، وأنه لكي يتوفر على تشخيص الداء يجب أن يرى المريضة في ثوب حواء.. وأذعن والدا الفتاة مُرغمين، واضطرت كاترين أن تحتمل آلام المرض وخزي العري، وفحصها الطبيب فحصاً دقيقاً، ثُم غسل يديه بعناية وقصد لغرفة البرنس شرباتسكي، وسعل البرنس، وأصغى إلى الطبيب وهو مُقطب الجبين عابس الوجه، وكان (كجميع الناس الذين لم يعرفوا المرض) قليل الإيمان بالطب والأطباء، وقد نفر من هذا الطبيب بصفة خاصة لأسلوبه الشاذ في فحص المرضى، وتضاعف نفوره من هذه المهزلة كُلها بصفة عامة لشعوره بأنه الوحيد الذي يعرف علة ابنته..

وأقبلت الأميرة شرباتسكي في هذه اللحظة وبرفقتها طبيب الأسرة وهو رجل رصين مُتقدم في السن. قالت الأميرة تُحدث الطبيب الكبير:

- ماذا وجدت يا سيدي الطبيب؟

وأرادت أن تضيف: "ألا يزال ثمة أمل"، ولكنها لم تجسر على إلقاء هذا السؤال. قال الطبيب:

- سأكون رهن إشارتك بعد بضع دقائق يا سيدتي الأميرة.. إنني أريد

الآن أن أتبادل الرأي مع زميلي.

- هل نترككما؟!

- إذا تفضلتما.

فانسحب البرنس شرباتسكي وزوجته، وبقي الطبيبان وحدهما، وأخذ طبيب الأسرة يبدي رأيه، فقال أنه يعتقد أن الفتاة مُصابة بالتدرن الرئوي بأول أدواره لأن.. إلخ... وأصغى إلى الطبيب الكبير، ثُم نظر إلى ساعته وقال:

- ربما كان هذا صحيحاً، ولكن..

صمت طبيب الأسرة احتراماً، واستطرد الطبيب الكبير:

- إنك لا تجهل صعوبة تشخيص التدرن الرئوي في أول أدواره، ولا شك أن أهم ما يُواجهنا الآن هو كيف نُقاوم ضعف الفتاة بواسطة التغذية الصحيحة.

فقال طبيب الأسرة وهو يبتسم:

- لكن لا تنس الاعتبارات النفسية والعاطفية التي تكمن غالباً في أمثال هذه الحالات.

نظر الطبيب لساعته مرة أخرى قائلاً:

- أمامي عشرة دقائق للوصول للمحطة قلنا إننا يجب أن نعمل على

تنظيم التغذية، وتقوية الأعصاب.

- وما قولك في رحلة إلى الخارج؟؟

- إنني لا أقر أمثال هذه الرحلات، وما فائدة السفر للخارج إذا كان المرض قد بدأ.. المهم هو التغذية الصحيحة..

- الأم تُحبذ فكرة السفر لتغيير الجو، والابتعاد عن محوطات من شأنها أن تثير ذكريات لا تسر.

فنظر الطبيب الكبير لساعته للمرة الثالثة وقال:

- لقد حان موعد رحيلي.. لتسافر الفتاة إذن.

أسرع إلى حيث كانت الأميرة وراح يتحدث إليها كما يتحدث لإنسان خارق الذكاء، فوصف لها بعبارات علمية عميقة، كيف يجب أن تشرب كاترين الماء، وكيف يجب أن تأكل، ثُم حبذ فكرة الرحيل للخارج، وانطلق مُسرعاً ليلحق بالقطار، واطمأنت الأميرة، وأخذت تضع مع ابنتها نظام الرحلة لإحدى مُدن المياه المعدنية، حين دخل عليهما البرنس قالت له الأميرة:

- أظن أنه لا ضرورة لسفرك معنا يا ألكسندر.

- على رسلك.

هتفت كاترين:

- ولماذا لا يأتي معنا؟!! أن وجوده أدعى لسروره وغبطتنا

كانت هُناك حفلة استقبال خاصة في بيت الأميرة بتسي ابنة عم فرونسكي وقد وجد فرونسكي عندها جميع الأشخاص الذين اعتاد أن يقابلهم كل ليلة في صالونات المدينة، فدخل قاعة الاستقبال وهو يمشي في هدوء وسكينة، مشية الشخص الذي يعرف أنه سيرى وجوهاً مألوفة.. وكان فرونسكي يعلم عن الصداقة الوثيقة التي بين أنّا كارنينا وبتسي فكان يتردد على بيت الثانية بأمل أن يقابل الأولى، وأن ينتهز الفرصة الملائمة للتحدث إليها..

ودار الحديث بين الزائرين والزائرات عن الموسم المسرحي، وكان فرونسكي يعبر عن إعجابه بإحدى الراقصات حين سمع القوم وقع أقدام تقترب.

وعرفت الأميرة بتسي وقع خطوات أنّا كارنينا، ونظرت إلى فرونسكي، فانبسطت أسارير الضابط الشاب، وتحول إلى الباب وعلى وجهه مزيج من السرور والخجل. ودخلت أنّا كارنينا وهي منتصبة القامة، ثابتة الخطا، لا تنظر يمنة ولا يسرة، وقصدت إلى حيث كانت صاحبة الدار فشدت على يدها وهي تبتسم، ثم تحولت إلى فرونسكي والابتسامة لا تزال تضيء وجهها، فأحنى قامته باحترام، وقدم لها مقعداً، ولكنها عبست واحمر وجهها، ولم تجلس على المقعد، بل تحولت إلى الزائرات وحيت بعضهن بانحناء رأسها، وصافحت الأيدي التي امتدت لتحيتها.

وقالت تحدث بتسي:

- لقد كنت في زيارة الكونتس ليديا، وكان بودي أن أبكر بالحضور إلى هنا، ولكني لم أستطع، فقد وجدت السير جون في بيت الكونتس، وهو رجل منطلق اللسان كما تعلمين.

فهتفت الأميرة (مياكايا)، وهي زوجة أحد السفراء:

- تعنين السير جون، ذلك المبشر الإنجليزي غريب الأطوار!

- نعم، وقد كان حديثه إلينا عن الحياة في الهند طلياً مشوقاً حافلاً بالعجائب.

دبت روح الحركة في الاجتماع، ونشط الحديث بين المدعوين والمدعوات، وزال جو الجمود والفتور الذي كان يخيم على المكان قبل قدوم أنّا كارنينا.

قالت بتسي:

- نعم.. إن هذا السير جون رجل واسع الاطلاع يجيد ضروب الحديث، وقد قابلته أخيراً في بيت البرنس فلاديمير..

- هل صحيح أن ابنة البرنس فلاديمير ستقترن بالكونت توبوف؟!

- نعم.. لقد تم الاتفاق بين الأسرتين.

- يقال إنه زواج حب..

فهتفت زوجة السفير:

- **زواج حب؟؟ ما هذا السخف!! ومن ذا الذي يتكلم عن الحب في هذه الأيام؟**

فقال فرونسكي:

- **إن الحب عامل أساسي في الزواج في هذا العصر.**

- **وهذا من سوء الحظ... إنني أعرف زيجات سعيدة كثيرة، ولكنها جميعاً زيجات عقل ومصلحة.**

فقال فرونسكي:

- **ربما، ولكن ما أكثر الزيجات التي فشلت لأنها قامت على المصلحة فقط، فلما وجد الحب سبيله انهارت المصلحة وانهار الزواج.**

- **إنني أعني بزواج العقل والمصلحة كُل زواج يربط بين رجل وامرأة عرفا الحب من قبل وشفيا من جنونه، إن الحب كالحصبة يجب أن يُصاب به ويبرؤ منه كل من يريد أن يعيش سعيداً.**

- **ما أحوجنا لمصل للوقاية من الحب، كالمصل الواقي من الحصبة والجدري.**

فقالت زوجة السفير:

- عندما كنت في مقتبل العمر، أحببت شاباً موسيقياً، ولكنني لا أعلم أنني أفدت من هذا الحب شيئاً.

فقالت الأميرة بتسي:

- دعينا من الدعابة.. إنني أعتقد أن الإنسان لكي يفهم الحب يجب أولاً أن يشعر بخيبة الأمل.

قالت زوجة السفير بخبث، وكانت تعلم أن بتسي قد اتخذت عشيقاً:

- حتى بعد الزواج؟

فأجابت بتسي:

- وهل لخيبة الأمل في الزواج علاج آخر غير الحب؟. ما قولك في ذلك يا أنّا؟

كانت أنّا كارنينا تصغي لهذا الحديث، وعلى شفتيها الورديتين شبح ابتسامة، فأجابت وهي تعبث بقفازها الأبيض:

- إذا صح ما يقال من أنه توجد عقول بعدد الرؤوس، فإنني أظن أنه يوجد للحب أنواع بعدد القلوب.

وكان فرونسكي ينظر إليها بإمعان، وينتظر جوابها بأنفاس محتبسة، فلما نطقت بهذه الكلمات تنهد بارتياح كمن نجا من خطر، وفجأة تحولت إليه أنّا وقالت:

- **لقد جاءتني رسالة من موسكو، وفيها أن كاترين شرباتسكي مريضة.**

فقطب حاجبيه وهتف:

- **أحقاً تقولين؟!**

فنظرت إليه بحدة وسألت:

- **ألا يهمك هذا النبأ؟!**

- **بل يهمني، هل لي أن أسألك عما جاء بالرسالة حرفياً بهذا الصدد؟!**

فسارت أنّا حتى وقفت وراء مقعد بتسي وقالت لها:

- **اعطيني قدحا من الشاي.**

بينما كانت بتسي تملأ القدح، اقترب فرونسكي من أنّا وسألها مرة أخرى:

- **ماذا جاء في هذه الرسالة؟!**

فقالت أنّا دون أن تُجيبه:

- **إنني أعتقد دائماً أن الرجال لا يفهمون معنى الشرف وإن كانوا يتشدقون به على الدوام وقد كُنت أود أن أقول لك ذلك منذ وقت طويل.**

جلست أمام مائدة صغيرة في أحد الأركان توجد عليها مجموعة من الصور، وتبعها فرونسكي وقدح الشاي بيده، وقدمه إليها وهو يقول:

- إنني لا أفهم ما تعنين.

فأجابت دون أن تنظر إليه:

- إنني أريد أن أقول لك إن سلوكك كان بشعا..

- لست أعلم ذلك؟! ولكن من كان السبب؟!

فحدجته بنظرة صارمة وهتفت:

- لماذا تقول ذلك لي؟

فقابل نظرتها بجرأة، وأجاب:

- أنت تعلمين لماذا؟

فهتفت:

- إنك رجل لا قلب لك.

ولكن عينيها قالتا غير ذلك، أجاب:

- أنت تصدرين في هذا الكلام عن خطأ، وليس عن (حُب)

فمرت في جسدها رعدة وقالت:

- إنني أحظر عليك أن تنطق بهذه الكلمة السمجة مرة أخرى.

ولكنها شعرت في الحال بأن معنى هذا (الحظر) أنها تُعطي نفسها حقاً عليه، من شأنه أن يُشجعه، فاستطردت وهي تنظر في عينيه بثبات:

- إنني جئت اليوم خصيصاً لأنني أعلم أنك هنا ولأنني أريد أن أقول لك أنه يجب وضع حد لكل هذا، إنني لم أفعل قط ما يُخجلني أمام أي إنسان، ولكنك تُشعرني بأنني اقترفت ذنباً ما.

نظر إليها ورأى عينيها اللامعتين وجبينها الناصع وخديها الموردين بتأثير الانفعال وراعه جمالها وسأل ببساطة وبلهجة جدية:

- ماذا تريدينني أن أصنع؟!

- أريد أن تذهب إلى موسكو وتعتذر لكاترين.

فقال دون أن يحول عينيه عن وجهها:

- إنك لا تريدين ذلك.

فهمست:

- إذا كنت تحبني كما تزعم، فافعل ذلك، ليهدأ بالي وتطمئن نفسي.

فتهلل وجهه وأجاب:

- ألا تعلمين أنك كل شيء لي في هذه الحياة؟.. إنني فقدت طمأنينتي، فلا يمكن أن أكون مصدراً لطمأنينتك.

- نعم.. إنني أشعر بأننا شخص واحد، وبأن حياتك قد اقترنت بحياتي.. وروحك قد امتزجت بروحي، فلا سبيل للفصل بيننا، ولا طمأنينة لأحدنا دون صاحبه.

فقالت بصوت خافت، وعيناها تكذبان لسانها:

- إنني أسألك أمراً واحداً، هو ألا تتحدث إلي بعد الآن بمثل هذا الكلام، وبحسبنا أن نكون أصدقاء.

- إننا لن نكون أصدقاء، وأنت تعلمين ذلك، ولكننا نستطيع أن نكون أسعد أهل الأرض جميعاً، أو أشقاهم جميعاً، ولك وحدك الخيار.

فأرادت أن تقول شيئاً، ولكنه قاطعها قائلا:

- إنني أسألك أمراً واحداً.. أسألك الحق في أن آمل وأن أتألم كما آمل وأتألم الآن، فإن كان هذا مستحيلاً، فمريني بأن أتواري من أمامك فأفعل في الحال، ولن تريني بعد الآن ما دام وجودي يؤلمك ويزعجك.

- إنني لا أريد أن أقصيك..

فقال بصوت يرتجف:

- إذن لا تغيري شيئاً، ودعي كل شيء كما هو الآن، هو ذا زوجك.

دخل كارنين قاعة الاستقبال بتلك اللحظة وهو يمشي مُتباطئاً كعادته، فرمق زوجته وفرونسكي بنظرة سريعة، ثُم قصد إلى حيث كانت ربة الدار فحياها، وبادل المدعوين والمدعوات التحية، وجلس بينهم، وتناول قدح الشاي الذي قدمته إليه الأميرة بتسي وشرع يتحدث بصوته الهادئ المألوف، وبلهجته الساخرة العادية، فقال يُحدث الأميرة بتسي:

- أرى أن بيتك قد أصبح مُلتقى أذكى الرجال وأجمل النساء، فهو يذكرني بقصر (رامبوييه) في فرنسا..

بعد نصف ساعة، نهض كارنين واقترح على زوجته أن ينصرفا، ولكنها أجابته دون أن تنظر إليه بأنها ستتناول طعام العشاء مع بتسي، فأحنى كارنين رأسه مودعاً وانصرف بمفرده، وكان سائق آل كارنين يربت على عنق الجواد الذي راح يضرب الأرض بحوافره قلقاً من البرد وطول الانتظار، حين خرجت أنّا كارنينا من بيت الأميرة بتسي يرافقها الكونت فرونسكي، وكانت الكونت يقول لصاحبته باللغة الفرنسية:

- اتفقنا إذن على أنك لم تعدي بشيء، وعلى أنني لا أطلب شيئاً ولكنك تعلمين أن ما أريده ليس صداقتك، وكل السعادة التي أرجوها تنطوي بالكلمة الوحيدة التي تمقتينها وهي الحب.

فرددت ببطء، وبصوت خافت: "الحب"، ثم أردفت وهي تضع قدمها الصغيرة على سلم المركبة:

- إنني أمقت هذه الكلمة لأن معناها بالنسبة إليَّ أعظم وأعمق مما تتصور، إلى اللقاء.

ومدت إليه يدها، وهي تنظر في عينيه، ثم صعدت إلى المركبة، وأحس فرونسكي بلمستها ونظرتها تحرقان قلبه، فقبل يده التي لمست يدها، وانطلق إلى بيته وهو يشعر بسعادة لا حد لها لأنه اقترب من غرضه في تلك الليلة أكثر مما اقترب طيلة الشهرين الأخيرين.

دخلت أنّا بيتها وهي مُطرقة برأسها ويدها تعبث بقبعتها، وكان وجهها يتألق، وليس بنور السعادة والغبطة، وإنما بوهج مُخيف كوهج الحريق في ليلة مُظلمة، وما أن رأت زوجها حتى رفعت رأسها وابتسمت كمن يفيق من حلم، قالت وهي تُلقي بقبعتها على أحد المقاعد:

- ألم تنم بعد؟! ما أعجب هذا!

وقصدت إلى غرفتها دون أن تتريث، وقالت وهي تهم باجتياز الباب:

- لقد حان موعد النوم يا أليكسيس كارنين.

فقال لها في هدوء:

- يجب أن أتحدث إليك يا أنّا.

فهتفت في دهشة: "إليّ!!"

وعادت للغرفة واستطردت وهي تجلس على أحد المقاعد وتنظر إليه بجرأة:

- ماذا عندك؟! وفيم تُريد الكلام؟! لنتحدث إذن إن كان لا بد من ذلك، ولكني أعتقد أن النوم الآن أفضل من الكلام.

نطقت بما أسعفها به ذهنها ولكنها عجبت لقُدرتها على الكذب والخداع، كم كانت لهجتها بسيطة وطبيعية!! وكم عرفت أن تتظاهر بالتعب والرغبة في النوم، وخُيل إليها أنها ترتدي درعاً من الأكاذيب لا

يُمكن لعين أن تنفذ منه، وأن هناك قوة خفية تُشدد عزيمتها وتأخذ بيدها، وقال كارنين:

- يجب أن أحذرك يا أنّا.

فهتفت:

- تحذرني؟! ومم؟!

ورمقته بنظرة طبيعية مرحة حتى كان من المُستحيل على أي إنسان لا يعرفها كما يعرفها زوجها أن يلمس شيئاً غريباً في صوتها وفي معنى كلماتها، ولكن زوجها الذي يعرفها حق المعرفة ويعرف كيف كانت تُلاحظ إبطاءه في النوم إذا أبطأ عن موعده خمس دقائق، فتسأله عن السبب، وقد رأى هذا الزوج أن صدرها الذي كان مفتوحاً أمامه دائماً قد أغلق دونه الآن وأكثر من ذلك أنه لاحظ من لهجتها أنها لا تشعر من ذلك بشيء من الخجل وأن نظرتها الجريئة تقول له في صراحة: «نعم.. إن صدري مُغلق، وسيظل كذلك في المُستقبل».

وأحس كارنين بما يحس به الرجل حين يعود إلى بيته فيجد الباب مُغلقاً دونه، ولكنه قال لنفسه: "لا بأس، فربما استطعت العثور على المفتاح".

قال لها في بطء، وبألفاظ هادئة واضحة:

- أريد أن أحذرك يا أنّا، فإنني أشفق أن تفسحي بقلة حذرك وعدم تبصرك سبيلاً للألسنة أن تتشدق باسمك، إن خلوتك الليلة بالكونت

فرونسكي، وحديثك الطويل معه قد لفتا إليك الأنظار.

كان يتكلم وهو ينظر بعينيها الضاحكتين، فهاله غموض نظراتهما، وشعر بعقم حديثه ومحاولاته، وقالت أنا وكأنها لم تفهم شيئاً مما قال:

- هذا شأنك دائماً، تعيب صمتي وجمودي تارة، وتأخذ علي مرحي وثرثرتي تارة أخرى. إنني لم أكن صامتة جامدة هذه الليلة، فهل يضايقك ذلك؟!

فقال بلطف:

- أنت اليوم على غير عهدي بك يا أنّا.

فهتفت في دهشة ممزوجة بالسخرية:

- ما الذي طرأ عليَّ؟! ماذا تُريد مني؟!

فمسح كارنين جبينه بيده، وقال في هدوء وبرود:

- إليك ما أريد أن أقوله لك، فأصغي إلي.. أنت تعلمين أنني أعتبر الغيرة عاطفة مُهينة مُذلة، لا يُمكن أن أرضخ لنفوذها وأهتدى بهديها، ولكن هُناك قوانين للملكية لا يستطيع الإنسان أن يخرقها دون أن يستهدف للقصاص.. إنني لم أقم وزناً لخلوتك بالكونت فرونسكي وحديثك معه، ولكني لاحظت من التأثير الذي أحدثه سلوكك أن أحداً من الحاضرين لم يقرك على هذا السلوك.

فهزت أنّا كتفيها وأجابت:

- إنني في الحق لا أفهمك.

وقالت لنفسها: "إنه لم يُقم وزناً، ولكن الحاضرين لاحظوا، وهذا ما يُزعجه"، واستطردت بصوت مسموع:

- يُخيل إليَّ أنك مريض يا أليكسيس كارنين.

نهضت واقفة، وهمت بالخروج، ولكنه سار وراءها خطوة أو خطوتين كأنه يُريد أن يستوقفها، فوقفت، وقالت في تهكم وهي ترفع الدبابيس التي تعقص شعرها:

- هأنذا أصغي إليك، فماذا تُريد أيضاً أن تقول؟! أؤكد لك أنني أصغي بانتباه، لأنني أريد أن أفهم الغرض من كُل هذا.

عجبت مرة أخرى لهدوئها الطبيعي وتوفيقها في اختيار الألفاظ وقال كارنين:

- ليس من حقي أن أتغلغل بأعماق شعورك، وأعتقد بصفة عامة أن ذلك يضر ولا يُفيد، فإننا بالبحث بأعماق نفوسنا نقع غالباً على أشياء كان يُحسن أن تبقى في الخفاء.. إن عواطفك ومشاعرك موكولة لضميرك، ولا شأن لي بها، ولكني أرى من واجبي أمامك وأمام نفسي وأمام الله أن ألفتك لواجبك. إن الله قد جمع بيننا برباط الزواج، وهذا الرباط لا يُمكن فصمه إلا بجريمة ولكل جريمة قصاص،

فهتفت أنّا وهي لا تزال تعبث بشعرها:

- أؤكد لك أنني لا أفهم شيئاً، ومن سوء الحظ أن النوم يثقل جفني

- لا تتكلمي هكذا بحق السماء يا أنّا، ربما كُنت على خطأ، ولكن ثقي من أنني أقول هذا الكلام من أجل نفسي ومن أجلك على السواء.. إنني زوجك، وأنا أحبك.

فسقط رأسها فوق صدرها، وانطفأ بريق التهكم الذي كان يلمع بعينيها، وقالت تُحدث نفسها: "واعجباه.. إنه يتكلم عن الحب.. فهل يعرف معناه؟! وهل في استطاعته أن يحب؟! لولا أنه سمع الناس يتكلمون عن الحب، لما وجد هذه الكلمة في قاموسه"، ثُم قالت:

- ما زلت لا أفهمك يا أليكسيس كارنين، فأوضح

- دعيني أتم حديثي، نعم إنني أحبك، ولكني لا أريد الكلام عن نفسي، فالشخصين الأساسيين في الموضوع هما أنت وولدنا، وقد يبدو لك هذا الكلام لغواً ولا محل له، وقد أكون مُخطئاً فيما ذهبت إليه، فإن كان ذلك فإني أسألك المعذرة، وإن كان لأوهامي ولو ظل من الحقيقة فإنني أرجوك أن تُفكري ملياً وتُصارحيني بكل خاطرة تجول ببالك.

- ليس عندي ما أقوله لك يا أليكسيس كارنين، ثُم إن موعد النوم قد أزف.

فتنهد كارنين، ولم ينطق بكلمة بعد ذلك، وقصد لقاعة النوم، وخلعت أنّا ثيابها ولحقت به، وكانت مُشفقة مما سيقول، وتود في ذات

الوقت أن تعرف ما يُريد أن يقول ولكنه لزم الصمت، فظلت وقتاً طويلاً لا تُبدي حراكاً ثُم نسيته وبدأت تُفكر في شخص آخر وخُيل إليها أنها تراه وتسمع صوته، فخفق قلبها بشدة وامتلأت نفسها بسرور أثيم، وفجأة سمعت غطيطاً هادئاً كالصفير، ثم انطقع هذا الصوت لحظة كأن كارنين قد تنبه لنفسه، وعاد الغطيط بعد ذلك يتردد في هدوء وانتظام، وبقيت أنّا وقتاً طويلاً مفتوحة العينين حتى خُيل إليها أنها ترى وميض عينيها في الظلام.

الفصل السابع

راحت أنا تغشى الحفلات والسهرات بصفة عامة وتختلف لبيت الأميرة بتسي بصفة خاصة، وتُقابل فرونسكي في كل مكان تذهب إليه، ولاحظ كارنين كل هذا.. ولم يجد في مقدوره أن يفعل شيئاً فقد ظلت زوجته أشبه بحصن غامض منيع يتعذر عليه اقتحامه وإماطة اللثام عن أسراره، وكان إذا حاول التفاهم معها لجأت إلى اللف والدوران، وتظاهرت بالدهشة والسذاجة، واصطنعت الحيرة المقرونة بالمرح والتهكم.. وهكذا بقيت الصلة بينهما في الظاهر كما كانت قبلاً، ولكن علاقاتهما الخاصة والصلة المُقدسة التي تؤلف بين قلبيهما وحسهما كزوجين لم تلبث أن أفسحت السبيل لفتور استحال مع الوقت لنفور مُتبادل، ووجد الزوج نفسه وهو القوي في عمله البارز في بيئته الرسمية ضعيفاً في بيته ولا حول له ولا قوة أمام زوجته، فطأطأ رأسه كالثور مُنتظراً النير الذي يراه مرفوعاً فوق عُنقه، وكان كُلما فكر في الأمر شعر بأنه يجب عليه أن يُحاول مرة أخرى، لعله يستطيع باللطف والإقناع والحُسنى أن يُنقذ زوجته ويحملها على التفكير بمصيرها..

وكان في كل يوم يتأهب للتحدث إليها، ولكنه لا يكاد يشرع في الكلام حتى تُصيبه عدوى النفاق الذي تعيش فيه زوجته فيقول كلاماً غير الذي كان يُريد أن يقوله وبلهجة غير التي كان يُريد التحدث بها.

وأخيراً، اقتطف فرونسكي الثمرة التي كان يشتهيها ويسعى إليها سعياً حثيثاً مُنذ عام، وتحقق الحلم الذي كانت تراه أنا مُستحيلاً ومُخيفاً، ولكنه سعيد وشهي، ووقف الضابط الشاب أمام عشيقته وهو شاحب الوجه مُرتجف الأوصال وراح يضرع إليها أن تطمئن وتُهدئ من روعها، وهتف بصوت مرتجف:

- أنّا.. أنّا.. بحق السماء.. أما كففت عن البكاء!!!

ولكنه كان كُلما رفع صوته، ازداد رأسها البديع هبوطاً فوق صدرها، وتضاعف شعورها بالمذلة والعار والهوان، وهي التي كانت قبل يوم ترفع رأسها كبرياءً وخُيلاءً، ولا تُنكس عينيها أمام أحد. بكت حتى أوشك قلبها أن يتمزق وانزلقت عن المقعد الكبير حتى سقطت تحت قدميه وضمت يديه إلى صدرها، وهي تغمغم متوسلة: "عفواً.. ومغفرة".

شعرت بأنها آثمة مُذنبة، وأن إثمها وذنبها يوجبان عليها أن تُعفر جبينها وتطلب المغفرة، ولكنها ضحت بكل شيء في سبيله ولم يبق لها من تضرع إليه في طلب العفو والمغفرة سواه، أما هو فإنه شعر بما يجب أن يشعر به القاتل أمام الجثة التي جردها من الحياة، وهذه الجُثة التي جردها من الحياة هي جثة الحب الذي وثق بين روحيهما مُنذ تقابلا لأول مرة، وانتقل إليه شعورها بالعار من الوحل الذي تمرغت فيه، فهاله الثمن الهائل الذي اشتريا به هذا العار، ولكن رغم ذُعر القاتل من جثة ضحيته، فإن هذه الجُثة يجب أن تُمزق إرباً وتختفي، وهو يجب أن يُفيد أعظم الفائدة مما حصل عليه بالجريمة، وكُما ينقض القاتل على الجُثة ليُمزقها

كذلك انقض فرونسكي على ضحيته، وراح يُقبل فمها ووجهها وكتفيها وكُل ما تصل إليه شفتاه من جسدها.

وأمسكت أنّا بيده ولم تتحرك.. نعم.. هذه القبلات هي البضاعة التي اشترياها بعارهما.. نعم.. وهذه اليد هي يد شريكها في الجريمة، ورفعت يده إلى شفتيها، وقبلتها، فركع بجانبها وحاول أن يرى وجهها، ولكنها أخفته ولم تنطق بكلمة، وملكت نفسها بعد قليل فاعتدلت في مكانها ودفعته عنها، وكان وجهها فاتناً كعادته، ولكن عليه مسحة من المذلة تدعو إلى الإشفاق، وقالت:

- انتهى كُل شيء، ولم يبق لي سواك، فتذكر هذا..

فهتف:

- من ذا الذي لا يتذكر قطعة من حياته، بل حياته كلها.. إن لحظة في هذا النعيم.

قاطعته بذعر واشمئزاز:

- أي نعيم؟؟ بحق السماء... لا تنطق بكلمة أخرى.

نهضت بسرعة، وقصدت إلى الباب وهي تردد:

- لا تنطق بكلمة أخرى.

ثم رمقته بنظرة باردة يتجلى فيها اليأس، وانصرفت، وكانت تشعر

في تلك اللحظة بعجزها عن وصف ما تحس به من العار والسعادة والذعر، فلم تشأ تشويه هذا الإحساس بعبارات لا تُعبر عنه حق التعبير، ولكنها وجدت في اليوم التالي والذي يليه وما بعدهما أنها أشد عجزاً عن وصف هذا الإحساس المُعقد، وأنها لا تستطيع حتى تكييف خواطرها والسيطرة على أفكارها.

كانت تقول دائماً لنفسها: "كلا.. إنني لا أستطيع التفكير الآن، وسأفكر فيما بعد حين أكون أكثر هدوءًا" لكنها لم تنعم قط بهذا الهدوء، وكُلما فكرت فيما صنعت وفيما صارت إليه، وفيما سيكون من أمرها.. استولى عليها الجزع، وفرت من هذه الأفكار فرار الخائف المذعور، وقالت لنفسها: "كلا، ليس الآن، بل حينما أكون أكثر هدوءًا".

لكنها وهي نائمة ولا سلطان لها على حواسها وأفكارها كانت أحلامها تُصور لها موقفها عارياً بكل ما فيه من خزي وعار، وكانت في كل ليلة تقريباً ترى حلماً واحداً هو أنها بين زوجين يقتسمان جسدها وينعمان بها، فأليكسيس كارنين يبكي على صدرها ويهمس في أذنها: «ما أسعدنا الآن»، وفرونسكي يُقبلها ويقول لها مثل ذلك، وهي تبتسم، وتقول لهما أنها لم تكن تعتقد أن الأمر سيكون بمثل هذه البساطة، وأن ثلاثتهم قد أصبحوا الآن أسعد أهل الأرض، لكن هذا الحلم كان يرزح فوقها كالكابوس، وكانت تستيقظ منه مُشمئزة مذعورة.

في أحد الأيام كان ليفين يتأهب للخروج من بيته الريفي لمزرعته، حين فوجئ بزيارة أوبلونسكي، ودُهش الفتى لهذه الزيارة غير المُنتظرة، ولكنه رحب بضيفه وبسط له ساعديه لأنه كان يُحبه حقاً، وقال أوبلونسكي وعلى شفتيه تلك الابتسامة العريضة التي تُحبب إليه كل من يراه:

- لا شك أنك لم تكن تنتظرني، ولكني جئت لعدة أغراض، أولاً رغبتي في أن أراك وثانياً شغفي بالصيد معك، وثالثاً لأنني أريد بيع حقولي في هذه الناحية.

فهتف ليفين:

- وأنا سعيد جداً بقدومك.

حدث أثناء تناول الغداء أنه رأى من اللياقة والمجاملة أن يسأل صديقه عن شؤونه الخاصة، لا سيما وأنه كان يعلم بالخلاف الذي شجر بينه وبين زوجته، وكان سبباً في قدوم أنّا كارنينا من بطرسبرج، وقال له وهو يُحاوره:

- إنني تحدثت إليك بالكثير عن نفسي، وعن مزرعتي، هلا حدثتني عن نفسك؟!

لمع بعيني أوبلونسكي بريق المرح وقال:

- كيف يطيب لك أن تسمع حديثي عن نفسي، وأنت ممن يعتقدون

أن من الجريمة أن يسرق الشبعان رغيفاً يشتهيه.

- إنني لا أؤمن بالحياة بغير حُب، وهكذا خُلقت، وهكذا سأعيش دائماً.

- هل أفهم من ذلك أن هناك امرأة أخرى؟!

- نعم.. إنها من النوع الذي لا يراه الإنسان إلا في الأحلام، إنها النوع الملائكي الفاتن المُخيف، إنك مهما توفرت على دراسة النساء، فإنك تجد دائماً امرأة من طراز جديد.

- في هذه الحالة يحسن بك ألا تتوفر على دراسة النساء.

- لقد قال أحد العلماء أن اللذة ليست في كشف الحقائق، وإنما في البحث عنها.

صمت ليفين ثُم جازف بالسؤال الذي يتحير على شفتيه منذ وقت طويل:

- وبهذه المُناسبة.. أين فرونسكي الآن؟

فتثاءب أوبلونسكي، وأجاب ببطء:

- فرونسكي؟ إنه الآن في بطرسبرج، وقد رحل من موسكو بعد رحيلك تواً، ولم يعد إليها مُنذ ذلك الوقت، ولكن صدقني يا ليفين، إنك ارتكبت خطأ حين ذعرت من فكرة وجود مُنافس لك، لقد كانت

كفتك هي الأرجح، فلماذا لم تتشجع وتطلب يدها؟ كما نصحت لك بأن تفعل؟!

تثاءب مرة أخرى، ونظر إليه ليفين بإنعام، وسأل نفسه: "تُرى هل يعلم أنني طلبت يدها، وقوبلت بالرفض؟! نعم، إن وجهه لا يدل على شيء، هذا الوجه الدبلوماسي الماكر". واستطرد أوبلونسكي:

- إذا كُنت قد توهمت أنها تؤثره عليك، فهذا الوهم لا يقوم إلا على الظواهر، ولعلك تعلم أن نبله ومكانته في الهيئة الاجتماعية ومستقبله الباهر، كل ذلك كان من شأنه أن يغري الأم بترجيحه عليك إما الأب.. وإما الابنة..

فقاطعه ليفين بحدة:

- صبراً.. صبراً.. إنك تصفه بأنه نبيل، ولكني أحب أن أسألك: ما هو هذا النبل الذي تصف به فرونسكي أو سواه؟... وترى أو يرى غيرك أنه من الصفات التي ترجحه على شخص مثلي؟!.. إنك تعتبر فرونسكي نبيلاً، ولكني لا أعتبره كذلك، ولا أستطيع أن أصف بالنبل رجلاً خرج أبوه من الأوحال، ونال لقبه بالكيد والدس والرياء والنفاق، واتصلت أمه بهذا وذاك، وصار اسمها مضغة في الأفواه. كلا يا صديقي.. إنني وأمثالي لا نحمل لقباً، ولكننا نحن النبلاء، لأننا نستطيع أن نعدد أسلافنا لثلاثة أو أربعة أجيال، وكلهم ممن لم يطأطئوا الرؤوس لأحد، ولم يتفيئوا ظل أحد. ولم يتخذوا نساءهم

سلماً للحصول على المراكز البارزة وألقاب النبل والشرف.

وعلى الرغم من انغماس فرونسكي في غرامه الجديد، فإنه لم يُغير مجرى حياته، وظلت أعماله العسكرية، وعلاقته بفرقته تحتل أعظم جانب من اهتمامه. لأنه كان يُحب زملاءه بالجيش، ولأن زملاءه كانوا يحبونه ويحترمونه ويفخرون به، وبديهي أنه لم يتحدث إلى كائن من كان بعلاقته الغرامية، وإنه كان حريصاً أشد الحرص – حتى في أوقات العبث والشراب – على ألا ينزلق لسانه بكلمة تفضح هذه العلاقة، وعلى الرغم من ذلك فإن صلته بأنّا كارنينا، كانت حديث الناس في أنحاء المدينة.

وفضلاً عن أنّا كارنينا والجيش، كان فرونسكي مغرماً كذلك بالجياد وقد علم في الوقت المناسب أن قيادة الجيش تنظم سباقاً مهماً للفرسان وأن القيصر سيشهد هذا السباق، فابتاع جواداً إنجليزياً كريماً، وسجل اسمه بين المتسابقين، ولم يصرفه انغماسه في حب أنّا عن تدريب جواده والاستعداد للسباق. وفي اليوم المحدد للسباق ذهب فرونسكي إلى الثكنة مبكراً، وهناك تناول طعامه، ثم امتطى جواده، وقصد إلى البيت الريفي الذي تقيم به أنّا كارنينا في ضواحي بطرسبرج.

كان على موعد معها بعد ثلاثة أيام، ولكنه علم أن كارنين قد عاد فجأة من الخارج، حيث كان يستشفي في إحدى مدن المياه المعدنية وأن أنّا قد لا تتمكن لذلك من مقابلته في الموعد المتفق عليه، فأراد أن ينتهز تلك الفرصة لمقابلتها، وهو يعلم أن أعمال كارنين الرسمية تعوقه عادة في بطرسبرج إلى ما بعد الساعة الثالثة. ترجل أمام البيت، وسأل

البستاني: "هل عاد سيدك؟!"، فأجاب: "كلا يا سيدي، ولكن سيدتي في المنزل".

فأشرق وجه فرونسكي، وصعد درجات السلم مسرعاً، وهو ممسك بسيفه حتى لا يحدث صوتاً يُنبه أنّا إليه.. وكان يعلم أنها لا تتوقع قدومه، فأراد أن يدخر لها مُفاجأة تسرها، وتقدم وهو مطمئن لأنه سيجدها بمفردها وسيخلو بها، ولكنه ما كاد يصل لنهاية السلم حتى تذكر فجأة ما اعتاد دائماً أن ينساه، وتذكر ابنها، ونظراته الذكية، وعينيه المُتسائلتين، وكان هذا الابن جرحاً شديد الإيلام للعلاقة التي بينهما بل لعله كان العائق الوحيد دون استتباب العلاقة وطمأنتها.

على أن (سيرج) لم يكن بالبيت في تلك اللحظة، وكانت أنّا وحدها في إحدى الشرفات تنتظر عودة ولدها الذي خرج للنزهة ففاجأه المطر فأرسلت الخدم لمرافقته للبيت، ولما طال انتظارها وقفت بين أواني الزهر التي تُزين الشرفة، فلم تسمع وقع أقدام فرونسكي، ولم تشعر باقترابه، وكانت ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً، فتريث فرونسكي في وسط الغرفة، وراح يملأ عينيه بجمال جسدها ورأسها وعُنقها وساعديها، وكأنه يراها لأول مرة، ولما تقدم خطوة أخرى أحست به وتحولت إليه.. وقال لها بالفرنسية: "ماذا بك.. هل أنت مريضة؟!"

وود لو يهجم عليها ليحتويها بين ساعديه، ولكنه أشفق أن يراه بعض الخدم، فنظر حوله في قلق، واحمر وجهه، وأجابته وهي تشد على

يده بثبات:

- كلا.. إنني في خير حال، ولكني لم أكن... أنتظرك.

- يا إلهي.. إن يدك باردة كالثلج.

- إنك أخفتني.. لقد كنت وحدي أنتظر عودة سيرج.

حاولت أن تصطنع الهدوء، ولكن شفتيها كانتا ترتجفان، قال:

- معذرة على قدومي، ولكن قد خيل إلي أن الفرصة سانحة لمقابلتك.

- ولم الاعتذار؟ إنني سعيدة بقدومك.

فقال دون أن يفلت يدها من يده:

- ولكنك مريضة أو حزينة، فيم كُنتِ تُفكرين؟!

أجابت وهي تبتسم: "إنني أفكر دائماً في ذات الشيء".

وكانت صادقة، ولو أنها سُئلت في أية لحظة عن موضوع تفكيرها لأجابت صادقة: «أفكر في سعادتي وشقائي»، وقد كانت ساعة دخوله تُفكر في صلتها به وتسأل نفسها: "لماذا تقض هذه الصلة مضجعها، بينما سواها ـ كالأميرة بتسي ـ تنعم بعشيقها ولا تكابد مثلها شيئاً من الألم ووخز الضمير؟!" وألقت عليه طائفة من الأسئلة عن سباق الفرسان، فأجابها، ثُم لاحظ انفعالها وكآبتها فقال:

- ولكنك لم تقولي لي فيم كنت تفكرين ساعة قدومي؟

فلم تُجبه في الحال، وتألقت عيناها تحت أهدابها الطويلة، وراحت تعبث بزهرة في أحد الأواني، ولاحظ فرونسكي أن يدها ترتجف، فرمقها بتلك النظرة الرقيقة الذليلة التي يعرف تأثيرها عليها، وقال:

- أنا واثق من أن في الأمر شيئاً، فكيف أستطيع أن أنعم بالهدوء والطمأنينة وأنت تتألمين ألماً ليس له منه نصيب؟ خبريني بحق السماء: ماذا بك؟

فغمغمت: "هل أتكلم؟؟" هتف ضارعاً: "نعم. نعم"، فهمست ببطء: "إنني حامل". اهتزت الزهرة في يدها بعنف، ولكنها لم تحول عينيها عن وجهه لترى وقع النبأ في نفسه، وفر لونه، وحاول أن يقول شيئاً، ولم يستطع، وسقط رأسه فوق صدره، فقالت لنفسها: "لقد فهم الموقف، وأدرك كل خطورته"..

ضغطت على يده شاكرة، ولكنها كانت على خطأ، فإنه لم يُدرك خطورة الموقف من وجهة نظرها كامرأة، وكل ما هنالك أنه أحس بأن الأزمة التي كان يتطلع إليها قد حدثت، وأن إخفاء الحقيقة عن الزوج أصبحت مُستحيلة وأنه صار من الضروري وضع نهاية سريعة لهذا الموقف غير الطبيعي بأي وجه من الوجوه، وقبل يدها في خشوع، وأخذ يسير بالشرفة جيئة وذهاباً، ثُم وقف أمامها، وقال في حزم:

- نعم.. إن أحداً منا لم ينظر لعلاقتنا كوسيلة للهو والتسلية، وقد صار

من الضروري الآن أن نضع حداً لهذا النفاق الذي نعيش فيه.

فهمست: "ولكن كيف نضع له حداً يا أليكسيس؟!"

- لا سبيل إلا أن تهجري زوجك وتقرني حياتك بحياتي.

فأجابت بصوت لا يكاد يسمع:

- لقد اقترنت حياتنا منذ أول يوم.

- نعم.. ولكن يجب أن يكون ذلك علانية.

- وكيف؟! كيف؟؟ ألست امرأة زوجي؟؟

- يوجد حل لكل عقدة ومخرج من كل مأزق وإني أوثر أسوأ الحلول على حياتي. أتحسبين أنني لا أرى كيف تتألمين من كُل شيء؟! من المُجتمع ومن أجل ولدك، وزوجك؟!

فأجابت ساخرة:

- كلا. إنني لا أتألم من أجل زوجي، إنني لا أشعر بوجوده.

- ولكنك تتألمين من أجله، أنا واثق من ذلك.

- إنه لا يعلم بشيء.

واحمر وجهها، واغرورقت عيناها بدموع الخجل، واستطردت:

- بحق السماء.. دعنا لا نتحدث عنه.

الفصل الثامن

كان فرونسكي قد حاول مراراً قبل ذلك أن يستدرجها لمُعالجة موقفها ومصيرها، فكانت تقابل محاولاته بالاستهتار وقلة الاكتراث وتهرب من الحقائق، كما لو كان هناك شيء لا تستطيع بل ولا تريد أن تواجه به نفسها، ولكنه قرر في هذه المرة أن يقطع بالأمر برأي، فقال بلهجة هادئة حازمة:

- لا يهمنا أن يعلم أو لا يعلم، المهم أنك لا تستطيعين البقاء في هذا الموقف، ولا سيما الآن.

- وماذا تريدني أن أفعل؟!

- الرأي عندي أن تصارحيه بكل شيء، ثم تهجريه.

- هب أنني فعلت ذلك، فهل تعلم ماذا تكون النتيجة؟!

لمعت عيناها ببريق خبيث واستطردت:

- ستكون النتيجة أن يهتف زوجي قائلاً: "آه، أنت تحبين رجلاً آخر، وله بك علاقة أثيمة!! لقد سبق لي أن حذرتك وأنذرتك بالخطر من الناحية الدينية والمدنية والعائلية، ولكنك ضربت بتحذيري عرض الأفق، والآن ليس بوسعي أن أسمح لك أو لعشيقك بتلويث اسمي واسم"..

أرادت أن تقول: «واسم ولدي»، ولكنها أمسكت، لأنها كانت تحل ولدها من ذات نفسها محلاً عزيزاً مقدساً، ولا تسمح حتى لنفسها بمجرد التفكير في الإساءة إليه، وتلويث اسمه. استطردت:

- نعم، سيقول لي ذلك ويُضيف عليه بلهجته الرسمية الحازمة أنه لن يفسح لي السبيل ولن يسمح لي بمغادرة بيتي، وسيتخذ الإجراءات الكفيلة بصون اسمه وشرفه، ومنع الفضيحة المنتظرة. سيقول لي ذلك وسيعمل على إنفاذه بما طُبع عليه من الدقة والبرود والحزم، وهكذا ستكون النتيجة يا صديقي، إنه ليس رجلاً، ولكنه آلة، وآلة شديدة القسوة في حالة الغضب

فقال فرونسكي بلهجة الاقتناع:

- مهما يكن من شيء فيجب مصارحته بالحقيقة، وعلينا بعد ذلك أن نتصرف وفقاً لموقفه منا.

- لماذا لا تهجرينه يا أنّا؟! إن هذه الحالة لا تطاق ولا يمكن أن تستمر.

- آه... أتريدني أن أهجره، لأقيم معك كعشيقتك؟.

فغمغم بلهجة العتب: "أنّا.."

- نعم.. أصبح عشيقتك، وأهدم المستقبل، وأهدم كل شيء.

ظلت علاقة كارنين بزوجته في الظاهر على ما كانت عليه، وكل ما لوحظ عليه أنه أصبح أشد انغماساً في عمله مما كان قبلاً، ولما أقبل الربيع قصد إلى إحدى مدن المياه المعدنية للاستشفاء كعادته ورجع في شهر يوليه كعادته كذلك، وأقبل على عمله بمزيد من الهمة والنشاط، وجعل مركزه (بطرسبرج) رغم قيظ الصيف، بينما انتقلت زوجته إلى بيتهما الريفي في (بيترهوف)، ولم يشعر كارنين زوجته بشكوكه وغيرته منذ ذلك الحديث الذي دار بينهما عقب السهرة التي قضياها في بيت الأميرة بتسي، ولكن صلته بها امتزجت بشيء كثير من النفور والفتور، ولم يحاول أن يفكر بعدئذ في أمرها إشفاقاً من أن يهديه التفكير إلى حقيقة موقفه فأودع مشاعره العائلية وعواطفه نحو زوجته وولده ركناً من قلبه أغلقه وأهمله.

واعتقد الرجل، وراح يقول إن أعماله الرسمية لم تزدحم عليه كما ازدحمت في هذا العام، ولم يشعر بأنه الذي كان يبحث عن العمل ويخلقه لنفسه، وإن ذلك كان من الوسائل التي ساعدته ـ دون أن يشعر ـ على إبقاء ذلك الركن من قلبه مغلقاً ومهملاً. وقد اعتادت زوجته أن تقضي الصيف في (بيترهوف) وكذلك كانت تفعل الكونتس ليديا إيفانوفنا، وهي من المعجبات بكارنين وامرأته أشد الإعجاب. ولكن حدث في ذلك العام أن رفضت الكونتس الإقامة في هذه الضاحية، ولم تذهب لزيارة أنّا كما اعتادت أن تفعل، وأكثر من ذلك أنها لمحت لكارنين إلى الألفة غير المرغوب فيها التي توثقت بين أنّا وبتسي وفرونسكي، ولكن كارنين أسكتها بخشونة، وقال لها إن سلوك زوجته

فوق الشبهات، ومنذ ذلك الوقت بدأ يتجنبها..

لم يشأ الرجل أن يلاحظ أن الناس بدءوا ينظرون إلى زوجته متسائلين، فلم يلاحظ، ولم يشأ أن يفهم، فلم يفهم ولم يسمح لنفسه بالتفكير في جميع المظاهر المريبة التي تحيط بامرأته، فلم يفكر، ولكنه على الرغم من كل ذلك كان يشعر في قرارة نفسه بأنه زوج مهان، وأن عرضه يداس بالأقدام، وذلك وحده ما كان يحزنه.

كان فيما مضى ينعم بالحياة الزوجية الهنيئة، فإذا قيل له إن زوجة فلان تحونه، هز رأسه أسفاً وقال: "إن الذنب ذنبه. لماذا لم يتدارك الأمر منذ البداية. ولماذا لم يعمل على إقناع زوجته وردعها عن غيها" والآن وقد نزلت به النكبة فإنه لا يشعر بعجزه عن تدارك الأمر فقط، ولكنه كذلك يرفض الاعتراف به، ويرفض الاعتراف به لأنه مخيف وغير طبيعي.

الفصل التاسع

أرسلت أنا بصرها من النافذة فرأت المركبة ورأت قبعة كارنين السوداء وأذنيه المشهورتين، وبُهتت وغمغمت:

- يا لسوء الحظ!! تُرى هل يقضي ليلته هنا؟.

شعرت بالنفور والاشمئزاز، ولكن كان لا بد لها أن تستقبله، فأسرعت إليه وقد نشطت فيها روح الكذب والرياء، وقالت وهي تبسط له يدها وتبتسم:

- ما أجمل هذا.. إننا سنذهب لشهود السباق، وسنقضي الليل هنا بغير شك، ولكن من سوء الحظ أنني وعدت بتسي بمرافقتها إلى حلبة السباق.

وقطب كارنين حاجبيه عندما سمع اسم بتسي وقال:

- إنني لن أحاول التفريق بين اثنين لا يفترقان، وسأذهب لحلبة السباق سيراً على قدمي فقد نصح لي الأطباء بالسير.

- لا يزال ثمة متسع من الوقت قبل بدء السباق، هل تريد قدحاً من الشاي؟

ودقت الجرس وقالت لوصيفتها:

- أحضري قدحاً من الشاي، وأنبئي سيرج بأن أباه هنا.

ثم تحولت إلى زوجها وصعدته بعينيها وقالت:

- أرى على وجهك دلائل الإعياء.

- صدقت، فإنني أرزح تحت عبء من المشاكل والمسؤوليات

وراحت تستفسر منه عن صحته وعمله، وتلحف عليه في أن يقضي أوقات الراحة معها في (بيترهوف)، وكانت تتكلم ببساطة وبلهجة طبيعية، وعيناها تتألقان في مرح، ولكن كارنين لم يقتنع بلهجتها، ولم يفهم كلماتها بمعناها السطحي، وأدرك أنها تُريد مثله أن تحتفظ بالظواهر، وكان حديثهما قصيراً ولا أهمية له، ولكن أنّا لم تستطع فيما بعد أن تذكره دون أن تشعر بالخجل من كذبها وريائها، وأقبل (سيرج) ونظر في خجل وقلق إلى أمه أولاً، ثم إلى أبيه، ولم يلاحظ كارنين هذه النظرة لأنه لم يشأ أن يلاحظ شيئاً، وقال وهو يربت على كتف ولده:

- إنك كبرت يا غلام. كيف حالك؟!

رأت أنّا زوجها وهو يقترب، وكان ميدان السباق يضم الرجلين (زوجها وعشيقها) اللذين يتألف منهما محور حياتها، وقد أبصرت بالأول، ولكنها لم تكن بحاجة إلى عينيها لتشعر بوجود الثاني.. ورأت زوجها وراقبته على الرغم منها وهو يسير وسط الزحام ويوزع تحياته وانحناءاته على معارفه ذات اليمين وذات اليسار ويُقابل دلائل الاحترام

والتبجيل بابتسامة الرجل الذي يشعر بخطورة مركزه وينعم بهذا الشعور، وكانت أنّا تعلم بجشعه إلى التبجيل والتوقير وتمقته لذلك، وقالت لنفسها: "إنه لا يُفكر إلا في مطامعه، ولا يحلم إلا بدعم مركزه وتثبيت قدميه في منصبه"

لاحظت من نظراته للجناح الخاص بالسيدات أنه يبحث عنها ووقع بصره عليها، ولكنه لم يتبينها وسط ذلك البحر الزاخر من الفساتين الحريرية المنوعة الألوان ولم تُحاول هي من ناحيتها أن تلفته لمكانها وأبصرته الأميرة بتسي فهتفت:

- ها هي زوجتك يا أليكسيس كارنين.. إنني واثقة من أنك لا تراها.

فابتسم ابتسامته الفاترة المألوفة، وقال:

- إنني أرى من مظاهر الأناقة والفخامة ما يُبهر النظر عن رؤية شيء.

وابتسم لزوجته، كما يبتسم الزوج لامرأته المحبوبة، ووقف على مقربة منها وحدث في هذه اللحظة أن أقبل أحد كبار القواد، ولم يكن السباق قد بدأ بعد، فراح الوزير والقائد الكبير يتجاذبان أطراف الحديث بين مُحبذ للسباق، ومُشفق على حياة الفرسان من أخطار العوائق والحواجز التي وضعت في طريقهم أثناء السباق، وأصغت أنّا لزوجها ولم تفتها كلمة واحدة من حديثه، وخُيل إليها أن صوته الثاقب يؤلم أذنيها، وعجبت: كيف لا يشعر الناس بكذبه ونفاقه، وكيف لا يُدركون أنه يصدر في كل كلمة ينطق بها عن رغبة في إسماع صوته، وليس عن إيمان

واقتناع بصدق ما يقول، وقالت لنفسها: "إن الكذب غذاؤه، وحب الظهور طعامه.. إنه يعرف كل شيء، ويرى كل شيء، ولا يصمت إلا لأنه كاذب منافق، يحرص على الظواهر أكثر مما يحرص على عرضه، لو حاول أن يقتلني أو لو قتل فرونسكي. إذن لفهمته واحترمته، ولكنه لا يفعل شيئاً من ذلك لأنه يعيش في جو من الكذب، ولأنه لا يحرص إلا على الظواهر".

قالت ذلك لنفسها دون أن تعرف ماذا تطلب حقاً من زوجها، وماذا تريده على أن يكون، ولم تفهم أن ثرثرة كارنين التي تزعجها وتثير نفورها، ليست إلا مظهراً من مظاهر قلقه الداخلي وعدم استقراره، وإن مثله كمثل طفل سقط على ركبته، فكما أن الطفل يحرك ساقه بسرعة لكي يضعف تأثير الألم، كذلك كان كارنين بحاجة إلى النشاط الذهني، ليضعف من تأثير الألم الذي يشعر به كلما رأى زوجته وعشيقها.

وبدأ السباق أخيراً، فكف القوم عن الحديث وحبسوا أنفاسهم ونهضوا واقفين وأرسلوا بصرهم نحو السبعة عشر ضابطاً الذين اشتركوا في المباراة.

ورفعت أنّا منظارها إلى عينيها، وتوجهت به إلى ناحية واحدة، وإلى شخص بذاته، ولما كان كارنين قليل الاكتراث بالسباق ونتيجته حول بصره عن الحلبة، وأخذ يُرقب النظارة بعينيه المُتعبتين، ووقع نظره ضمناً على زوجته، وكانت شاحبة الوجه مُحتبسة الأنفاس، ولا شك أنها لم تكن

ترى في تلك اللحظة شيئاً أو أحداً فيما عدا الشخص الذي يعنيها.. وأشاح كارنين عنها بوجهه، ونظر لسائر النظارة، وقال لنفسه: "إن جميع النظارة يشعرون مثلها بالقلق والانفعال، ولا عجب في ذلك"

نظر لزوجته مرة أخرى على الرغم منه، وحاول ألا يقرأ ما كان مسطوراً على وجهها، ولكنه لم يتمالك من أن يقرأ، وهاله أن يعرف ما لم يشأ أن يعرفه، وسقط أحد الفرسان وراء أحد الحواجز فتماوج النظارة كالبحر الزاخر، وارتفعت من أفواه النساء صيحات الذعر والفزع، وفهم كارنين من تألق عيني أنّا أن الشخص الذي يعنيها ليس هو الذي سقط، واستمر السباق، وسقط فارس آخر، فهتفت إحدى السيدات:

- هذا مُخيف.. هل ثمة ضرورة لهذه الفظاعة؟

رأى كارنين أن أنّا لا تتحرك، ولا تتنفس وكأنها لا تشعر بشيء مما حولها بل وكأنها لم تلاحظ سقطة الفارس الثاني، وأشرف المتسابقون على الحاجز الكبير، ورغم انصراف أنّا إلى مراقبة فرونسكي، فإنها شعرت شعوراً غامضاً بنظرات كارنين، فتحولت إليه لحظة، ورمقته في برود كأنها تقول له: "إنني لا أعبأ بك..."

ولكنها ما كادت تنظر إلى حلبة السباق مرة أخرى، حتى سقط فرونسكي، وسقط جواده فوقه، فأفلتت من فم أنّا كارنينا صيحة ذعر ارتفعت على سائر الصياح، وثقبت جميع الآذان، ثم سقط المنظار من يدها فالتقطته ونهضت واقفة، ثم تهالكت على مقعدها، وأصبحت منذ

تلك اللحظة كالطير الحبيس، تقف تارة وتجلس أخرى، وتتلفت حولها وتريد أن تقول شيئاً، ولا تدري ماذا يجب أن تقول..

وحينئذ اقترب منها كارنين، وقال بالفرنسية: "هلمي بنا نذهب..."

ولكنها لم تسمعه، لأنها كانت تصغي بكل حواسها إلى ضابط أقبل من الحلبة في تلك اللحظة، كان الضابط يقول:

- يقولون إن ساقه انكسرت، وإن جواده قتل، وهذا مخيف

فرفعت أنّا المنظار إلى عينيها، وتوجهت به نحو المكان الذي سقط فيه فرونسكي، ولكنها لم تتبين شيئاً فقد ازدحم الكثيرون حوله حتى حجبوه عن الأبصار.

ونهضت أنّا مرة أخرى كأنها تهم بالانصراف، فقال لها كارنين وهو يلمس كتفها:

- إنني أقدم لك ساعدي، فهلمي ننصرف إذا شئت.

ولكنها تراجعت بفتور وأجابت:

- كلا.. دعني وشأني إنني سأبقى.

في هذه اللحظة، أقبل أحد الضباط، ونقل إلى القيصر نبأ، وشاع على أثر ذلك أن فرونسكي لم يُصب بسوء، وأن جواده قُتل، وعندئذ

فقط استقرت أنّا على مقعدها وأخفت وجهها بين كفيها، ولاحظ كارنين أن صدرها يعلو ويهبط بعنف، وأنها تبكي ولا تستطيع إخفاء دموعها وتنهداتها، فتقدم منها ووقف أمامها، ليحجبها عن عيون الناظرين، حتى تملك نفسها وتُسيطر على شعورها.. قال لها بالفرنسية بعد لحظة: "للمرة الثالثة أقدم إليك ساعدي".

فنظرت إليه ولم تعرف بماذا تجيب، وهنا خفت الأميرة بتسي لنجدتها، وقالت:

- كلا يا أليكسيس كارنين، إنني أحضرت أنّا إلى هنا، وسأعود بها

فأجابها وعلى شفتيه ابتسامة مؤدبة، وفي عينيه نظرة صارمة:

- معذرة يا سيدتي الأميرة، ولكني أرى أن هذا السباق يؤثر على أعصابها، وأريد أن تعود برفقتي.

فنظرت أنّا حولها في ذعر، ثُم نهضت طائعة وتأبطت ساعد زوجها، وراح كارنين يُحيي أصدقاءه عند انصرافه بمثل الهدوء والأدب الذي حياهم به عند قدومه، واضطرت أنّا كذلك أن تُجيب صديقاتها وأن تبتسم لهن، ولكنها كانت في الواقع ذاهلة مشدوهة تمشي وكأنها في حلم، ولا تكف عن سؤال نفسها: "تُرى هل نجا حقاً.. أم قد انكسرت ساقه؟"

جلست في ركن المركبة بجانب زوجها دون أن تنطق بكلمة،

وسارت المركبة بهما بعيداً عن ضجة الحلبة، وبالرغم من جميع الأعراض التي شهدها كارنين، فإنه رفض أن يسمح لنفسه بالتفكير في أمر زوجته، ولم يُلاحظ إلا أنها أساءت التصرف ولفتت إليها الأنظار، ولم تُحافظ على الظواهر، وإن من واجبه أن يقول لها ذلك. ولكنه لم يعرف كيف يبدأ الحديث، وأخيراً وبعد تردد طويل، مهد لغرضه بقوله:

- من عجب الغريزة البشرية تحفيز جميع الناس لشهود هذه المناظر القاسية.

فهتفت باحتقار:

- ماذا تقول؟ إنني لا أفهمك.

فأغاظته لهجتها، وقرر أن يصارحها بما عنده فقال بالفرنسية:

- يجب أن أقول لك إن سلوكك اليوم كان معيباً.

فأجابت بسرعة وبصوت مرتفع، وهي تنظر في عينيه بجرأة:

- وكيف كان سلوكي معيباً؟

فقال وهو يشير بإصبعه نحو سائق المركبة: "لا تنسي".

وأسدل الستار الذي يفصل بينهما وبين السائق. قالت أنّا مرة أخرى:

- ماذا كان معيباً في سلوكي؟

- ذلك الجزء الذي أبديته عندما سقط أحد الفرسان.

وانتظر جوابها، ولكنها لزمت الصمت، فاستطرد:

- لقد طلبت إليك مرة قبل الآن أن يكون سلوكك بحيث لا يسمح لألسنة السوء أن تتشدق باسمك. كنت فيما مضى أتحدث إليك عن علاقاتنا الداخلية، ولكني الآن لا أتحدث عنها، وإنما أتحدث عن علاقتنا الظاهرة، فأقول لك إن سلوكك كان معيباً، وإنني لا أريد أن يتكرر ذلك مرة أخرى.

ولم تسمع أنّا نصف حديثه لأنها كانت في شغل بالتفكير فيما أصاب فرونسكي، ولكنها ابتسمت في تهكم حين فرغ كارنين من كلامه، وظن كارنين أنها تبتسم ساخرة من شكوكه، وأنها ستقول له الآن ما قالته مراراً من أن شكوكه ليست إلا وهماً مضحكاً لا أساس له.. ولم يكن يطمع منها في أكثر من ذلك، لأن ما تبينه بميدان السباق كان من الهول والقسوة بحيث حبب إليه أن يسمع منها أي شيء.. أية كذبة تُوهمه بخطأ ظنونه وريبه. استطرد:

- ربما كنت مخطئاً، وفي هذه الحالة يجب أن أسألك المعذرة.

فأجابته ببطء، وهي تنظر إلى وجهه الهادئ في يأس وقنوط:

- كلا.. إنك لست مخطئاً.. إنني جزعت حقاً حين رأيته يسقط. إنني

أصغي إليك، ولكني أفكر فيه. إنني أحبه.. إنني عشيقته. وأنا أخافك وأمقتك، ولا أطيقك فافعل بي الآن ما شئت.

وتهالكت في ركن المركبة، ودفنت وجهها بين يديها، وانفجرت باكية. أما كارنين فلم يتحرك من مكانه، ولم يحول اتجاه عينيه، ولكن وجهه امتقع في الحال حتى صار كوجوه الموتى. وبقياً كذلك حتى اقتربت بهما المركبة من البيت، وعندئذ تحول إليها، وقال:

- **نعم، ولكني أطالب بالمحافظة على الظواهر حتى (وهنا ارتجف صوته).. حتى أقرر ما يصون شرفي، وسوف أنبئك بقراري.**

ووقفت المركبة، فرافق زوجته إلى الباب وشد على يدها أمام الخدم، ثم عاد إلى المركبة، وأمر السائق أن ينطلق به إلى بطرسبورج. بعد بضع دقائق، جاء خادم يحمل إلى أنّا رسالة من بتسي، ففضتها وقرأت فيها: "قد استفسرت عن فرونسكي، وعلمت أنه سليم معافى"، وتنهدت أنا، وأشرق وجهها، وغمغمت يا للسعادة!!

الفصل العاشر

من لم يكن يعرف أليكسيس كارنين، كان يجهل أن لهذا الرجل الجامد المظهر المتزن العقل ناحية ضعف عجيبة لا تتفق مع ما هو معروف عن خُلقه، فهو الذي اشتهر بأنه آلة عمل وكد، لم يكن يطيق بحال أن يرى أو يسمع طفلاً أو امرأة تبكي، وكان منظر الدموع يُزعجه، ويعصف بهدوئه وباتزان عقله، وقد عرف فيه موظفوه هذا الضعف فكانوا ينصحون النساء من ذوات الحاجة بهذه الحيلة لتحقيق مطالبهن، وينظر إلى التماساتهن بعين العطف والعناية. فلما صارحته أنّا بعلاقتها الأثيمة بفرونسكي ودفنت وجهها بين كفيها وانفجرت باكية اضطرب كارنين، وعجز عقله عن التفكير، فلزم الصمت ولم يقو على الكلام.

كان اعتراف زوجته مؤيداً لأسوأ ظنونه، فحزّ الألم في قلبه، واشتد ألمه عندما رأى دموعها، ولكنه ما كاد يخلو إلى نفسه في المركبة حتى أحس كأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن صدره، وخيل إليه – لفرط دهشته – أنه لم يتخلص من الشعور بالعطف على زوجته فقط، وإنما تخلص كذلك من آلام الغيرة وعذاب الشك، وكان شعوره شعور رجل انتزعت من فمه سنة كانت تؤلمه وتُعكر صفوه، فهو يحس بعد طول الألم والعذاب كأن شيئاً هائلاً قد انتزع من فمه، وأن ما كان يشغل ذهنه ويُسمم حياته قد زال، وأنه يستطيع الآن أن يعيش ويُفكر ويهتم بشؤون حياته، وكذلك كان شعور كارنين، فإنه أحس بألم غريب مُخيف، ولكن هذا الألم قد زال

الآن، وأصبح في مقدوره أن يعيش، وأن يُفكر في أمور أخرى غير زوجته..

قال يُحدث نفسه: "إنها امرأة لا قلب لها، ولا شرف ولا دين، وقد كنت أتوقع كل هذا ولكني حاولت أن أخدع نفسي رحمة بها، وإشفاقاً عليها" وخيل إليه حقاً أنه كان يتوقع كل هذا، وراح يستعرض ماضي حياته معها، ويقول لنفسه: "إنني أخطأت يوم ربطت حياتي بحياتها، ولكن خطئي لا يستوجب اللوم، ولست أنا المذنب، فلا ينبغي إذن أن أكون شقياً".

شعر بأنه أصبح ينفر من الابن كما ينفر من الأم، وبأن مصيرهما معاً لم يعد يُهمه، إنما المهم أن يُزيل عن نفسه الوحل الذي تطاير إليه من سقطة زوجته، وأن يستأنف حياته العملية الشريفة المجدية، وقال لنفسه مرة أخرى: "نعم.. لا ينبغي أن أكون شقياً، لأن امرأة دنسة اقترفت إثماً، بل يجب أن أبحث عن أفضل وسيلة للخلاص من الموقف المؤلم الذي أحرجتني فيه بإثمها، ولا بد أن أجد هذه الوسيلة. إنني لست أول الأزواج الذين دنستهم نساؤهم، ولن أكون آخرهم، وقد سبقني لهذا الموقف داريوف، وبولتافسكي، والبرنس كاريبانوف، والكونت باسكودين، وشاجين، وسمنوف، وصحيح أن كل هؤلاء كانوا موضع السخرية، ولكني لم أسخر منهم، بل كُنت أشعر بالعطف عليهم لأنهم ضحية كارثة يجوز في أي وقت أن تحل بأي زوج، والمسألة الآن هي: ما أفضل وسيلة لمعالجة الموقف؟!"

راح يستعرض في ذهنه ما فعله الأزواج المخدوعون الذين سبقوه. قال لنفسه: "إن داريولوف دعا عشيق امرأته إلى المبارزة". وراقته فكرة المبارزة لأنها تنفي عنه شبهة الجبن والنذالة، وعالج هذه الفكرة في ذهنه طويلاً، ثم قال: "إن الرأي العام هنا لم ينضج تماماً بعد، والناس في هذه البلاد لا يستصوبون المبارزة، ولا يعتبرونها حلاً حاسماً – كما هو الحال في إنجلترا وفرنسا – وبعد فماذا أفيد من المبارزة؟... لنفرض أنني دعوته إلى مبارزتي".. تصور مسدس مُصوبة لصدره، ولم يتمالك نفسه من الارتجاف، واستطرد: "لنفرض أنني تعلمت كيف أستخدم الغدارة وأصيب الهدف، وأنني قتلته"..

وكف عن التفكير، وهز رأسه وقال: "ولكن أي خير في أن يقتل الإنسان رجلاً لكي يحدد علاقاته بزوجته الزانية؟. ثم من المؤكد أنه هو الذي سيقتلني، وفي هذه الحالة أذهب أنا البريء ضحية.. كلا.. إن المبارزة لا تحقق غرضاً"..

رفض هذه الفكرة، وخطر له أن يُطلق امرأته، وتذكر أن بعض الأزواج المخدوعين الذين يعرفهم تخلصوا من مثل موقفه بالطلاق، ولكنه تذكر كذلك أن النتيجة في جميع الحالات، كانت أن عاشرت المُطلقة عشيقها مُعاشرة الأزواج، دون أن تقترن به لأن قانون الكنيسة الروسية يُحرم على الزوجة الآثمة المُطلقة أن تتزوج مرة أخرى، وذلك ما لم يكن يُريده كارنين.. نعم.. لم يكن يريد بحال أن تُفيد زوجته من جريمتها، ولا أن تجد نفسها مُطلقة السراح، لكي تنعم بعشيقها تحت أبصار الناس

الذين يعرفونه ويحترمونه ويجلونه، وقد كان مجرد التفكير في ذلك كافياً لإيلامه وإزعاجه، فأنّ أنين الحيوان الجريح، ونهض من مكانه في المركبة، وجلس في مكان آخر، وكانت الغيرة التي عذبته وقضت مضجعه قبل أن يقطع الشك باليقين قد أفسحت السبيل لشعور آخر، وهو الرغبة في الانتقام من زوجته وإيلامها بقدر ما آلمته، وقوضت سعادته، ولوثت شرفه.

وكتب رسالة، وأعاد تلاوتها أكثر من مرة، وارتاح إلى أسلوبها، وكانت مُفرغة في قالب من الحزم، ولكنها لا تتضمن عبارة تنم عن القسوة أو التهديد، ثُم إنها كانت تطرح بينه وبين زوجته قنطرة من الذهب تستطيع أنّا أن تعبرها إذ صحت عزيمتها على التوبة. وختم الرسالة، ودعا أحد الخدم، وأمره أن يذهب بها إلى زوجته في (بيترهوف) في صباح الغد..

غضبت أنّا كارنينا وكابرت، عندما قال لها فرونسكي: إن موقفها أصبح مُستحيلاً، ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها، بأن الموقف مُستحيل حقاً، وترجو من كل قلبها أن تضع له حداً، فلما افترقت عن زوجها بعد أن صارحته بأمرها في لحظة ألم وانفعال ويأس جعلت تقول لنفسها أنها أحسنت صنعاً بما فعلت، وأن موقفها قد أصبح صريحاً، وإنها لم تعد بحاجة إلى أن تعيش بعد الآن في جو مُسمم بالكذب والنفاق والزيف، وأحست بأن موقفها ربما صار بعد الاعتراف أسوأ مما كان قبله، ولكنها تعزت عن ذلك بأن صراحتها قد أنهت حالة لا تطاق

ووضعت حداً لآلامها وآلام زوجها، وإن كلا منهما يستطيع الآن أن يرتب حياته ومصيره على ضوء الحقائق.

ولما استيقظت في صباح اليوم التالي كان أول شيء جرى إليه ذهنها، هو اعترافها لزوجها؛ فذعرت ولم تفهم كيف استطاعت أن تبوح لزوجها بسرها الأثيم، وبتلك الألفاظ الجريئة الوقحة، ولم تستطع أن تتصور نتيجة هذا الاعتراف، ولكنها اعترفت، وانتهى الأمر، وسمع كارنين اعترافها وذهب دون أن يقول لها شيئاً.

كان قد خيل إليها في الليلة السابقة أن موقفها أصبح جلياً صريحاً أما الآن فإنها شعرت بأن الموقف قد زاد تعقيداً، وبدأت تفكر في الفضيحة التي لم تحسب لها حساباً من قبل، وصور لها الوهم كل ما يجوز لزوجها أن يفعله؛ فتوقعت أن يحضر إليها كبير الخدم فيقذف بها من المنزل وأن تنتشر فضيحتها حتى تملأ المدينة، وسألت نفسها، أين تستطيع أن تذهب متى طردها زوجها؟، ولكنها لم تجد جواباً..

عندما فكرت في فرونسكي توهمت أنه لا يُحبها، وأنه بدأ يجدها حملاً ثقيلاً عليه، وأنها لذلك لا تستطيع أن تُقدم نفسها إليه، وخُيل إليها فضلاً عن ذلك كأن الكلام الذي قالته لزوجها في اليوم السابق قد سمعه كل إنسان في المدينة، فلم تجد الجرأة على دعوة وصيفتها، ولا على النظر في وجه ابنها، واشتد بها الاضطراب والقلق، والشعور بالخزي، فدفنت وجهها بين كفيها، وهتفت من أعماق قلبها: "يا إلهي.. ماذا أصنع؟".

دخلت وصيفتها في هذه اللحظة تحمل القهوة، فصاحت أنّا:

- **كلا.. كلا.. لا أريد شيئاً.**

فقالت (أنوشكا):

- **إن سيرج ومربيته ينتظرانك.**

سمع في الخارج صوت سيرج وهو يصيح مُتألماً:

- **أماه.**

فذعرت، وسألت:

- **ماذا حدث؟! ماذا أصابه؟!**

- **الظاهر أنه سقط على درج السلم، وجرحت ركبته..**

فهرولت أنّا مسرعة، فوجدت الغلام ومربيته على درج السلم، ولكنها اطمأنت عندما رأت إصابته، وقالت وهي تنظر إليه مؤنبة:

- **ألم أقل لك دائماً أن تتئد!**

فأجاب في خجل:

- **سأتئد يا أماه.**

فضمته إلى صدرها، وأشرق وجه الغلام. شعر بعطفها حين كان يتوقع تعنيفها، فغمغم:

- أتحبينني يا أماه؟؟

يا إلهي.. هل يمكن ألا تحبه؟! وقبلته، وأخفت وجهها في كتفه لكيلا يرى دموعها، ثم نكصت على عقبيها، وهرولت إلى غرفتها، وأخرجها ولدها من جمودها ويأسها، وذكرها بالدور الذي قامت به خلال الأعوام السبعة الأخيرة كأم مخلصة حنون تضع سعادة ولدها فوق كل اعتبار، وسرها أن تجد من أمومتها دعامة أخرى لقلبها وحياتها بمنأى عن زوجها وعشيقها.

فليجلب عليها زوجها الخزي والفضيحة إذا أراد، وليهجرها عشيقها إذا شاء؛ فإن لها من ولدها ما يعزيها ويحبب إليها الحياة، وإن لولدها عليها حقاً يجب أن يستوفيه، ويجب عليها أن تؤدبه قبل أن يؤخذ منها أو يحال بينها وبينه.

نعم.. يجب أن تأخذ ولدها وتفر به من هذا الموقف المخيف، وذلك هو الحل الأوحد، ولكن إلى أين تذهب به؟!

وأجابت في الحال على هذا السؤال: "موسكو، ولكن يجب أولاً أن أكتب إليهما". وكتبت لزوجها ما يلي:

"سأرحل بولدي، فليس في استطاعتي أن أقيم في بيتك بعد الذي حدث. إنني لا أعرف القانون، ولا أعلم أي الوالدين أحق بالابن، ولكني سآخذ ولدي معي، لأنني لا أستطيع الحياة بدونه؛ فكن كريماً، واتركه لي".

كتبت هذه الرسالة بسرعة، دون أن يتعثر قلمها، ثُم عز عليها أن تلجأ إلى كرم زوجها، فمزقتها وشرعت تُفكر في صيغة أخرى، وإنها بسبيل التفكير إذا بوصيفتها تحمل إليها رسالة كارنين، فتناولتها بيد مرتجفة، وفضتها بلهفة وبدأت تقرأها من ذيلها: «ولما كان الصيف قد قارب الانتهاء، فإنني أطالبك بالعودة إلى بطرسبرج في موعد غايته يوم الثلاثاء، وأعقد أهمية كبرى على إجابة هذا الطلب».

ثم قرأتها من البداية، وفرغت منها، وأحست ببرودة تسري في جسدها، وأدركت أنها أمام نكبة أفدح مما كانت تتوقع، وكانت في الصباح قد ندمت على أنها اعترفت لزوجها، فودت لو أن في استطاعتها أن تسترد هذا الاعتراف.

وها هو زوجها في رسالته يعتبر اعترافها كأن لم يكن، ويمنحها ما تبغي من طمأنينة واستقرار، ومع ذلك فقد بدت لها رسالته أهول من أي شيء توقعته أو توهمته. غمغمت: "إنه على حق.. إنه دائماً على حق.. إن الجميع يصفونه بالعقل والاتزان، ولكن لا أحد يعرفه كما أعرفه، ولا أحد يعلم كيف قتل كل عاطفة في نفسي خلال الأعوام الثمانية التي قضيتها معه، وكيف أنه لم يشعر يوماً بأنني على قيد الحياة، وبحاجة إلى الحب. أفلم أحاول، وأحاول بكل قوتي أن أجد لنفسي غرضاً في الحياة؟ أفلم أحاول أن أحبه؟ فلما عجزت حاولت أن أحب ولدي، ولكن جاء الوقت الذي لم أستطع فيه أن أخدع نفسي، الوقت الذي شعرت فيه بأنني أعيش ويجب أن أحب، والآن؟!

قرأت برسالته: "وإلا فليس من المُتعذر عليك أن تدركي ما ينتظرك وينتظر ولدك"

بكت يأساً وشقاء وعجزاً، ولم تكف عن البكاء حتى سمعت وقع أقدام وصيفتها، وقالت لها الوصيفة:

- إن الرسول ينتظر الرد.

فقالت أنّا دون أن تنظر إليها:

- أينتظر رداً؟ حسناً.. سأكتب الرد.

ولكن ماذا تكتب، أتكتب أنها تُحب، وأن قلبها موزع بين ولدها وعشيقها؟!.. ولما تذكرت عشيقها فزعت إليه من ورطتها وقالت: "يجب أن أراه.. إنه وحده الذي يستطيع أن يرشدني". ثم تناولت القلم وكتبت لزوجها:

- قد تسلمت رسالتك.

الفصل الحادي عشر

كان فرونسكي مطبوعاً على حب النظام، على الرغم من الحياة البوهيمية التي كان يحياها، وقد اعتاد – منذ بلغ مبلغ الرجال – أن يخلو إلى نفسه مرة كل بضعة شهور لكي يلقي نظرة على حاضره ومستقبله، ويفحص مركزه المالي والعاطفي، وقد استيقظ مبكراً غداة يوم السباق؛ فجمع أوراقه وبدأ في تصفية مركزه المالي. وتصفية ما له وما عليه، فوجد أنه مدين لصانعي الثياب وأصحاب الفنادق والمطاعم ومنتديات الميسر بما لا يقل عن سبعة عشر ألف روبلا. فضلا عن ثلاثة آلاف روبل ثمن جياد ابتاعها، وهذا مبلغ لا قيمة له بالنسبة إلى رجل مثله يعتقد الجميع أن إيراده السنوي يربو على مائة ألف روبل..

وقد كان ذلك هو إيراده حقاً، ولكن عاطفة الأخوة دفعته إلى النزول لأخيه عن ثلاثة أرباع هذا المبلغ، لتسوية الديون الثقيلة التي اجتمعت عليه منذ اقترن بالأميرة فاريا شيكوفا، وهي ابنة نبيل اتهم بالتآمر على القيصر وصودرت أمواله وأملاكه..

غير أن مركز فرونسكي وإسرافه وحياة البذخ التي ألفها والبيئة التي يعيش فيها، كل ذلك أثقل كاهل الخمسة والعشرين ألف روبلا التي بقيت له؛ فراح يستعين بوالدته على رتق ميزانيته، وأوقفت عليه والدته عشرين ألف روبلا من إيرادها الخاص. ولما رأت والدته أن صلته بأنّا كارنينا توشك أن تهدم مستقبله حاولت أن تردعه فلم يرتدع فقبضت يدها عن

مساعدته، وكتبت إليه تقول: إنها ترحب بكل ما من شأنه توطيد مركزه في الجيش والمجتمع، ولكنها لا تشجعه على توطيد علاقة يستنكرها الناس جميعاً.

ونفر فرونسكي من استجداء أمه، ووجد في ذات الوقت أنه لا يستطيع أن يرجع في هبته لأخيه، وهي هبة كان الدافع الأول إليها حبه للأميرة فاريا وعطفه عليها، وقد جعلت فاريا من صنيعه وكرمه قلادة في عنقها تذكرها دائماً وتتغنى بها فنفسه لا تطوع له الآن أن يرجع في هذه الهبة إلا إذا طوعت له أن يضرب امرأة أو أن يسرق أو يكذب.

على أنه كان من حسن حظ فرونسكي أنه وضع لنفسه في الحياة مبادئ لا يحيد عنها، ومن هذه المبادئ أن الرجل الشريف يجب أن يدفع دين القمار، ولكن ليس من الضروري أن يدفع دين صانع الثياب، وأنه لا يجب أن يكذب على رجل ولكن لا مانع من أن يكذب على المرأة، وأنه لا ينبغي أن يخدع أحداً إلا الزوج، وأنه لا يجب أن يصفح عن الإهانة، ولكن يجوز له أن يُهين الغير.. إلخ.

على ضوء هذه المبادئ وضع فرونسكي ميزانيته، وقرر أن يبيع جياده ويستدين لسداد الديون التي لا مفر منها، ثُم انتقل إلى ميزانيته العاطفية ووجد أن صلته بأنّا كارنينا وزوجها متناهية في البساطة والوضوح وأنها تقع في حدود المبادئ التي وضعها لنفسه وسار على هديها؛ فأنّا كارنينا امرأة محترمة تحبه ويحبها؛ فهو إذن صاحب الحق الأول عليها وليس لزوجها أن ينازعه هذا الحق إلا وسلاحه في يده..

بيد أن صلته بأنا تطورت، منذ علم بأنها تحمل في أحشائها جنيناً، وقد دهش عندما فوجئ بهذا التطور، ولكنه فعل في الحال بوحي قلبه وضميره وشعوره بمسؤولية هذا التطور، فنصح عشيقته أن تهجر زوجها.

ولكنه ما كاد يخلو إلى نفسه ويفكر في الأمر ملياً، حتى اعترف بعقم نصيحته، وقال لنفسه: "إذا هجرت زوجها؛ فمعنى ذلك أنها تفر معي، فهل أنا على استعداد لترك الجيش والفرار معها؟ وهل أملك المال اللازم للرحيل بها والإنفاق عليها!!"

وهو يُفكر في كل هذا، إذ بخادم الأميرة بتسي يحمل إليه رسالة منها، تدعوه فيها إلى بيتها لمقابلة أنّا.

قصد فرونسكي لبيت الأميرة بتسي، وهو يشعر بالقلق ويسأل نفسه: "ما السر في هذا الموعد الفجائي؟! ولماذا اختارت بيت الأميرة بتسي، ولم تضرب لي موعداً للقاء في بيتها؟"

ووجد أنّا بانتظاره في الحديقة، وهداه شعوره إلى مكانها تحت إحدى الأشجار، وشدت على يده بثبات ورأت على وجهه علامات الانزعاج فقالت:

- هل أنت غاضب لأني دعوتك؟ لقد كان من الضروري لي أن أراك.

ولاحظ بدوره شحوب لونها، وانطباق شفتيها؛ فاشتد به القلق وأجاب:

- أنا غاضب؟!.. كلا.. ولكن هذا الموعد الفجائي أقلقني.

فتأبطت ساعده، وسارت به بين الأشجار وهي تقول:

- تعال؛ فإنني أريد أن أتحدث إليك.

فانقبض صدره، وتوجس شراً. قال وهو ينظر في عينيها، ويحاول أن يقرأ ما يعتمل في نفسها:

- ماذا حدث؟.

فأجابت وهي تلتقط أنفاسها بسرعة:

- لقد صارحت أليكسيس كارنين بكل شيء، وحدثته بما بيننا.

وكان قد أحنى قامته إلى الأمام قبل أن تتكلم، كأنما ليعد ظهره لاستقبال النكبة التي توشك أن تنزل، ولكنها ما كادت تنطق بهذه الكلمات، حتى انتصبت قامته، وارتسمت في عينيه نظرة كبرياء وصرامة، قال:

- نعم.. نعم.. إنك أحسنت، وذلك أفضل ألف مرة.

غير أنها لم تسمع جوابه، لأنها كانت في شغل بمراقبة وجهه؛ علها تدرك وقع النبأ في نفسه. ولكنها لم تفهم من تقاطيع وجهه أول خاطر طرأ له. وهو وجوب الاستعداد للمبارزة التي لم يبق منها مناص، ولهذا أخطأت في تأويل النظرة الصارمة التي ارتسمت في عينيه.

كانت تشعر منذ قرأت رسالة زوجها، بأنه لا مفر من أن يبقى كل شيء على حاله، لأنها لن تجد الشجاعة على تقويض مركزها وهجر ولدها واللحاق بعشيقها. ولكنها مع ذلك كانت تعقد على هذه المقابلة أهمية كبرى، وترجو أن تؤدي إلى تغيير مركزها وإنقاذها.

ولو سمع فرونسكي النبأ فقال لها بحماسة وعزم وبغير تردد: "دعي كل شيء واهربي معي"؛ إذن لهجرت ولدها ولحقت به، ولكن النبأ لم يحدث في نفسه الأثر المطلوب فقالت أنّا في شيء من الضجر وخيبة الأمل:

- خذ واقرأ..

وأخرجت رسالة زوجها من قفازها، ودفعت بها إليه.. تناولها فرونسكي ولكنه لم يقرأها، وقال ليُرفه عنها:

- فهمت.. فهمت.. إنني لا أطمع إلا في شيء واحد، هو أن أنهي هذا الموقف لأكرس حياتي لسعادتك.

- ولماذا تقول لي هذا الكلام؟! هل تظن أنني أرتاب في ذلك؟ ولكن اقرأ رسالته أولاً..

بسط الرسالة بين أصابعه، وقضى بعض الوقت وهو يُفكر، ولا يقرأ، وكان يُفكر في المبارزة المُنتظرة، وفي موقفه من الزوج المهين، وفي الفضيحة المدوية التي سوف تصم الآذان، وتذكر ما كان يهجس بخاطره وهو في خلوته بعيداً عن عشيقته، حيث كان يحتكم لعقله، فينذره عقله

بسوء المصير، ثُم تنهد وقرأ الرسالة، ونظر إلى أنا في دهشة وعجب..

قالت له بصوت مُرتجف: "أرأيت أي رجل هو؟!! إنه...." فقاطعها: "نعم، ولكني أرى من المستحيل أن يبقى كل شيء على حاله، كما يتوهم".

- ولماذا ترى ذلك مستحيلاً؟

بذلت قصارى جهدها لتحبس دموعها، وكانت تشعر بأن مصيرها قد تقرر، فلم يعد يهمها ما يقول عشيقها بعد ذلك..

أجاب:

- من المُستحيل أن يبقى كل شيء على حاله، لأن الموقف أصبح لا يُطاق، وإني أرجو...

واحمر وجهه، وصمت لحظة، ثم استطرد:

- وإني أرجو أن تسمحي لي بالتفكير في الأمر لتدبير حياتنا معاً، وغداً...

فقاطعته:

- وولدي؟! ألم تقرأ الرسالة؟ إنه يُرغمني على أن أترك ولدي، وذلك ما لا أستطيعه ولا أريده.

- ولكن بحق السماء.. أيهما أفضل: أن تتركي ولدك، أو أن تنغمسي

وتستمري في هذا الموقف المهين؟

- مهين لمن؟

- للجميع.. ولك خاصة.

- أتصف موقفي بأنه مهين؟ كلا.. لا تصفه بذلك.. إن هذه الأوصاف لا قيمة لها عندي.. منذ أحببتك تغير كل شيء بالنسبة إلي، حتى معاني الألفاظ. إنني لا أقيم وزناً لشيء في الوجود غير حبك، وما دمت أنعم به، فإنني أنعم كذلك بالخيلاء والكبرياء، ولا شيء يشعرني بالمذلة والهوان. إنني فخورة بموقفي.. لأن... لأن...

وغلبها الشعور بالخزي واليأس فبكت.

وأحس فرونسكي – لأول مرة في حياته – برغبة شديدة في البكاء، ولكنه لم يستطع تعليل انفعاله وتأثره.. أهو إشفاقه عليها وعجزه عن انتشالها من ورطتها؟ أم هو شعور بخطئه، وبأنه كان علة شقائها؟! قال بصوت خافت:

- وهل الطلاق مُستحيل؟.

فهزت رأسها ولم تجب.. قال:

- ألا يُمكن أن تأخذي ولدك، وتهجريه؟؟

- نعم.. هذا ممكن، ولكن كل شيء يتوقف على مشيئته، سأذهب إلى

بطرسبرج يوم الثلاثاء، ويومئذ يتقرر كُل شيء.

عادت أنّا إلى بطرسبرج في صبيحة يوم الثلاثاء، وكانت تتوقع أن تجد زوجها في انتظارها، ولكنها لم تره عندما وقفت بها المركبة أمام الباب، ثُم قيل لها أنه في شُغل مع سكرتيره في مكتبه؛ فبعثت إليه تُنبئه بقدومها، وقصدت لمخدعها، وراحت تُرتب بعض شؤونها، وتنتظره..

انقضت ساعة، ولم يذهب إليها كارنين في مخدعها، فقصدت إلى قاعة الطعام، وأصدرت بعض الأوامر بصوت مرتفع، لتُسمع زوجها، وتُشعره بوجودها.. ثُم انصرف السكرتير وأشفقت أنّا أن ينصرف كارنين في أثره كما جرت العادة، وكانت تُريد أن تراه قبل انصرافه، فذهبت إليه في مكتبه ودخلت بقدم ثابتة، وكان كارنين مُرتدياً ثوبه الرسمي وجالساً أمام مكتبه، وهو ينظر في الفضاء بعينيه المُتعبتين، ورأته قبل أن يراها، وشعرت بأنه يُفكر فيها

ووجدها كارنين أمامه، فهم بالنهوض، ثم عدل عن ذلك، ثُم احمر وجهه، ونهض واقفاً وتناول يدها، وقال وهو ينظر إلى جبينها وشعرها، ولا ينظر في عينيها:

- يسرني أنك عدت...

وأجلسها على أحد المقاعد، وجلس بجانبها، وفتح فمه مراراً لكي يتكلم، وفي كل مرة كانت تخونه عزيمته فيصمت.

أما هي؛ فإنها تأهبت لهذه المقابلة، واستعدت للومه واحتقاره،

ولكنها ما كادت تراه حتى أحست بالشفقة عليه. وساد الصمت بينهما لحظة، إلى أن قال:

- وسيرج؟! هل هو بخير؟!

ثم أردف دون أن ينتظر جوابها:

- إنني سأنصرف الآن! ولن أستطيع تناول الغداء هنا اليوم.

- كان في نيتي أن أرحل إلى موسكو.

- كلا.. كلا.. إنك أحسنت صنعاً بالقدوم إلى هنا.

وساد الصمت مرة أخرى. أدركت أنّا أنه لا يجد الجرأة على الكلام؛ فقررت أن تبادره وقالت وهي تنظر لوجهه بثبات:

- أصغ إلي يا أليكسيس كارنين، إنني امرأة رديئة، وزوجة أثيمة، وقد جئت الآن، لكي أقول لك إنني لا أستطيع أن أغير من الواقع شيئاً.

فأجابها بصوت حازم، وفي عينيه نظرة حنق وكراهة:

- إنني أعلم ذلك، ولكني أكرر لك ما سجلته برسالتي، وهي أنني سأتجاهل الأمر ما بقي مكتوماً عن الناس، وما بقي اسمي نقياً خالصاً من الأوحال، أما إذا افتضحت، فإنني أكون مضطراً إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بصون شرفي وسمعتي.

فقالت في خجل، وهي تنظر إليه في خوف:

- ولكن الصلة بيننا لن تكون ما كانت فيما مضى.

كان صوته الثاقب الساخر، ونفورها منه قد عصفا بإشفاقها عليه، فقررت أن تُصفي الموقف بأي ثمن، واستطردت:

- لا أستطيع أن أكون زوجتك ما دمت.

فقاطعها بضحكة باردة قاسية وقال:

- أكبر ظني أن الحياة التي ارتضيتها لنفسك قد أثرت بسلامة فهمك. إن احترامي واحتقاري الشديدين، أعني احترامي لماضيك واحتقاري لحاضرك يجعلان المعنى الذي تبادر لذهنك ضرباً من السفه والإسفاف.

فتنهدت أنّا، وسقط رأسها فوق صدرها، واستطرد كارنين:

- إنني لا أستطيع أن أفهم كيف استطاع عقلك المريض أن يوفق بين التبجح بالإثم وإمكان أداء الواجبات الزوجية.

- حدثني في صراحة يا أليكسيس كارنين.. ماذا تريد مني؟!

- أريد ألا تستقبلي هذا الرجل هنا، وأن يكون سلوكك بحيث لا يثير شبهات الناس.. هذا كل ما أريده، وهو ليس بالكثير كما أعتقد، وفي مقابل ذلك تنعمين بكل حقوق الزوجية دون أن تؤدي واجباتها. والآن يجب أن أذهب..

ونهض، وقصد إلى الباب، ونهضت أنّا فتريث، وسمح لها أن تمر أمامه.

وهكذا استأنف كارنين وزوجته حياتهما؛ فعاشا في بيت واحد، ولكنهما ظلا غريبين، وقد حرص كارنين على مقابلة زوجته كل يوم قطعاً لتكهنات الخدم، وظنونهم، ولكنه لم يتناول الطعام في بيته قط، ولم تستقبل أنّا عشيقها في بيت زوجها، ولكنها كانت تذهب للقائه في أماكن أخرى. وكان كارنين يعلم ذلك، وكان الموقف لا يُطاق بالنسبة إليهم جميعاً، ولم يكن بينهم من يطيقه يوماً واحداً، لولا يقينهم من أنه محنة مؤقتة مصيرها حتماً إلى زوال..

وصبر كارنين على هذا الموقف لأنه كان يرجو أن تثوب أنّا إلى رشدها، وأن يخمد غرامها آخر الأمر، كما خمد كل غرام من نوعه، وصبرت أنا لأنها كانت واثقة من أن الموقف لا بد أن ينجلي، وإن كانت تجهل كيف ومتى..

وصبر فرونسكي متأثراً بصبر أنّا، وفي منتصف الشتاء قضى فرونسكي أسبوعاً من أسوأ الأسابيع التي مرت به في حياته؛ فقد وقع عليه الاختيار لمرافقة أمير أجنبي جاء لزيارة بطرسبرج، وهي مهمة كان يمكن أن تروق لسواه، ولكنه شعر منها بالسأم والملالة، سيما وقد كان الأمير شديد الاهتمام بالتوفر على فهم كل صغيرة وكبيرة تقع تحت بصره، وشديد الحرص على غشيان جميع المسارح ودور اللهو..

هكذا اضطر فرونسكي لملازمته، وقضاء النهار كله، وشطر كبير من الليل في صحبته، ولكن اتفق ذات مساء أن أصيب الأمير بانحراف؛ فعاد فرونسكي إلى بيته مبكراً، وهناك وجد رسالة من أنّا؛ ففضها وقرأ فيها:

:إنني مريضة ولا أستطيع الخروج، ولا أطيق الحياة بدونك، فتعال هذا المساء، فقد ذهب أليكسيس كارنين لمجلس الوزراء، ولن يعود قبل الساعة العاشرة".

تعجب فرونسكي، كيف تدعوه أنّا إلى بيتها رغم تحذير زوجها، ولكنه قرر الذهاب، وبعد أن تناول طعامه تهالك على أحد المقاعد التماساً للراحة، ثُم غلبه النعاس فنام، ولما استيقظ كانت الساعة قد قاربت التاسعة، فأصلح هندامه بسرعة، واستأجر مركبة وقصد بها إلى بيت كارنين.

دخل وهو يُقدم رجلاً، ويُؤخر أخرى، ولم يعبأ بالدهشة التي ارتسمت على وجه الخادم الذي صادفه في الحديقة، بيد أنه ما كاد ينفذ من الباب حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام كارنين، وسقط ضوء المصباح على وجه كارنين الشاحب المُتعب، ورأى فرونسكي في عينيه نظرة قلقة شاردة، وأحنى فرونسكي قامته فتحركت شفتا كارنين، ولكنه لم ينطق بكلمة، ومس بأصابعه طرف قبعته السوداء، ومضى كُلِ من الرجلين في سبيله، والزوج إلى الخارج، والعشيق إلى الداخل، واجتاز فرونسكي الردهة الكبيرة، وفي عينيه نظرة كبرياء وغضب، قال يُحدث نفسه: "هذا

موقف بديع حقاً، لو أنه قاوم دفاعاً عن شرفه، إذن لاستطعت أن أفعل شيئاً أمام هذا الضعف وهذه الضعة.. إنه يضعني في موقف المغتصب، وما أنا بالمغتصب، ولا أريد أن أكونه".

سمع وقع خطوات أنّا وهي تسير في غرفتها جيئة وذهاباً، وما أن وقع بصرها عليه حتى اغرورقت عيناها بالدموع وهتفت:

- كلا.. كلا.. إن هذا لا يُطاق.

- ماذا تعنين أيتها العزيزة؟!

- ماذا أعني!! إنك لا تعلم كم أعاني من عذاب القلق والانتظار، لقد انتظرتك ساعة وساعتين، ولكن لا.. إنني لا ألومك؛ فلا بد أنك تأخرت لأسباب خارجة عن إرادتك

وألقت بيديها على كتفيه، ورمقته بنظرة عميقة فاحصة، كأنما لتشبع عينيها من طلعته، وتقابل بينه وبين صورته كما تتخيلها في غيابه.

سألته وهي تجلس بجانبه:

- هل قابلته؟! هذا عقابك لأنك أبطأت في القدوم.

- نعم قابلته، ولكن كيف حدث ذلك؟! ألم تذكري بخطابك أنه بمجلس الوزراء؟!

- إنه اشترك بمجلس الوزراء وعاد مُبكراً، وانصرف مرة أخرى لشأن

لا أعلمه، ولكن دعنا منه، ماذا فعلت اليوم، هل كُنت في رفقة الأمير كالعادة؟؟

- نعم، ولكنه أصيب بانحراف اليوم، وسيرحل غداً والحمد لله.. إنك لا تعلمين كم كنت متبرماً بصحبته.

- لماذا؟! ألم تقض الليل والنهار معه في دور اللهو والعبث؟! وهل يطمع سائر الرجال من الحياة في أكثر من ذلك؟

فأجاب وقد هاله تقلص وجهها وانقلاب سحنتها:

- إنني طلقت اللهو والعبث منذ وقت طويل، وأؤكد لك أن هذا الأسبوع الذي قضيته في صحبة الأمير كان من أسأم الأسابيع وأشدها ملالة.

فرمقته بنظرة ارتياب قاسية وقالت:

- لقد زارتني (لويزا) اليوم، وحدثتني عن السهرة الفاضحة التي أقامها الأمير.

- إنني ساهمت فيها كارهاً.

فقلبت شفتها باحتقار وقالت:

- ومن المرأة التي رقصت في الحفلة وهي في ثوب حواء؟ أهي صديقتك تيريزا؟!

- لقد قلت لك...

- ما أبشعكم أيها الرجال، وما أشد حرصكم على كتمان مخازيكم.. والواقع ماذا تحسبني أعرف عن حياتك؟! لا شيء إلا ما تذكره لي، ومن يدري إذا كنت تذكر لي كل الحقيقة.

- إنك تعملين على إيلامي يا أنّا!! أفلا تصدقينني؟ أفلم أقل لك مراراً أنني لا أكتم عنك حتى خواطري وما يهجس في نفسي؟

فقالت وهي تبذل جهدها للتخلص من شعورها بالغيرة:

- نعم.. نعم.. ولكنك لا تعلم كم أعاني في وحدتي بعيداً عنك..

كانت تغار عليه، وبلغت غيرتها من الشدة في الأيام الأخيرة مبلغاً أزعجه، وروعه، وأضعف حبه لها.

كان فيما مضى يقول لنفسه إنها إذا أحبته، فتلك هي السعادة التي ليست بعدها سعادة.. والآن، وقد أحبته بكل كينونتها، حبا ترجح كفته عندها على كل شيء آخر في الحياة؛ فإنه أحس بأنه أبعد عن السعادة مما كان يوم رافقها في القطار إلى بطرسبرج.. كان يحسب نفسه في ذلك العهد شقياً، ويرى السعادة أمامه في يد المستقبل.. أما الآن فإنه يرى أهنأ أوقات السعادة في غيابة الماضي.

وخيل إليه أن أنّا لم تعد كعهده بها، وأنها تغيرت خلقاً وجسداً، وأنها عندما تكلمت عن الراقصة منذ لحظة تقلصت سحنتها تقلصاً

بشعاً..

وهكذا أصبح ينظر إليها كما ينظر الرجل إلى زهرة اقتطفها فذبلت في يده؛ فهو يفتش فيها عن شيء من الجمال الذي أغراه باقتطافها ولا يجد. وقد كان يهنئ نفسه فيما مضى، وهو في عنفوان حبه لها، على أنه يستطيع أن ينتزع هذا الحب من قلبه إذا شاء، ولكنه يشعر الآن – بعد أن ضعفت حرارة حبه – بأن بينهما عقدة جديدة لا يمكن فصمها..

قالت له:

- لقد طردت شيطان الغيرة؛ فتكلم الآن.. ماذا يضايقك من صحبة الأمير؟

- إنه رجل لا يطاق، ولا يمكن أن تقربه العشرة الطويلة من قلوب الناس.. إنه أشبه بتلك الحيوانات البديعة التي تنال الجائزة الأولى في معارض البهائم.

- ولكن كيف؟! لقد قيل لي أنه على جانب عظيم من الثقافة.

- ولكنها ثقافة من نوع آخر غير الذي نفهمه، حتى ليخيل إلي أن هذا الطراز من الناس إنما يتثقفون فقط لكي يكون لهم الحق في امتهان الثقافة الصحيحة، كما يمتهنون كل شيء آخر عدا شهواتهم البهيمية.

- ولكن.. أليس ذلك من غرائزكم أيها الرجال؟! ألا تضعون جميعكم

هذه الغرائز البهيمية في الموضع الأول؟!

وانقلبت سحنتها مرة أخرى ذلك الانقلاب البشع.. استطردت:

- أفلم يكن شهودك (تيريزا) في ثوب حواء، إرضاء لغرائزك البهيمية؟!

فقال في لطف وهو يقبل يدها:

- لقد خيل إلي أنك طردت شيطان الغيرة..

- نعم.. نعم.. ولكنك لا تعلم كم قاسيت في انتظارك.. إنني لا أشعر بالغيرة وأنت معي.. أما وأنت بعيد عن بصري...

وأشاحت بوجهها لكيلا يرى الدمعة التي ترقرقت في عينيها، ثم تحولت إليه فجأة وسألت:

- وماذا حدث بينك وبين أليكسيس كارنين؟! وأين قابلته؟.

- إنني كدت أصطدم به عند الباب.

- ولا شك أنه رفع يده إلى قبعته محيياً هكذا.

رفعت يدها كما فعل كارنين تماماً؛ فلم يتمالك فرونسكي نفسه من الابتسام.. وانفجرت أنّا ضاحكة تلك الضحكة الطروب الرنانة التي كانت من محاسنها الخاصة.

وقال فرونسكي:

- إنني لا أفهم هذا الرجل؟! لو أنه بعد أن حذرك من دعوتي إلى منزله قد تحرش بي، إذن لفهمته، ولكني لا أستطيع الآن أن أفهمه، أو أن أفهم كيف يطيق هذا الموقف. إنه لغز غامض، ولكني لا أرتاب في أنه يتألم.

فصاحت بتهكم:

- يتألم؟! إنه راض كل الرضا.. إنني أعرفه حق المعرفة، وأعرف غرامه بالرياء، وحرصه على الظواهر الكاذبة. أنه يفهم ولكنه جامد الشعور، وإلا هل في استطاعة رجل يتمتع بذرة من الشعور أن يقيم في بيت واحد مع زوجته الزانية؟.. إنه ليس رجلاً، وليس آدمياً، ولكنه دمية، ولو أنني مكانه إذن لمزقت الزوجة التي على شاكلتي إرباً، بدلاً من أن أعيش معها تحت سقف واحد وأقول لها (يا عزيزتي أنا). قُلت لك إنه ليس رجلاً، ولكنه آلة للأعمال الرسمية والتشريفات. إنه لا يفهم أنني زوجتك، وأنه دخيل على هذا البيت، وزائد عن الحاجة، ولكن دعنا.

وكفت عن الكلام فجأة، وتغيرت ملامحها، واستحال غضبها وتهكمها إلى هدوء ورفق، وارتسمت في عينيها نظرة حنان، ولم يفهم فرونسكي سر هذا الانقلاب. أما هي فكانت تشعر بالحياة الجديدة التي تنبض في أحشائها.

الفصل الثاني عشر

انصرف كارنين من البيت بعد أن قابل فرونسكي، وقصد توا إلى دار الأوبرا، واشترك مع الوزراء في استقبال القيصر، ولما عاد إلى بيته بعد السهرة كان أول ما فعله أنه نظر إلى المشجب، ولكنه لم يجد معطفاً عسكرياً؛ فصعد إلى غرفته ولم يخلع ثيابه في الحال كما اعتاد أن يفعل، بل جعل يسير في الغرفة جيئة وذهاباً حتى الساعة الثالثة، وكان حانقاً أشد الحنق على زوجته لأنها ضربت بتحذيره عرض الأفق ولم تحترم الشرط الأول الذي فرضه عليها، وهو ألا تقابل عشيقها في بيته، فأصبح لزاماً عليه أن يقتص منها وأن ينفذ تهديده فيطلقها وينتزع الغلام منها..

ولم يغمض له جفن طول الليل، وازداد حنقه حتى بلغ غايته في الصباح، فارتدى ثيابه على عجل، وما كاد يشعر بأنها استيقظت من نومها حتى أسرع إليها حاملاً كأسه المترعة بالحقد كأنه يخشى أن تنسكب منه قطرة بمرور الوقت، وحسبت أنّا أنها تعرف زوجها حق المعرفة، ولكنها ذهلت وجمدت في مكانها حين أبصرت به، وكان مقطب الجبين معقود الحاجبين، مطبق الشفتين عن غضب واحتقار، وفي خطواته كما في حركاته وصوته عزيمة وصرامة لا عهد لها بهما من قبل، ودخل مخدعها دون أن يقول لها «طاب صباحك»، وقصد لتوه إلى مكتبها، وتناول المفاتيح، وفتح درجاً؛ فهتفت:

- ماذا تريد؟!

- أريد رسائل عشيقك.

- إنها ليست هنا.

وأغلقت الدرج، ولكن هذه الحركة أشعرته بأنه أصاب الهدف، فدفعها بغلظة، وتناول صندوقاً صغيراً يعلم أنها تحفظ فيه أوراقها المهمة.

وأرادت أنّا أن تختطف الصندوق، ولكنه دفعها مرة أخرى وقال:

- اجلسي؛ فإنني يجب أن أتحدث إليك.

ووضع صندوق الأوراق تحت إبطه، وضغطه بساعده بشدة، وذهلت أنّا ونظرت إليه، وقد عقدت الدهشة لسانها.

- لقد قلت لك إنني لا أسمح بأن تقابلي عشيقك في هذا البيت..

- إنني قابلته فقط لكي...

ولم يسعفها خاطرها على التماس عذر؛ فقال كارنين:

- لا أريد أن أعرف تفاصيل الأسباب التي تحمل المرأة على مقابلة عشيقها.

- لقد قابلته فقط لكي.. لكي..

وضايقتها غلظة زوجها، وأثارت حنقها وموجدتها فصاحت:

- هل بلغ من جمود عاطفتك ألا تشعر بأنك تهينني؟!

- إنما يهان الرجل الشريف، أو المرأة الشريفة، أما أن يقول الإنسان للص إنه لص، فإنه لن يكون قد فعل أكثر من أنه قرر الحقيقة.

- إنني لم أر منك هذه القساوة من قبل.

- أقساوة أن يترك الرجل لامرأته مطلق الحرية، وأن يهيئ لها من بيته مأوى شريفاً تتحصن فيه من عارها بشرط واحد هو أن تصون شرف هذا المأوى؟.. أهذه قساوة؟؟

فصاحت أنّا في غضب:

- إنها أسوأ من القساوة.. إنها ضعة.

وهمت بالانصراف، ولكنه صاح بصوت ثاقب:

- كلا..

وأمسك ساعدها بعنف حتى تركت أصابعه أثرها في لحمها، وأجلسها على المقعد عنوة، وهتف:

- ضعة!! ما دام قد راقك أن تنطقي بهذه الكلمة؛ فإنني أقول لك أن الضعة هي أن تهجر المرأة زوجها وولدها من أجل عشيقها ثم تطوع

لها نفسها أن تأكل خبز هذا الزوج.

فسقط رأسها فوق صدرها، ولم تجرؤ على أن تقول له في هذه اللحظة ما قالته في اليوم السابق من أن فرونسكي هو زوجها، وأنه – أي كارنين – دخيل على البيت، وزائد عن الحاجة. وكانت تشعر بأنه على حق وأنه لم يقل إلا صواباً، وقالت بصوت خافت:

- ليس في استطاعتك أن تصف حالي بأسوأ مما أعرفه وأشعر به... ولكن لماذا تقول لي كل ذلك؟!

- لماذا أقول لك كل ذلك؟! لماذا؟! لتعلمي أنك لم تنزلي على إرادتي.. ولم تصوني شرف بيتي، وإنني سأتخذ الإجراءات اللازمة لوضع حد لهذا الموقف بأسرع مما تتصورين أو يتصور عشيقك..

فغمغمت: "نعم.. يجب وضع حد لهذا الموقف..."

فقال في تهكم وحقد:

- طبعاً... لكي تشبعي الشهوات البهيمية التي...

- يا أليكسيس كارنين.. ليس من الكرم، ولا من الرجولة أن تضرب امرأة صريعة..

- هذا كلام طيب، ولكنك لا تفكرين إلا في نفسك، أما آلام الرجل الذي كان زوجك فإنك لا تقيمين لها وزناً.. نعم لا يهمك آلام هذا

الرجل ولا يهمك أن حياته كلها قد تقوضت وانهارت تحت قدميه..

ولأول مرة في حياتها أحست بالشفقة عليه، وأوقفت نفسها موقفه، وأسفت له، ولكن ماذا في استطاعتها أن تفعل؟!!

أطرقت برأسها وهمست: "وا أسفاه.. ليس في مقدوري أن أغير شيئاً"، ولكنه لم يسمع همسها، واستطرد:

- إنني جئت لكي أقول لك إنني سأرحل إلى موسكو غداً، ولن أعود إلى هذا البيت، وستعلمين نواياي من المحامي الذي سأضع بين يديه قضية الطلاق، وسأرسل ولدي للإقامة في بيت أختي.

فغاص قلبها بين جنبيها، وقالت وهي تنظر في وجهه بحدة:

- أنت تريد الانتقام مني بانتزاع ولدي، ولكنك لا تحبه فاتركه لي.

- نعم.. إنني فقدت حتى عطفي على ولدي لصلته بكراهيتي لك ونفوري منك، ولكني سأحتفظ به رغم ذلك.. وداعاً..

وسار للباب يريد الانصراف، ولكنها أسرعت في أثره وهي تقول:

- يا أليكسيس كارنين.. اترك لي ولدي.. إنني لا أطلب الصفح والمغفرة، ولكني أرجو قليلاً من الرحمة.

وأحست بقلبها يذوب لمجرد التفكير في فراق ولدها، وسال ذوب قلبها دموعاً. هتفت:

- إنك لا تستطيع، ولا القانون يستطيع أن يجعل من ولدي شيئاً آخر غير قطعة من لحمي وذات نفسي..

- أن يكون (سيرج) بغير أم، خير له من أن تكوني أمه

ففقدت ثباتها وطمأنينتها، وصاحت متوسلة:

- إنني أضرع إليك يا أليكسيس كارنين. اقض في أمري بما شئت ولكن لا تفعل هذا. لا تفعل هذا. فإنه أهول قصاص. ربما كنت مذنبة، ولكني أم، وإذا كان من حقك أن تقصي امرأتك فليس من حقك أن تطعن الأم في قلبها..

فأشاح عنها بوجهه وقال:

- كل هذا كلام لا طائل تحته، وكان ينبغي أن تفكري في العواقب قبل أن تلوثي اسمي واسم ولدك بأوحالك.

***

وجلس كارنين، ونظر للمحامي بنظرة فاحصة، ثم قال:

- قبل أن أشرح قضيتي، يجب أن أقول لك أن المهمة الخاصة التي جئتك بصددها ينبغي أن تظل في طي الكتمان.

فأجاب المحامي الكبير:

- إنني لا أكون محامياً، إذا لم يكن في استطاعتي أن أكتم أسرار عملائي.

ففحصه كارنين بعينيه مرة أخرى، واطمأن إلى ذكائه ورصانته.. سأله:

- هل سمعت باسمي؟..

فأحنى المحامي قامته باحترام وقال:

- بل وأعرفك، ويجب أن يعرف كل روسي وزراءه العاملين!!

فتنهد كارنين، ثم جمع أطراف شجاعته، وقال:

- إن من سوء حظي أن أكون زوجاً مخدوعاً، وإني أريد الآن أن أفصم صلتي بزوجتي بالطريقة القانونية، أي أن أطلقها، إنما بشرط ألا يكون لها حق الاحتفاظ بولدي.

فلمعت عينا المحامي بشيء من السرور وقال:

- هل أفهم من حديثك أنك تريد الاستعانة بي للحصول على الطلاق؟!

- نعم.. ولكن يجب أن أقول لك من الآن.. إن هذا الوقت الذي تقضيه معي ربما يذهب هباء، أولاً لأني جئت على سبيل الاستشارة، وثانياً لأني أريد الطلاق بشروط يهمني توافرها؛ فإذا لم تتفق الأساليب

مع هذه الشروط فمن المحتمل كثيراً أن أعدل عن غرضي.

- إن لك دائماً مطلق الحرية.

فقال كارنين:

- إنني أعرف مجمل القوانين الخاصة بالموضوع، ولكني أود الوقوف على الأساليب المتبعة عملياً.

- هل تريد أن أعدد لك الأحوال التي تجيز لك الطلاق؟!

فأطرق كارنين برأسه علامة الإيجاب.

قال المحامي:

- إن القانون الروسي يمنح الطلاق في الأحوال التالية: النقص الطبيعي والجسماني في الزوج أو الزوجة، وغياب أحد الزوجين وانقطاع أبنائه خمسة أعوام على الأقل، والخيانة الزوجية. وأظن أن ظروف قضيتك لا تنطبق عليها حالة النقص الطبيعي، أو الغيبة المنقطعة..

فأطرق كارنين برأسه ولم يجب، قال المحامي:

- إذن بقيت حالة الخيانة الزوجية، وهي على نوعين: خيانة باتفاق الزوجين، وخيانة دون علم أحدهما، ويجب أن أقول لك إن النوع الثاني نادر عملياً، بخلاف النوع الأول، فإنه أكثر بساطة وشيوعاً..

فنظر كارنين إلى المحامي في حيرة، وأدرك هذا أنه لم يفهم، فقال موضحاً:

- يحدث عادة أن يشعر الزوجان بأن حياتهما معاً لا تطاق، فيتفقان على الانفصال، ويقيم أحدهما مع الطرف الثالث في الخصومة، وفي هذه الحالة لا يكون أيسر من إثبات الخيانة الزوجية إما بواسطة الرسائل المتبادلة بين العشيقين، وإما بضبطهما في حالة تلبس، والإثبات بالطريقة الثانية أفضل عملياً فإذا شرفتني بقضيتك فإنني أتخذ الإجراءات اللازمة للحصول على الأدلة المادية.

وصمت المحامي، ولاحظ تردد كارنين؛ فقال:

- إن الغاية تُبرر الوسيلة، ومن تهمه النتائج يجب أن يقبل الوسائل.

فاحمر وجه كارنين، وقال وهو ينهض:

- حسناً.. سأفكر في الأمر ملياً، وأقلبه على كل وجوهه، وأتصل بك في الوقت المناسب.

- إنني رهن إشارتك..

وانصرف كارنين من مكتب المحامي الكبير وهو يضرب أخماساً في أسداس، ولم يكد يجتاز الشارع حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام أوبلونسكي، ولم يكن يريد أن يقابل أحداً في موسكو، ولا سيما شقيق زوجته؛ فرفع يده إلى حافة قبعته محيياً، وأراد أن يواصل السير ولكن

أوبلونسكي لحق به، واستوقفه وهو يصيح:

- يا للعار!!! أتحضر إلى موسكو ولا تنبئني!!! متى جئت؟! يسرنا جداً أن نراك؟ لماذا لم تأت لزيارتنا؟!

فأجاب كارنين بلهجة جافة:

- لم يكن لدي متسع من الوقت.

فقال أوبلونسكي بثرثرته المعهودة:

- هل تعلم ماذا سنفعل غداً؟ إننا سنشترك في الحفلة الكبيرة التي يقيمها البرنس شرباتسكي بمناسبة خطوبة ابنته كاترين لميشيل ليفين، ويجب أن تأتي معنا.

- إنني سأبرح موسكو غداً مساء في مهمة رسمية.

- إذن فلا أقل من أن تتناول الغداء معنا غداً. إن داريا تريد أن تراك.

فأجاب كارنين بخشونة:

- لا أستطيع...

وكان كارنين مصمماً على أن يلقى أوبلونسكي اللقاء الذي يناسب موقفه الجديد من زوجته، ولكنه لم يحسب حساباً للطف أوبلونسكي ودماثة خلقه. ونظر إليه أوبلونسكي بعينين واسعتين بريئتين كعيون

الأطفال وقال:

- كيف لا تستطيع؟! ماذا تعني؟

- إنني لا أستطيع، لأن الصلة العائلية التي كانت تربط بيننا قد انفصمت.

فهتفت أوبلونسكي وهو لا يكاد يصدق أذنيه:

- ماذا تقول؟ ولماذا...؟

- لأنني شرعت بالإجراءات اللازمة لطلاق أختك.

وبلغ من ذهول أوبلونسكي، وذعره من هذه المفاجأة أنه ترنح واستند للجدار ليمنع نفسه من السقوط، وصاح وقد اضطرب صفاء عينيه:

- يا إلهي.. ماذا تقول يا أليكسيس كارنين؟!

- إنني أقول الحقيقة.

- معذرة، ولكني لا أستطيع أن أصدقك.

ففكر كارنين لحظة، ووجد أن من حق أوبلونسكي عليه أن يعرف بعض التفاصيل. قال:

- نعم، إنني ألفيت نفسي أمام ضرورة مؤلمة، هي ضرورة السعي

للطلاق.

- اصغ إلي يا أليكسيس كارنين، إنني أعرفك كرجل حصيف منصف، وأعرف أنّا كنموذج للمرأة الكاملة، ورأيي فيها لا يتبدل ولهذا لا يُمكن أن أصدق، لا بد أن هناك بعض سوء التفاهم.

- آه.. ليت الأمر كان مقصوراً على سوء تفاهم!!

- صبراً لحظة.. لقد فهمت.. إنما ينبغي على الإنسان ألا يتعجل.

فأجاب كارنين ببرود:

- إنني لم أتعجل، والإنسان لا يستطيع في مثل هذه الحالة أن يطلب رأي أحد، وقد فكرت في الأمر ملياً، وحزمت رأيي.

فتنهد أوبلونسكي وقال:

- هذا مخيف، ولكني لو كنت مكانك لفعلت شيئاً يا أليكسيس كارنين... وإني أرجوك أن تفعله.. إنك لم تشرع في إجراءات الطلاق.. أليس كذلك؟؟ حسناً.. إذن أرجوك أن تفعل شيئاً واحداً هو أن تعالج الموقف مع زوجتي داريا.. إنها تحبك، وتحب أنّا كأختها، وهي امرأة عجيبة، بعيدة النظر؛ فتحدث إليها يا كارنين.. إنني أتوسل إليك..

فكر كارنين، ونظر إليه أوبلونسكي بعينين ملؤهما العطف والإخلاص وسأل:

- إنك ستأتي لمقابلتها غداً.. أليس كذلك؟

- لا أعلم.. لقد كنت أفكر في وجوب إبدال صلتنا بالقطيعة.

- لماذا!! إنني لا أرى ما يستوجب ذلك، وبغض النظر عن علاقاتنا العائلية؛ فإنني أعتقد أنك تشاطرني على الأقل شعور الصداقة والمودة الذي كنت ومازلت أكنه لك، ويجب أن تثق بأنني لم أحاول قط، ولن أحاول أبداً أن أنتصر لأحدكما أو أرجح كفة على كفة.. والآن.. هل أنتظرك غداً؟!

- ما دمت تصر.

- نعم.. إنني أصر، وسأنتظرك غداً.. إلى اللقاء يا أليكسيس كارنين.

وكان بوتشكين من المتحمسين لحق المرأة الروسية، فقال في معرض الحديث أن انعدام المساواة بين المرأة والرجل يبدو واضحاً في حالة الخيانة الزوجية؛ فالقانون والرأي العام لا يساويان بين الزوجين في التبعة والقصاص. وهنا عض أوبلونسكي على شفته، ولاحظ أن الحديث في هذا الموضوع قد جاء في أسوأ المناسبات. وكانوا قد فرغوا من الطعام فأراد أوبلونسكي أن يصرف كارنين عن الإصغاء إلى حديث بوتشكين، وقدم إليه لفافة تبغ؛ فقال كارنين بهدوء:

- شكراً لك.. إنني لا أدخن.

ثُم كأنما أراد أن يبرهن على أن الحديث في هذا الموضوع لا

يزعجه فتحول إلى بوتشكين. وقال ببرود:

- أظن أن طبيعة الأشياء ذاتها تحتم هذا التفريق بين الرجل والمرأة.

وهم بالانتقال إلى قاعة الاستقبال، ولكن بوتشكين قال له فجأة:

- وبهذه المناسبة.. هل علمت ماذا فعل براكنيكوف؟ إنه دعا كافينيسكي اليوم إلى المبارزة وقتله.

فعض أوبلونسكي على شفته مرة أخرى. لقد شاء سوء الحظ أن ينصب حديث بوتشكين على جراح كارنين كما يشاء دائماً أن تقع الإصابة في موضع العطب من جسم الإنسان. وللمرة الثانية حاول أوبلونسكي أن يصرف كارنين عن حديث بوتشكين، ولكن كارنين سأل باهتمام:

- ولماذا دعاه إلى المبارزة؟!

- من أجل زوجته، والحق أن براكنيكوف قد برهن على رجولته حين تحدى غريمه وفتك به.

فتنهد كارنين، وقطب حاجبيه، وقصد إلى قاعة الاستقبال فلحقت به داريا، وقالت له وعلى شفتيها ابتسامة خوف:

- يسرني أنك جئت.. دعنا نجلس هنا؛ فإنني أود التحدث إليك.

فجلس كارنين، وقال وهو يتظاهر بالابتسام:

- إنني رهن إشارتك، ولكن يؤسفني أنني لا أستطيع البقاء هنا طويلاً؛ فإن بعض أعمالي الرسمية تحتم على السفر الليلة إلى الضواحي.

فتطلعت إلى وجهه الهادئ في شيء من الجزع ثم قالت:

- إنك لم تحدثني عن أنّا.. يا أليكسيس كارنين.. فكيف حالها؟!

فأجاب كارنين دون أن ينظر لها:

- أظن أنها في خير حال يا داريا أوبلونسكايا.

- معذرة يا أليكسيس كارنين. ليس لي حق في أن... ولكني أحب أنّا كأختي، وأحترمها، وإني أرجو.. بل أتوسل إليك أن تنبئني بما حدث بينكما. بماذا تتهمها؟؟

فأشاح بوجهه وقال:

- أعتقد أن زوجك لا بد قد ذكر لك الأسباب التي تحتم عليّ فصم علاقتي بأنّا.

فعقدت داريا يديها فوق صدرها، وهتفت وهي تحاول أن تنظر في عينيه:

- ولكني لا أصدق هذه الأسباب، ولا أستطيع أن أصدقها.

- ليس في وسع الإنسان ألا يصدق الحقائق يا داريا أوبلونسكايا..

- ولكن ماذا فعلت بحق السماء.. ماذا فعلت؟!

- إنها ضربت بواجباتها عرض الأفق، وخانت زوجها، ذلك ما فعلته.

- كلا.. كلا.. لا شك أنك مخطئ..

فأراد كارنين أن يجيبها بقلة اكتراث، ولكن إخلاص داريا في الدفاع عن صديقتها أدمى جراحه. فقال بحدة:

- إن من المُتعذر على الزوج، أن يُخطئ الفهم حين تصارحه زوجته بأن الأعوام الثمانية التي قضتها معه والابن الذي أنجبته له كل ذلك كان خطأ، وغلطاً، وأنها تُريد أن تبدأ حياتها من جديد.

- يا إلهي أنّا والإثم إنني لا أستطيع أن أجمع بينهما في ذهني.. إنني لا أصدق.

فنظر في وجهها الكريم النبيل وقال:

- أي شيء لا أدفعه يا داريا أوبلونسكايا، لكي يعود اليقين مجرد شك وريبة. مهما يكن من أمر فإنني أشكر لك عطفك واهتمامك، وأعتذر عن استئناف الحديث؛ لأنه يتعين على أن أبرح موسكو هذه الليلة وسأعود إليها بعد ثلاثة أيام عندما أفرغ من مهمتي.

- صبراً لحظة أخرى يا كارنين، لا تجلب عليها الدمار، صبراً لحظة، ودعني أحدثك عن نفسي، إنني تزوجت، فأثم زوجي وخانني، وأردت بثورة الغضب والغيرة أن أهجره، ولكني رجعت لصوابي.. وبفضل

من؟! بفضل أنّا، إن أنّا أنقذتني، وهأنذا أعيش سعيدة بأولادي، وها هو زوجي قد شعر بخطئه، وندم على ما فرط منه.. إنني عفوت؛ فيجب أن تعفو يا أليكسيس كارنين.

فأصغي إليها كارنين، ولكنه لم يتأثر بكلامها؛ فإن مقابلته الأخيرة مع زوجته كانت لا تزال تمضه وتملأ فمه، قال:

- كلا.. ليس في استطاعتي أن أعفو، ولا أريد وليس من الخير أن أعفو. إنني عملت ما يمكن عمله من أجل هذه المرأة، ولكنها داست كل شيء في الوحل الذي هو جزء من طبيعتها، إنني لست رجلاً قاسياً، ولم أمقت أحداً قط، ولكنني أمقتها بكل قوتي، ولا أستطيع أن أغفر لها ما جلبت علي من العار والشقاء،

واغرورقت عيناه بدموع الغضب؛ فقالت داريا في شيء من التردد:

- لقد جاء في الكتاب المقدس «أحبب أولئك الذين يكرهونك...».

فابتسم كارنين باحتقار.. كان يحفظ هذه الحكمة عن ظهر قلب، ولكنها لم تكن مما ينطبق على موقفه الحالي. قال:

- قد يُحب الإنسان أولئك الذين يكرهونه، ولكنه لا يستطيع أن يُحب أولئك الذين يكرههم.

ثم نهض وهو يقول:

- معذرة إذا كنت أزعجتك.. إنني أعلم أن لدى كل إنسان من همومه ما يكفيه.

وودعها وانصرف.

***

فرغ كارنين من مهمته الرسمية، وعاد إلى موسكو بعد ثلاثة أيام، وقصد إلى الفندق الذي اعتاد النزول به في هذه المدينة، وكان في نيته أن يقضي بموسكو يومين آخرين للاتصال بالمحامي والاستعداد لقضية الطلاق، ولكنه لم يكد يتناول طعامه حتى حمل إليه خادم الفندق برقية باسمه، ففضها وهو يعتقد أنها لشأن من شؤون عمله، ولكنه دُهش حين وجد في ذيلها اسم «أنّا» قرأ فيها: "إنني أموت، وأضرع إليك أن تأتي، لن أنعم حتى بالموت دون صفحك".

قرأ هذه العبارات، وقلب شفته باحتقار، وترك البرقية تسقط على الأرض، وكان أول ما تبادر إلى ذهنه أنها مجرد خدعة، وقال لنفسه: "إنها لا تقف عند حد في كذبها، وقد كانت على وشك أن تضع ثمرة غرامها الأثيم، وذلك هو مرضها بغير شك، ولكن ترى ما الغرض الذي يرميان إليه؟؟ لعلهما يريدان استدراجي لكي أعترف بشرعية الطفل، وأمنحه اسمي، وأوقف إجراءات الطلاق! ولكنها تتكلم عن الموت.."

وتناول البرقية، وتلا عباراتها مرة أخرى، وهاله معناها المباشر. قال:

"هب أن هذا صحيح، وأنها أحست بدنو الموت فتابت لرشدها، وصحت عزيمتها على التوبة، وطلب المغفرة، وأنني امتنعت عن تلبية دعوتها.. أفلا يكون ذلك قسوة تثير عليّ نقمة الناس؟"

وقرر أن يعود إلى بطرسبرج وأن يرى زوجته؛ فإذا وجد أنها خدعته رجع أدراجه دون أن يقول شيئاً، أما إذا وجدها مشرفة حقاً، وطلبت أن تراه قبل موتها فإنه يراها ويغفر لها، وإذا وصل بعد فوات الوقت فإنه يؤدي واجبه الأخير حيالها. قرر ذلك، وصحت عزيمته عليه، ولم يعاود معالجة الموضوع أو التفكير فيه أثناء الطريق. ولما وقفت به المركبة أمام بيته في بطرسبرج أخرج قراره من زوايا ذهنه وكرره على نفسه لكيلا يحيد عنه «إذا كانت كاذبة فإنه يقابل كذبتها بالاحتقار، ويجيب عليها بالرحيل، وإذا كانت صادقة فإنه يحافظ على الظواهر».

وقابله البستاني؛ فسأله:

- كيف حال سيدتك؟؟

- إنها وضعت أمس بخير.

فجمد كارنين في مكانه، وفر لونه. أحس كم كان يرغب في موتها، سأل:

- وصحتها؟

- سيئة جداً.. والطبيب يلازمها منذ أمس.

فقال وقد انبعث أمله في موتها:

- احمل حقائبي من المركبة.

دخل المنزل، واجتاز الردهة الكبيرة، ورأى على المشجب معطفاً عسكرياً، سأل أحد الخدم: .

- من هنا؟

- الطبيب والمولدة... والكونت فرونسكي.

ومر كارنين بقاعة الاستقبال ولم يجد بها أحداً، وخرجت المولدة من مخدع أنّا في تلك اللحظة، وأبصرت به فهتفت:

- حمداً لله على أنك عدت، إنها لا تتكلم عن أحد سواك..

وهنا سمع كارنين صوتاً يصيح من الداخل: "عجلي بالثلج"، فأدرك أنه صوت الطبيب.. ونفذ كارنين لغرفة الثياب المؤدية إلى المخدع، وهناك رأى فرونسكي جالساً على أحد المقاعد ورأسه بين كفيه وهو يبكي، وسمع فرونسكي وقع أقدام كارنين فنظر خلفه ورآه واضطرب، وهم بالنهوض ثم عاد فجلس، وغاص عنقه بين كتفيه كأنه يريد أن يتوارى في نفسه. ونهض مرة أخرى، وقال محدثاً الزوج:

- إنها تموت، ولا أمل للطبيب في نجاتها، وأنا رهن إشارتك، ولكني أضرع إليك أن تدعني هنا.

ورأى كارنين دموع فرونسكي، وأحس بدنو الأزمة العاطفية التي كانت آلام الغير تثيرها في نفسه؛ فأشاح بوجهه واقترب من باب المخدع دون أن يعير فرونسكي اهتماماً، وسمع صوت أنّا، وكانت تتكلم في حماسة وبسرعة، فدخل المخدع ورآها ممددة في فراشها وهي لامعة العينين محتقنة الوجه، وصوتها يرن في جوانب المكان. كانت تقول:

- إنني أتكلم عن أليكسيس... أعني أليكسيس كارنين.. أليس عجيباً ومخيفاً أن يدعي كل منهما أليكسيس؟!.. كلا، إنه لن يرفض الحضور إنه طيب القلب كريم الخلق، وهو نفسه لا يعلم مبلغ كرمه وطيب قلبه.. أواه يا إلهي.. ما هذا الجو الخانق.. أريد جرعة ماء.. ولكن أين الطفلة؟! اذهبوا بها إلى المربية.. إنه سيأتي وسيؤلمه أن يراها..

فقال الطبيب وهو يُبلل شفتيها بالماء:

إنه جاء يا أنّا كارنينا.. ها هو أليكسيس كارنين..

ولكنها لم تر زوجها، ولعلها لم تسمع كلام الطبيب.. قالت بذلك الصوت الرنان الغريب:

- ولكن دعوني أرى طفلتي.. إنه لم يأت بعد.. أنتم تقولون أنه لن يغفر لي لأنكم لا تعرفونه.. لا أحد يعرفه سواي.. وبحسبكم أن تنظروا إلى عينيه.. إنهما كعيني سيرج، ولهذا لا أجسر على النظر في عيني ولدي.. هل تناول سيرج طعامه؟؟

وفجأة.. وقع بصرها على كارنين؛ فانكمشت في مكانها، ولعلها أحست بالخوف والذعر، لأنها قالت على الأثر:

- كلا.. كلا.. إنني لا أخشاه، ولكني أخشى الموت.. تعال يا أليكسيس كارنين.. اقترب مني.. يجب أن أسرع لأن الموت يقترب مني، ولأنني سأفقد الرشد عما قليل، وعندئذ لا أدري بشيء.. أنا الآن أرى كل شيء، وأفهم كل شيء، كل شيء.

وهنا ارتسمت في عيني كارنين نظرة ألم؛ فتناول يد زوجته، وأراد أن يقول لها شيئاً، ولكن فكه الأسفل ارتجف، ولم ينطق بكلمة.. وعندما نظر إلى زوجته رأى في عينيها حناناً لم يره فيهما قبلاً، فاشتد ألمه ويأسه..

قالت أنّا:

- صبراً.. صبراً.. ماذا كنت أريد أن أقول؟..

وصمتت، كأنما لتستجمع خواطرها، ثم استطردت:

- نعم.. أردت أن أقول لك إنني أموت، وإنني أعرف ذلك، والطبيب يعرف ذلك، ولست أطلب إلا شيئاً واحداً، هو صفحك.

هنا استحال ألم كارنين، لشعور بالطمأنينة لا عهد له به من قبل، ووجد نفسه يفكر على الرغم منه في حكمة الكتاب المقدس: «اعف عن أعدائك.. وأحبب من يكرهك»... وامتلأ قلبه بجمال هذا الحب،

وامتلأت نفسه بلذة هذا العفو، فانهار على ركبتيه، وأسند وجهه على يدها الملتهبة، وبكى بكاء الأطفال، وأحاطت أنّا رأسه الأصلع بساعدها الجميل، وهتفت وفي عينيها نظرة فوز وانتصار:

- ألم أقل أنه سيغفر ويعفو؟؟ ولكن أين الآخر؟! ولماذا لا يأتي؟

وصاحت تدعو فرونسكي بقولها:

- تعال... وصافحه..

فدخل فرونسكي، وما أن وقع بصره على عشيقته حتى أخفى وجهه بين كفيه؛ فصاحت به:

- اكشف عن وجهك، وانظر إليه.. إنه ملاك.

ولكن فرونسكي لم يبد حراكاً؛ فصاحت أنّا بزوجها:

- اكشف عن وجهه يا أليكسيس كارنين.. إنني أريد أن أراه..

فسار كارنين إلى حيث كان فرونسكي، ورفع كفيه عن وجهه المتألم الذليل، وقالت أنّا: "صافحه، واصفح عنه". فبسط كارنين يده، دون أن يقوى على حبس دموعه، قالت بصوت خافت:

- شكراً لله.. شكراً لله.. أستطيع الآن أن أستقبل الموت.

واشتدت عليها وطأت الحمى، وامتلأت عيناها بالدموع، فدهش

فرونسكي وجمد في مكانه، واستطرد كارنين:

- في استطاعتك أن تدفعني بقدمك في الوحل، وأن تجعل مني سخرية الناس، ولكني لن أتركها ولن أعتب عليك. ذلك هو واجبي بكل حدوده.. يجب أن أبقى إلى جانبها وسأبقى، وإذا أرادت أن تراك فسأنبئك، فاذهب الآن إلى بيتك واسترح، فذلك خير لك

ونهض واقفاً، والعبرات تخنقه، فوقف فرونسكي أيضاً، ونظر في وجهه طويلاً، ولم يستطع أن يفهمه، ولكنه شعر بأنه أمام صرح شاهق ليس في استطاعة شخص مثله أن يسمو إليه أو يتغلغل في أعماقه.

وخرج فرونسكي مُترنحاً ووقف بالباب الخارجي، شارد اللب مضعضع الحواس. حاول أن يفهم أين هو، وإلى أين يذهب، وكان يشعر بالخزي والخجل والمذلة، بغير أمل في تطهير نفسه من ذلك كله، ويحس بأنه قد طرد من البؤرة الموحلة التي كان يخوضها بكبرياء وصلف، وبدت له جميع صفاته وأعماله ومبادئه في الحياة بكل ما فيها من رياء وزيف.

ورأى أن ذلك الزوج المخدوع الذي طالما نظر إليه كما ينظر إلى مخلوق وضيع حقيق بالرثاء أو إلى عقبة مضحكة عارضة لا ضرورة لها رأى أن هذا الزوج أبعد ما يكون عن صفات الضعة والقسوة والنذالة التي كان ينسبها إليه، وأنه أنبل منه وأكرم وأسمى، وأنهما قد تبادلا الأوضاع فأصبح كارنين عظيماً بكرمه وإنكار ذاته، وأصبح هو وضيعاً بخيانته وإثمه

ونذالته.

قال له البستاني:

- هل أدعو مركبة لسيدي الكونت؟؟

- مركبة؟؟. نعم..

وعاد إلى بيته، وتمدد في فراشه دون أن يخلع ثيابه، ولكن لم يغمض له جفن رغم أنه قضى ثلاث ليال لم يتذوق في خلالها طعم النوم.

أخذ يفكر ويستعرض ذكرياته حتى كل عقله، فقال وهو يتقلب كالملسوع:

- كلا.. يجب أن أنام.. ويجب أن أنسى.

ولكن الخزي والمذلة والعار وشعوره بضعته، وعظمة كارنين، وبأن صلته بأنّا قد انتهت إلى هذه النهاية المهينة.. كل ذلك كان يلهب دمه وينهش في قلبه؛ فأن أنين الحيوان الجريح.

ودوى في أذنيه صوت كارنين وهو يقول: «وفي استطاعتك أن تدفعني بقدمك في الوحل، وأن تجعل مني سخرية للناس...». ثم صوت أنّا وهي تصيح: "اكشف عن وجهك، وانظر إليه.. إنه ملاك".

وتصور موقفه وهو جالس يبكي ووجهه دفين بين كفيه فزاد شعوره بالخجل وهتف بصوت مرتفع: "ما معنى كل هذا.. هل جننت؟؟ ربما؟! وإلا لماذا يجن الناس؟ ولماذا يقتلون أنفسهم؟.. كلا.. يجب أن أنام"

ولكنه لم ينم، بل استوى جالساً في فراشه وقال: "بل يجب أن أفكر في موقفي، وأرى ماذا بقي لي، وكيف تصبح حياته بغير أنّا".

ثم فكر في الجيش، والمجتمع، وفي مطامعه ومستقبله، واضطربت عواطفه وكل عقله؛ فنهض واقفاً وأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهاباً ويقول بصوت مرتفع: "هكذا يجن الناس، وهكذا يقتلون أنفسهم"..

أغلق الباب، وتناول مُسدسه، وصوبه إلى صدره، وأطلقه.

***

كانت الغلطة التي تورط فيها كارنين عندما صفح عن زوجته، أنه لم يقدر في حسابه شفاءها، ولم يُرتب في إخلاص توبتها، وقد برزت له هذه الغلطة بكل دلالتها القاسية بعد شهرين من عودته من موسكو، وكانت دموعها وآلامها وهي على فراش الموت قد أصابت موضع الضعف من قلبه، فبكى لها كما اعتاد أن يبكي كلما رأى آلام المتألمين.

أما الطفلة الصغيرة، فإن شعوره نحوها كان مزيجاً من الشفقة والحب والحنان، وكان يعلم أنها ليست ابنته، ولكنه رأى ضآلتها وصغر حجمها؛ فأشفق عليها إشفاق القوى على الضعيف، ولاحظ أنها أهملت

ونسيها الجميع خلال مرض أمها، فشعر نحوها بالحنان ورأى ابتسامتها الخاطفة وطهارة وجهها الصغير المجعد فأحبها، وراح يقضي إلى جانب مهدها اللحظات التي يستطيع اختلاسها من وقته، وفي خلال هذه اللحظات فقط كان يحس بأنه في سلام مع جميع الناس ومع نفسه، ولكنه شعر مع مرور الوقت أن هذا الموقف الذي اتخذه وطابت له نفسه لا يمكن أن يستمر؛ فقد كانت تعتمل في نفسه إلى جانب القوة الروحية الطيبة التي شددت عزيمته على العفو والصفح قوة غاشمة أخرى راحت تعصف بطمأنينته، وتعكر عليه صفوه.

كان يخيل إليه أن كل إنسان ينظر إليه في دهشة وتساؤل، وينتظر منه أن يفعل شيئاً، وأن زوجته ترمقه في خوف، وتتجنب النظر إلى وجهه، ويبدو عليها دائماً أنها تريد أن تقول له شيئاً، ثم يمنعها من ذلك شعورها بأن العلاقة التي بينهما مصطنعة مؤقتة ولا يمكن أن تستمر.

وفي أحد الأيام عاد كارنين إلى بيته، فلمح على المشجب معطفاً فاخراً من الفراء الأبيض، فسأل الخادم: "من هنا؟"

- الأميرة بتسي فديروفنا..

وخيل لكارنين أنه رأى على شفتي الخادم شبح ابتسامة.

كان قد لاحظ في المدة الأخيرة أن جميع أصدقائه ولا سيما السيدات منهم يبدون اهتماماً غير عادي بأمره وأمر زوجته، وأنهم جميعاً

وبغير استثناء يبتسمون كما ابتسم هذا الخادم، ويتراءى في عيونهم ارتياح خبيث، كذلك الذي تراءى له في عيني المحامي، وقد شعر كارنين بالامتعاض حين علم بوجود الأميرة بتسي، وكان ينفر منها بالغريزة لشخصها وللذكريات التي تتصل بها والجو الذي تعيش فيه.

قصد إلى مخدع زوجته، ولم يخطر له أن يسترق السمع من وراء الأبواب، ولكن حدث أنه ما كاد يقترب من باب المخدع حتى سمع بتسي وهي تقول:

- أستطيع أن أفهم معنى رفضك ورفض زوجك لو لم يكن في نيته الرحيل، ولكنه سيرحل من بطرسبرج، وأنا واثقة أن زوجك لن يحرم عليك استقباله، إن أليكسيس كارنين أرفع من هذا.

فأجابت أنَّا بصوت يدل على الانفعال:

- إنني لا أرفض من أجل زوجي، ولكني أرفض من أجل نفسي، أنا لا أرغب في مقابلته، فلنترك هذا الحديث.

- ولكن ليس أقل من أن تقولي كلمة وداع لرجل أوشك أن يقتل نفسه من أجلك.

- لهذا فقد لا أرغب في مُقابلته.

هُنا سعل كارنين، وفتح الباب ودخل؛ فصمتت المرأتان، وحيته أنّا بإحناء رأسها، ونظرت إلى بتسي بقلق.. أما بتسي فإنها استقبلت كارنين

بابتسامة تهكم وهي تقول:

- يسرني أن أراك.. إنني لم أقابلك منذ بضعة أسابيع.. لقد علمت كل شيء، وسمعت الكثير عن كرمك ونبلك، إنك خير الأزواج حقاً.

قالت ذلك بلطف وكبرياء، كأنها تجود عليه بوسام الجدارة. وأحنى كارنين قامته ببرود، وقبل يد زوجته، وسألها عن صحتها، فأجابت وهي تتجنب النظر في عينيه:

- أظن أن صحتي أفضل اليوم.

- بل يخيل إلى من نظراتك أنك محمومة.

فقالت بتسي:

- لعل ذلك لأنها أسرفت في الكلام معي، لقد كان من الأنانية أن أطيل الحديث معها..

ونهضت، ولكن أنّا أمسكت بيدها وهي تقول:

- كلا.. إبقي، فإنني يجب أن أنبئه، ولا أريد أن أخفي عنه شيئاً.

فأدرك كارنين أنها تعنيه، وأطرق برأسه وأصغى.

قالت أنا:

- تقول بتسي أن الكونت فرونسكي يروم زيارتنا ليودعنا قبل رحيله إلى

(طشقند).

قالت ذلك بسرعة، كأنها تريد التخلص من عبء ثقيل بأي ثمن. واستطردت:

- ولكني أجبتها بأنني لا أستطيع استقباله.

فاستدركت بتسي مصححة:

- بل قلت يا عزيزتي إن الأمر موكول لإرادة أليكسيس كارنين.

فصاحت أنّا:

- كلا. لا أستطيع استقباله، فذلك قد يؤدي...

وصمتت، ونظرت لزوجها بقلق، واستطردت:

- صفوة القول.. أنني لا أرغب.

فاقترب منها كارنين، وهم بتناول يدها. وكان شعورها الغريزي أن تجتذب يدها من يده الكبيرة ذات الشرايين النافرة، ولكنها خجلت، وتركتها له، قال في اضطراب:

- إنني شاكر لك هذه الثقة... ولكن...

وأمسك عن الكلام، ونظر نحو بتسي بقلق، وكان من الواضح أن وجودها يمنعه من الكلام.. كانت هذه المرأة في نظره تمثل تلك القوة

الغاشمة التي تقاوم شعوره بالحب ورغبته في الصفح.

فهمت بتسي معنى صمته فنهضت قائلة:

- سأذهب الآن، إلى اللقاء يا أنّا.

قبلت أنا، وخرجت من الغُرفة، فتبعها كارنين لغرفة الملابس، وهنا وقفت بتسي وقالت:

- أصغ إلي يا أليكسيس كارنين، أنا أعلم أنك رجل كبير القلب وأنا أحترمك وأحب أنا، وذلك ما يغريني بأن أسدي إليك نصيحتي. دعها تستقبله يا أليكسيس كارنين، إن فرونسكي هو الشرف مجسماً، وفضلاً عن ذلك فإنه سيرحل إلى (طشقند)

فأجابها ببرود:

- أشكر عطفك ونصيحتك يا سيدتي الأميرة، ولكني أعتقد أن زوجتي هي وحدها صاحبة الحق في أن تستقبل أو لا تستقبل من تُريد.

ولما عاد كارنين إلى زوجته وجدها في مكانها ولكنه رأى على وجهها آثار الدموع، وقال لها في لطف:

- دعيني أكرر لك شكري على ثقتك بي، وعلى القرار الذي اتخذته، وإنني أرى مثلك، أنه ما دام ينوي الرحيل فلا ضرورة لقدومه إلى هنا،

ومهما يكن من أمر...

فقاطعته أنّا بسرعة وفي ضجر:

- ولكن هذا هو ما قلته.

ثم قالت لنفسها: "نعم، لا ضرورة لقدوم الرجل لكي يودع المرأة التي يُحبها وأوشك أن يقتل نفسه من أجلها، المرأة التي لا تستطيع الحياة بدونه، نعم.. لا ضرورة" وأطرقت برأسها، ووقعت عيناها على يديه المنتفحتي الشرايين، وقالت بهدوء:

- لندع هذا الموضوع.

- لقد تركت لك حرية التصرف، ويسرني كثيراً أن أجد...

فأكملت عبارته، وقد أضجرها إبطاؤه:

- إن رأيي يتفق مع رأيك.

- نعم، وفي الحق إنه لم يكن للأميرة بتسي أن تتدخل في أدق المسائل العائلية.. سيما وأنها.

فقاطعته أنّا بحدة:

- إنني لا أصدق شيئاً مما يقال عنها، ولكني واثقة من حبها وإخلاصها لي.

ولاحظ كارنين ضجر زوجته، وضيق صدرها، وخشونتها وقال لنفسه:

- كلا.. كلا.. إن هذا لا يطاق..

وما كادت الأميرة بتسي تبرح بيت كارنين حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام أوبلونسكي، وكان أوبلونسكي قد جاء لبطرسبرج منذ يومين، فهتف بلهجته المرحة عندما رأى بتسي:

- آه.. أهذه أنت يا سيدتي الأميرة.. ما أسعدني بلقائك.. لقد ذهبت لزيارتك فلم أجدك.

فقالت بتسي، وهي تبتسم وتضع يدها في قفازها:

- وها نحن قد تقابلنا.

- صبراً.. صبراً.. ودعيني أقبل يدك قبل أن تواريها في قفازك.

وقبل يدها، واستطرد:

- ومتى أراك مرة أخرى؟

فقالت تُداعبه:

- إنك لست جديراً بذلك.

- بل أنا جدير به وبأكثر منه، لقد أصبحت أشد الرجال رزانة وأحبهم

إلى الجد وأنا الآن لا أعالج خلافاتي العائلية فقط، بل أعالج كذلك خلافات الغير.

وغمز بعينه، فأدركت بتسي أنه يعني كارنين وزوجته وقالت:

- حبذا لو تفعل.. إن حياتها معه لا تُطاق.

فتلاشى الابتسام عن شفتي أوبلونسكي وقال بلهجة جدية:

- يسرني أن يكون هذا رأيك، إنني جئت إلى بطرسبرج لهذا الغرض.

- إن الموقف لا يُطاق، وقد أصبحت أسماؤهم مضغة في الأفواه وأنَّا تذبل بسرعة كالزهرة النضرة في يد من لا يعرف قدرها، وكارنين لا يفهم أنها من أولئك النساء اللائي لا يستطعن اللعب بعواطفهن. لا بد من أحد أمرين... إما أن يعمل كارنين بحزم ويحتفظ بها لنفسه فقط، وإما أن يطلقها، أما هذا الموقف فإنه يقتلها..

فتنهد أوبلونسكي وقال:

- نعم، لا بد من معالجة الموقف، إنني جئت لهذا الغرض، ولكي أشكر للقيصر الوسام الذي تفضل ومنحني إياه، ولكن المهم هو أن أعالج هذا الموقف.

- أسأل الله لك التوفيق.

مدت إليه يدها، فتناولها، ولكنه قبل ساعدها بدلاً من أن يُقبل

أناملها، وانصرف إلى مخدع أنّا وهو يضحك، وسأل أوبلونسكي شقيقته كيف قضت الصباح؛ فأجابته في يأس:

- على أسوأ ما يكون، الصباح والمساء، والأمس، والغد، والماضي والمستقبل.. كلها على وتيرة واحدة.

فنظر إليها في عطف وقال:

- لا تستسلمي للحزن والأسى، استنهضي همتك وشجاعتك، وانظري إلى الحياة في وجهها.. إنني أعلم أن ذلك من...

فقاطعته:

- يُقال أن بعض النساء يُحببن الرجال لرذائلهم، ولكني أمقته لفضائله، ولا أستطيع معاشرته. تصور هذا أن مُجرد نظراته إليّ تخرجني عن طوري وتؤلمني جُسمانياً، ولكن ماذا أفعل، لقد كُنت شقية، وكنت أظن أن من المستحيل أن أصبح أشقى، ولكني لم أتصور قط موقفاً مُخيفاً كهذا، أنا أعلم أنه كريم ونبيل، وأنني لا أساوي منه قلامة ظلف، ولكني مع ذلك أمقته، وأمقته لكرمه، ولم يبق لي إلا أن...

وأرادت أن تقول (إلا أن أموت)، ولكنه قاطعها بقوله:

- إنك مريضة، وأعصابك شديدة التوتر، ولذلك تبالغين في وصف موقفك، إنه ليس مُخيفاً بالقدر الذي تتوهمين.

- كلا يا ستيفان.. إنني ضعت، وأسوأ من الضياع أنني لا أستطيع أن أقول «أن كل شيء قد انتهى» لأنني أشعر بأن كل شيء لم ينته بعد.. إنني أشبه بحبل مشدود يجب أن ينقطع.

- في الاستطاعة إرخاء هذا الحبل رويداً، وبلطف.. كلا يا أختاه.. إنه لا يوجد موقف بلا مخرج..

- لقد فكرت، وفكرت، فوجدت أنه لا يوجد سوى...

وأدرك أنها تريد أن تذكر كلمة (الموت) مرة أخرى فقاطعها:

- كلا... أصغي إلي... إنك لا ترين موقفك كما أراه.. دعينا نبدأ من البداية.. إنك اقترنت برجل يكبرك في السن عشرين عاماً، واقترنت به على غير حب، وقبل أن تعرفي الحب، وقد كان ذلك خطأ..

- بل كان خطأ جسيماً

- ولكن هذا الخطأ قد أصبح حقيقة واقعة والآن لننتقل إلى الحلقة الثانية. لقد فهمت.. إنك أحببت رجلاً آخر غير زوجك، وهذا من سوء الحظ، ولكنه كذلك أصبح حقيقة واقعة..

ونظر إلى أنّا، ولكنها لزمت الصمت، واستطرد:

- وقد علم زوجك بما هنالك، وغفر لك.. أليس كذلك؟ والآن دعيني أسألك: هل تستطيعين أن تعاشري زوجك بعد الآن؟! وهل تريدين ذلك؟! وهل هو يريد ذلك؟!

- لا أعلم.. لا أعلم..

- ولكنك قلت أنك لا تطيقينه

- كلا، لم أقل ذلك، أنا أسحب هذه الكلمات، إنني لا أعلم شيئاً، ولا أفهم شيئاً.

- حسناً.. دعيني.

- إنك لا تستطيع أن تفهم.. أنا أشعر كأنني أسقط في هوة عميقة، ولا أحاول ولا أستطيع أن أنقذ نفسي.

- لا بأس... سنضع شبكة تتلقفك قبل أن تصلي إلى قرارة الهوة، ولكن هل أفهم من حديثك أنك لا تستطيعين التعبير عن شعورك وأغراضك؟

- ليس لي غرض على الإطلاق، إلا أن أرى نهاية لهذا الموقف..

- ثقي أن زوجك يشعر بمثل شعورك، ويتألم مثل ألمك؛ فلماذا يستمر هذا الموقف بينما تستطيعان إنهاءه بالطلاق..

هزت رأسها ولم تجب، ولكنه رأى من بريق عينيها، أنها لا تجيب لأنها تعتقد أنه يتكلم عن سعادة مستحيلة.. قال:

- إنني آسف لكما، وأكون سعيداً إذا وفقت إلى حل هذه المشكلة المعقدة.. إنني سأذهب إليه..

ونهض؛ فنظرت إليه أنا بعينين لامعتين، ولكنها لم تنطق بكلمة.

وفي مكان آخر قال أوبلونسكي لكارنين:

- لا شك أنك تعلم مبلغ عطفي على أختي، واحترامي لك.

واحمر وجهه، ولم يجب كارنين، وقال أوبلونسكي:

- إنني أريد أن أتحدث إليك عن أختي، وعن موقفكما.

فابتسم كارنين في حزن، ونظر إلى أوبلونسكي طويلاً، ثم تناول من فوق المكتب رسالة كان يكتبها، وقدمها إلى أوبلونسكي وهو يقول:

- أظن أنك تُريد أن تتحدث إليَّ بهذا الموضوع؟! إنها تبرم بوجودي أمامها، وبحديثي؛ فآثرت أن أكتب إليها..

فذهب أوبلونسكي، ونظر بحيرة للعينين المُتعبتين اللتين تطلان من وجه كارنين، ثُم ألقى ببصره على الرسالة. وقرأ فيها ما يلي:

«لقد شعرت بأن وجودي مقيت لنفسك، وعز عليَّ أن أعلم ذلك، ولكن تلك هي الحقيقة التي لا مفر منها. إنني لا ألومك ولا أعتب عليك. وأشهد الله على أنني حين رأيتك على فراش المرض، قد قررت بكل قوى نفسي أن أنسى كل ما كان لكي نبدأ حياة جديدة.

وإني لست نادماً، ولن أندم على ما فعلت؛ فما أردت إلا خيراً

وإنقاذ روحك، ولكني أرى الآن أنني لم أوفق فيما أردت؛ فأنبئيني ماذا يجلب لك السعادة الحقيقية وراحة الضمير؟. سأجيبك إلى ما ترومين، وأجعل مصيري رهناً بإرادتك وإنصافك».

قرأ أوبلونسكي الرسالة في دهشة، وردها إلى كارنين، ونظر إليه طويلاً، ولم يعرف ما يقول، وساد بين الرجلين صمت طويل مؤلم لكليهما..

قال كارنين وهو يشيح بوجهه:

- هذا ما أردت أن أقوله لها.

فغمغم أوبلونسكي بصوت تخنقه العبرات:

- نعم.. نعم.. لقد فهمتك.

- يجب أن أعرف رغباتها.

- يُخيل إليَّ أنها لا تستطيع أن تفهم موقفها، إنها مُحطمة، إن كرمك حطمها، ومتى قرأت هذه الرسالة فلن تستطيع أن تقول شيئاً، ولن تستطيع إلا أن تخفض رأسها.

- نعم، ولكن في هذه الحالة كيف يمكن التفاهم، وكيف أعرف رغباتها؟

- إذا سمحت لي بإبداء رأيي. قلت لك إن الأمر موكول إليك وأنك

الذي يجب أن تفكر في إنهاء هذا الموقف.

- إذن أنت تعتقد أنه يجب إنهاء الموقف؟! ولكن كيف؟! إنني لا أجد مخرجاً.

- بل يوجد مخرج من كل مأزق، إنك أردت ذات مرة أن تطلقها فإذا كنت تشعر بأن سعادتكما معاً لا تتحقق إلا...

فقاطعه كارنين:

- إن تعريف السعادة يختلف باختلاف وجهات النظر، ومع ذلك فإنني على استعداد للموافقة على أي شيء، ولا أريد شيئاً، فأي مخرج تقترح؟!

فأجاب أوبلونسكي، وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة:

- أعتقد أن هناك حلا يحتمل أن يلائم الموقف. إن العلاقة بينكما قد تطورت وتعقدت حتى باتت في حاجة إلى تصفية، وأعتقد أن هذه التصفية لا تكون إلا بالفراق.

فقال كارنين بامتعاض:

- هل تعني الطلاق؟!

- نعم.. أعتقد أن الطلاق هو من كل الوجوه أفضل حل لهذا الموقف المستحيل.

فتنهد كارنين، وأغمض عينيه.. قال أوبلونسكي:

- والمسألة الوحيدة الجديرة بالتفكير هي هل في نية أحدكما أن يتزوج مرة أخرى؟! فإن كان الجواب سلباً أصبح الطلاق من أيسر الأمور.

فغمغم كارنين بكلام غير مفهوم، ولم يجب.. لقد فكر ألف مرة فيما يراه أوبلونسكي الآن أمراً ميسوراً، ووجد أنه ليس فقط غير ميسور، ولكنه مُستحيل من عدة وجوه، فإنه لكي يصون شرفه، ويوفر على أنّا الفضيحة، يتعين عليه أن يضطلع بالمسؤولية، ويعترف على نفسه بخيانة زوجية لم يرتكبها، وفي ذلك ما فيه من المهانة لنفسه والحط من قدره، وهو من جهة أخرى لا يستطيع أن يلصق فضيحة الخيانة بالمرأة التي أحبها، وغفر لها، ثُم إذا حدث الطلاق فماذا يكون من أمر ولده؟!

مستحيل أن يتركه لأمه، فالمرأة المطلقة قد تنشيء لنفسها أسرة جديدة غير شرعية لا يصلح جوها لإنشاء ولده وتربيته؛ فهل يحتفظ بالغلام؟! ذلك يكون انتقاماً وهو لا يُريد أن ينتقم، وبدا له الطلاق مُستحيلاً من ناحية أخرى، رأى فيه خراب أنّا وضياعها إلى الأبد، وكانت كلمات داريا لا تزال ترنّ في أذنيه، وقد ربط بين هذه الكلمات وبين صفحه عن أنا، فوجد أن الطلاق معناه حرمان هذه المرأة التعسة من نعمة التوبة، وإقصاءها من طريق الفضيلة، فهي كامرأة زانية مُطلقة لا يجوز لها إلا أن تُعاشر فرونسكي معاشرة أثيمة غير شرعية، وقد لا ينقضي عام أو بعض عام حتى يهجرها فترتمي بأحضان رجل آخر.. نعم.. إنه عالج فكرة الطلاق ألف مرة؛ فلم يجدها من البساطة كما

يتصور أوبلونسكي، ورغم أنه كان في استطاعته أن يقنع أوبلونسكي بألف جواب مُفحم فإنه آثر الإصغاء والصمت، لأنه شعر بأن كلامه يُعبر عن تلك القوة الغاشمة التي تُسيطر على حياته، ويتعين عليه أن يخضع له.. كان أبلونسكي يقول:

- والمهم الآن، معرفة شروطك للموافقة على الطلاق، إن أنّا لا تريد شيئاً ولا تطلب شيئاً وتترك كل شيء لكرمك.

فصاح كارنين بقلب يتمزق:

- أواه يا إلهي.. هل استحققت كل هذا؟!

ودفن وجهه بين كفيه؛ فقال أوبلونسكي:

- إنك مضطرب الأعصاب، وإني أقدر موقفك، فإذا...

ولكن كارنين لم يكن يصغي إليه، كان يناجي نفسه بقوله: "من صفعك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، وإذا أخذ إنسان رداءك، فأعطه قميصك".

صاح بقوة:

- نعم.. سأضطلع بفضيحة الطلاق، بل وسأنزل كذلك عن ولدي.

وسار إلى النافذة، ووقف هناك لا يبدي حراكاً، ولا يحول وجهه يمنة أو يسرة؛ كيلا يرى أوبلونسكي دموعه، بيد أن شعوره بالمرارة كان

ممتزجاً في هذه اللحظة بشعور آخر هو لذة التضحية وإنكار الذات..

وقال أوبلونسكي بصوت يضطرب تأثراً وانفعالاً:

- يا أليكسيس كارنين، إنك رجل كريم، وسوف تقدر أنّا هذا الكرم.

أراد كارنين أن يقول شيئاً، فخنقته العبرات.. قال أوبلونسكي:

- هذه نكبة محزنة كان لا بد من مواجهتها، وقد نظرت إليها كحقيقة واقعة، وحاولت أن أساعدك وأساعدها..

وغادر أوبلونسكي غرفة كارنين وهو مُتأثر ومُنفعل.

***

وداخل غرفته اهتزت يد فرونسكي عندما أطلق النار على نفسه في ساعة يأسه وخزيه واضطراب عقله، فأصيب بجرح خطير، ولكنه لم يمت، وعندما فتح عينيه، واستطاع الكلام، وجد (فاريا) (زوجة أخيه) تُضمد جرحه، فقال لها:

- إن النار انطلقت قضاءً وقدراً يا فاريا، فلا تقولي غير ذلك لمن يسألك.

فطمأنته بابتسام لكنه قال:

- لا أريد أن يقول الناس أنني أطلقت النار على نفسي.

- لا أحد يقول ذلك، ولكني أرجو ألا تنطلق النار قضاءً وقدر مرة أخرى.

فابتسم بحزن ولم يُجب، ولما اندمل جرحه أحس بأنه قد غسل بدمه ما كان يشعر به من خزي وعار، وأنه يستطيع أن ينظر إلى الناس في وجوههم، بل وينظر في وجه كارنين دون أن يشعر من كرمه ونبله بالمذلة والهوان، شيء واحد لم يستطع انتزاعه من قلبه، رغم كفاحه ونضاله وذلك هو اليأس، لأنه فقد حب أنَّا... ووجد أنه قد كفر عن جريمته حيال الزوج، وأنه قد أصبح لزاماً عليه ألا يقف بعد الآن بينها وبين زوجها وتوبتها، ولكنه لم يستطع أن يمحو من قلبه حُبها، ولا أن ينسى اللحظات الهنيئة التي قضاها معها، وحدث أن عرض عليه منصب رفيع في (طشقند) فقبله في غير تردد، ولكن ما أن اقترب موعد الرحيل حتى أحس بفداحة التضحية التي وطن عليها النفس في سبيل الواجب؛ فراح يعد عدة الرحيل ويقول لنفسه:

- ليتني أراها مرة أخيرة. فلا يهمني إذا مت بعد ذلك.

عبر للأميرة بتسي عن أمنيته فسعت سعيها ونقلت له الجواب بالنفي فقال:

- هذا حسن، فلو رأيتها لذهبت شجاعتي، وضعفت عزيمتي.

ورفض فرونسكي المنصب الذي عُرض عليه في (طشقند) ولاحظ أن رؤساءه قد قطبوا حواجبهم لهذا الرفض فاستقال، وبعد أسبوع هجرت

أنَّا زوجها وولدها ورحلت مع عشيقها إلى إيطاليا، ليس فقط دون أن تحصل على الطلاق، وإنما كذلك بعد أن رفضت الطلاق رفضاً باتاً.

قضى فرونسكي وأنّا ثلاثة شهور في مختلف البلدان الإيطالية فزارا روما والبندقية ونابولي، وألقيا عصا الترحال أخيراً في إحدى المدن الإيطالية الصغيرة، ونعمت أنَّا في الفترة الأولى بعد خلاصها من زوجها بحياة حافلة بأسباب الهناء والمتعة، فلم تذكر زوجها، ولم تُسمم الذكريات سعادتها، أولاً لأن هذه الذكريات كانت تُخيفها فلا تجسر على التفكير فيها، وثانياً لأن السعادة التي كانت تنعم بها شغلتها عن النظر إلى الوراء، واستعراض الماضي بأهواله، وهكذا كانت تتراءى لها حياتها مع زوجها ومرضها وتوبتها وهجرها بيتها وولدها كحلم مُخيف استيقظت منه لتجد نفسها وحيدة مع فرونسكي، بعيداً عن كُل ما يذكرها بهذا الحلم، كذلك لم يُزعجها التفكير في الشقاء الذي جلبته على زوجها، وكانت إذا ذكرته، أحست بمثل الشعور الذي يحس به الإنسان إذا أشرف على الغرق، ودفع عن نفسه إنساناً آخر يُريد أن يتعلق به، حتى إذا وصل إلى شاطئ النجاة عرف أن الآخر قد غرق، إنه يشعر حينئذ بالأسف، ولكنه يُعزي نفسه بأنه اضطر أن يفعل ما يفعل لكي ينجو، وقد وجدت سبباً آخر للعزاء، فيما قالته لنفسها حين بدت لها تباشير السعادة:

- إنني السبب في شقاء هذا الرجل، ولكني لا أريد أن أزيد من نكبته، إنه خسر الشيء الكثير وأنا خسرت أعز ما تحرص عليه المرأة:

إنه يتألم، ويجب أيضاً أن أتألم، وأن لا أنعم بالسعادة كلها، فلا أطلب الطلاق، ولا أصر على المطالبة بولدي لتكون مهانتي وفرقتي عن ولدي كفارة عن خطيئتي، فأتعذب كما يتعذب هذا الرجل...

ولكن على الرغم من إخلاصها وصدق عزيمتها فإنها لم تتألم ولم تتعذب ولم تشعر بمهانة مركزها الجديد، ووجدت في طفلتها عزاء عن ولدها، وقد اشتدت رغبتها في الحياة بعد أن نجت من الموت، ووجدت نفسها وحيدة مع الرجل الذي تُحبه، والذي تضاعف حُبها له حين عرفته عن كثب، وامتزجت حياتها بحياته.. وقد راقها هندامه الجديد بعد أن طلق الجيش وتخلص من الثوب العسكري، فكانت تتطلع إليه في حب وشغف كما تتطلع لحبيبها فتاة في الثامنة عشرة من عُمرها. كانت تشعر بأن كل شيء فيه حسن ونبيل، وتحس بأنها دونه في كل شيء، وتحرص أشد الحرص على ألا تُطلعه على هذا الإحساس، حتى لا تفقد حُبه وهي التي لا تخشى شيئاً في الوجود كما تخشى فقدان هذا الحب.

أما فرونسكي فإنه على الرغم من أنه حقق كُل أمانيه وأحلامه فإنه لم يكن سعيداً كُل السعادة، وشعر بأن هذه السعادة التي ابتاعها بالآلام والمهانة ودفع مُستقبله وسُمعته ثمناً لها، ليست إلا ذرة من جبل الهناء الذي كان يتوقعه، وهداه هذا الشعور إلى الخطأ الذي يتورط فيه غالب الناس حين يتوهمون أن كل السعادة في تحقيق أمانيهم، وقد ارتاح في البداية، لتحرره من قيود الجيش والتزاماته، ولأنه كان ينعم بالحب بغير

عائق، ولكن هذا الارتياح لم يدم طويلاً فلم يلبث أن شعر بالفراغ الذي يملأ حياته، وبحاجته إلى أحلام جديدة يسعى إليها، ويعمل على تحقيقها، وكان من أشق الأمور عليه، أن يجد ما يشغله ست عشرة ساعة كل يوم، فانقض على أتفه وسائل التسلية انقضاض الوحش الجائع على فريسته، واهتم أولاً بالقراءة، ثم بالسياسة، ثم بالتصوير، وراح يقضي الساعات الطويلة أمام لوحة زيتية يرسم عليها صورة للفتاة الفرنسية التي اتخذتها أنَّا مربية لابنتها، وكانت الفتاة على شيء من الجمال؛ فحركت الغيرة في قلب أنا.. وكانت هذه الغيرة أول قطرة من المرارة في كأس سعادتها.

على أنه ما لبث بعد ذلك أن سئم التصوير، كما سئم القراءة والسياسة من قبل، ومل حياة الوحدة في المدينة الإيطالية الصغيرة، وشاركته أنَّا هذه الملالة، وصحت عزيمتهما على العودة إلى بطرسبرج..

منذ أحس كارنين وعلم من أوبلونسكي أن كل ما يراد منه هو أن يترك أنَّا وشأنها، استولت عليه الحيرة فلم يدر ماذا يجب عليه أن يفعل وترك مصيره بين أيدي أولئك الذين راقهم أن يضعوا أصابعهم في أدق شؤونه، ويمزقوا حياته العائلية.

ولكنه لم يشعر بالصعوبات التي تحيط به والأهوال التي تنتظره، إلا عندما جاءته المربية بعد رحيل أنَّا، وسألته عن الثوب الذي يجب أن يرتديه (سيرج) وعن الطعام الذي يجب أن يأكله. ولو أن زوجته هجرته

بعد أن اعترفت له بخطيئتها إذن لشعر بالألم والشقاء فحسب، أما الآن فإن ألمه وشقاءه قد أضيف إليهما شيء آخر، هو إحساسه بموقفه المعقد..

لم يكن في استطاعته أن يوفق بين صفحه عن زوجته وعطفه عليها، وحبه لابنتها التي ليست ابنته، وبين موقفه الحاضر حيث يجد نفسه وحيداً مهاناً لا يريده أحد ويحتقره الجميع.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنه حاول في اليومين التاليين بعد رحيل أنَّا أن يبدو هادئاً ثابت الجأش قليل الاكتراث، وعندما سأله الخدم عما يفعلون بغرفة أنَّا، بذل جهداً عظيماً للظهور بمظهر الرجل الذي لم يؤخذ في غرة بما حدث، ونجح في ذلك بقوة إرادته، فلم يلاحظ أحد عليه علامة من علامات اليأس والتخاذل..

ولكن حدث في اليوم الثالث أن حمل إليه سكرتيره قائمة بثمن ثياب كانت أنَّا قد ابتاعتها من أحد المحال، ونسيت دفع ثمنها، وقال له السكرتير أن صاحب المحل قد جاء بنفسه لمقابلته..

وسمح كارنين للرجل بالدخول، فدخل وحيا الوزير، وقال له باحترام:

- أرجو المعذرة عن إزعاجك يا صاحب السعادة، ولكني حاولت الاتصال بصاحبة السعادة زوجتك ولم أستطع، فهلا تكرمت بإرشادنا

إلى عنوانها الجديد؟

فبدا على كارنين كأنه يفكر، ثم دار على عقبيه فجأة، وجلس فوق مكتبه، ودفن رأسه بين يديه، وبقي كذلك وقتاً طويلاً لا ينبس بكلمة ولا يبدي حراكاً. ولاحظ السكرتير انفعال سيده؛ فأمر صاحب المحل أن يعود في وقت آخر..

وبقي كارنين وحده، وأدرك أن من المتعذر عليه أن يحتفظ طويلاً بمظاهر الهدوء والسكينة، فأمر السكرتير بألا يسمح لأحد بالدخول عليه، وحان وقت تناول الطعام فلم يخرج من غرفته. كان يفكر في أمره، ويعالج موقفه؛ فشعر بضجره من احتمال الاحتقار الذي تراءى له في وجه صاحب المحل، وفي وجه سكرتيره وفي وجوه جميع الذين قابلوه في الأيام الثلاثة الأخيرة، وأحس بأنه لا يستطيع أن يحول عن نفسه حقد الناس لأنه حقد لا ينبعث من شيء من صفاته الشخصية بقدر ما ينبعث من شعور الناس جميعاً بعاره الصارخ وفضيحته المقيتة.

علم أن الناس لن يرحموه، ولن يشعروا بالشفقة عليه لسبب واحد هو أنه رجل محطم القلب فهم يريدون قتله كما تقتل الكلاب زميلاً لها يئن من الألم والمرض، وعلم أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الناس هي أن يخفي عنهم جراحه الدامية، وقد فعل ذلك يومين كاملين، ولكنه شعر الآن بعجزه عن النضال، وضاعف يأسه شعوره بأنه وحيد في همومه وآلامه، وليس هناك من يُرفه عنه، ويُشاطره آلامه وهمومه، كإنسان، لا كموظف خطير.

كان بأيام سعادته يجد من حُبه لامرأته غناء عن صداقة الناس، فلما هجرته امرأته، أجال الطرف حوله فلم يجد صديقاً يفزع إليه، ويسكب بأذنه حديث يأسه وشقوته، وكان يعرف الكثيرين ممن يستطيع أن يدعوهم لتناول الطعام أو قضاء السهرة، ولكن ليس بينهم واحد يستطيع أن يسر إليه بمكنون صدره. استعرض كارنين أسماء أصدقائه وصديقاته، ونسي الكونتس ليديا إيفانوفنا، ولكن الكونتس لم تنسه، فإنها اقتحمت غرفته في ذلك اليوم، فوجدته جالساً على مكتبه تلك الجلسة المحزنة، ورأسه بين يديه.. قالت له بسرعة وبصوت ينم عن الانفعال:

- إن الخادم منعني من الدخول، ولكني دخلت عنوة.

ولم تنتظر جوابه، واستطردت:

- لقد علمت ما حدث يا أليكسيس كارنين..

- معذرة يا سيدتي الكونتس إنني لم أشأ أن أستقبل أحداً لأنني مريض..

فهمست: "مسكين أنت يا صديقي". واهتز ركن فمها، ورأى كارنين على وجهها علامات التأثر، وفهم أنها آسفة له حقاً، وأنها توشك أن تبكي رحمة به، قالت بصوت تخنقه العبرات:

- يجب ألا تسلم نفسك للحزن يا صديقي العزيز.. إن مصيبتك تجل عن العزاء، ولكنك سوف تجد السلوى.

فهتف كارنين بصوت مُحزن:

- إنني مُحطم، إنني مُهدم، إنني لم أعد رجلاً، إن موقفي مُخيف ولست أجد عوناً حتى من نفسي.

- مسكين يا صديقي.

- إنني لا أشعر بالأسف على فقدان شيء لم يبق له وجود، كلا ولكني لا أتمالك من الشعور أمام الناس بالخزي من موقفي، وقد يكون ذلك خطأ، ولكني لا أجد منه مفراً.

فقالت الكونتس بحماسة:

- إن ما أظهرت من نبل وكرم وإنكار ذات قد ملأ القلوب إعجاباً بك، فليس لك أن تخجل من عملك أو تندم عليه.

قطب كارنين حاجبيه واستطرد:

- يجب أن تعلمي جميع التفاصيل لتدركي مبلغ شقائي، إن للطاقة البشرية حداً يا كونتس، وقد بلغت طاقتي حدها الأقصى. وكأنما لم يُكفني ما عانيت وما أعاني، حتى يتعين على كذلك أن أهتم بأتفه الشؤون المنزلية، وأحدد أعمال الخادم والمُربية، والبستاني والوصيفة والطاهي، وهذه المشاغل الضئيلة قد أحرقتني، وليس في استطاعتي أن أحتمل المزيد، وبالأمس فقط نهضت عن مائدة الطعام، لأنني لم أطق نظرات ولدي، إنه لم يسألني معنى ما يرى، ولكن السؤال كان

يتحير في عينيه، فلم أطق نظراته الخائفة الذليلة المُتسائلة.

- رفه عنك يا صديقي، إنني أفهم كل هذا، وقد جئت الآن لكي أقف بجانبك في محنتك، فهل لك أن تترك لي أمر الاهتمام بهذه الشؤون المنزلية التافهة التي تحطم أعصابك؟ لابد للمنزل من امرأة تُديره وتُهيمن على شؤونه، فهل تكل إلى هذه المهمة.

فشد على يدها وهو يقول:

- إنني شاكر لك هذه المعونة يا كونتس.

فأجابت الكونتس بلهجة الورع:

- لا تشكرني، بل اشكر الله الذي أودع قلبك نعمة المغفرة والمحبة، فإنه وحده القادر على أن يهبك العزاء والسلوى.

الفصل الثالث عشر

كانت الكونتس مُنذ حداثتها ورعة تقية، وقد اقترنت في شبابها برجل من النبلاء الأغنياء، والنبلاء الأغنياء لا يقنعون من نسائهم بالتقوى والورع فما لبث زوجها أن هجرها بعد شهرين، ولم تدر المسكينة لماذا هجرها، وكيف هجرها، ولما يئست من عودته انتزعت حبه من قلبها، وأوقفت نشاطها على رعاية إحدى المؤسسات الدينية، وأخذت . بحكم رعايتها لهذه المؤسسة . تتصل بالعائلات الكبيرة وذوي الشخصيات المبرزة بالمجتمع الروسي، ونما في نفسها . بحكم هذا الاتصال . غرام بالمُبرزين والمبرزات والأمراء والأميرات.

فصارت تهيم حولهم، كما تهيم الفراشة حول الضوء، وكان أكثر هيامها حول كارنين، لأنه كان أشهر الجميع، وأبرزهم في المُحيط الرسمي، وأكثرهم ورعاً، وأكبرهم قلباً، فأحبته واحترمته، وفرحت في سرها للنكبة التي أصابته ومكنتها من الاتصال به.

في أحد الأيام، علمت أن فرونسكي وأنَّا كارنينا قد عادا إلى (بطرسبرج) فاضطربت ظهراً لبطن، وقررت فيما بينها وبين نفسها أن تبذل قصارى جهدها للحيلولة بين كارنين والمرأة التي قوضت سعادته وزلزلت مكانته في المجتمع، فراحت تعد عليهما الحركات والسكنات، حتى قيل لها: "إنهما يعتزمان الرحيل عن بطرسبرج إلى مزرعة فرونسكي"، وعندئذ فقط تنهدت الصعداء، واطمأنت إلى نجاة كارنين

من مُقابلة كانت جديرة بأن تُدمي جراحه، ولكنها فوجئت ذات يوم برسالة عرفت فيها خط أنّا كارنينا، ففضتها وهي تلهث من الانفعال، وقرأت فيها ما يلي:

"سيدتي الكونتس: إن شعور التقوى الذي أعلم أنه يملأ جوانب قلبك يُحفزني إلى الكتابة إليك، وأنا واثقة من أنك ستغفرين لجرأتي على إزعاجك. إن فراق ولدي يشعرني بشقاء تفهمه كل أم انتزع ولدها، فأضرع إليك أن تسمحي لي بلقائه مرة واحدة قبل رحيلي، ولقد توجهت إليك بهذه الضراعة بدلاً من أن أتوجه بها إلى أليكسيس كارنين لأنني أعرف صداقتك له، ولأنني لا أريد إيلام هذا الرجل الكبير القلب بتذكيره بنفسي، فهل تبعثين إلي بولدي؟! أو أذهب للقائه في بيت أبيه؟! أو أقابله في أي مكان آخر؟ إنني لا أنتظر رفضاً لأنني أعرف نبل الرجل الذي يتوقف عليه إجابة رجائي، وليس في استطاعتك أن تُدركي مبلغ حنيني إلى ولدي، وعلى قدر هذا الحنين سيكون شكري لك.. أنّا".

وقرأت الكونتس هذه الرسالة، وأعادت قراءتها، ثم أسرعت بها إلى كارنين في مكتبه، وكان الرجل في شغل ببعض أعماله الرسمية، فلما رآها ولاحظ انفعالها توجس شراً، وأحنى رأسه كمن يتأهب للطمة جديدة.. همس:

- ماذا وراءك يا كونتس؟؟

- يؤسفني أن أنقل إليك نبأ يؤلمك، أنت تعلم كم أود أن أجنبك

سائر الذكريات التي تزعجك، ولكن بعض الناس يريدون غير ذلك. لقد جاءتني رسالة منها إنها الآن في بطرسبرج

فرفع كارنين رأسه بحدة، ثم امتقع وجهه حتى أصبح كوجوه الموتى، وحرك يديه في يأس واستسلام، وغمغم:

- لقد كنت أتوقع هذا.

وتناول الرسالة، وقرأها، ولزم الصمت وقتاً طويلاً، ثم قال في شيء من الخجل:

- لست أرى من حقي أن أرفض سؤلها.

فهتفت الكونتس بحدة:

- يا صديقي.. إنك لا ترى الشر في أحد.

- على العكس، إنني أرى الشر في كل شيء، وفي كل إنسان، ولكني لا أظن أن من الإنصاف...

وكف عن الكلام، ونظر إليها كمن يطلب النجدة أو النصيحة فقالت:

- كلا إن لكل شيء حداً، إنني أفهم أن تتمرغ المرأة في أوحال الخطيئة، ولكني لا أفهم أن يقسو قلبها كل هذه القسوة، وعلى من؟! عليك أنت وإلا بالله لماذا عادت إلى هذه المدينة، بعد إذ أوشك

الناس أن ينسوا فضيحتها.

فرفع كارنين عينيه إلى السماء، وهمس:

- ولكن من ذا الذي يجرؤ على أن يرميها بأول حجر، إنني صفحت عنها، وغفرت لها.. وليس في وسعي أن أحرم عليها حب ولدها..

- هل هي تُحبه يا صديقي؟ وهل هي مخلصة في حبها له؟؟ أنا أعلم أنك صفحت عنها وغفرت لها، ولكن هل ترى من حقك أن توقع الاضطراب والريبة في نفس الطفل البريء؟ إنه يعتقد أنها ماتت، وقد أفهمناه أنها ماتت، وهو يصلي إلى الله من أجلها، ويبتهل إليه أن يغفر لها خطاياها، وذلك خير له ولها.

- إنني لم أفكر في ذلك.

- الرأي عندي ألا تسمح لها بمقابلته، إن وجودها يؤلم الغلام كما يؤلمك، ويدمي جراحه المندملة كما يدمي جراحك، إنها امرأة لا قلب لها، ولا أؤمن بأنها تدخر لولدها بقية من الحب والحنان، فإذا سمحت لي فإنني أرد على رسالتها في الحال.

ولم تنتظر جوابه، وتناولت القلم وكتبت ما يلي:

"سيدتي.. إن تذكير ولدك بك قد يحمله على إلقاء أسئلة يتعذر الإجابة عليها دون تدنيس ناحية مقدسة من نواحي شعوره، ولذا أرجو أن تقابلي رفض زوجك بروح التسامح، وليرحمك الله". الكونتس ليديا..

وقرأ كارنين الرسالة، ولم يوافق عليها، ولم يعترض، ولكنه لم يشأ أن يشعر صديقته بضعفه، فسمح لها بإرسالها، بيد أنه عجز في ذلك اليوم عن أداء واجبه وعمله..

كان يعلم أن هذا الرفض سيدمي قلب أنا؛ فشعر بالندم ووخز الضمير، وجرى ذهنه على الرغم منه إلى علاقاته السابقة بزوجته، والأخطاء التي ارتكبها، ولم يسعه إلا الاعتراف بأنه ساهم بسلوكه الشاذ في إسقاطها وساهم في ذلك بصمته عن خطيئتها حين اعترفت بها، وبالرسالة التي بعث بها إليها في ذلك الوقت، وبصفحه الذي لم يكن أحد بحاجة إليه وأخيراً بحنانه على طفلة ليست طفلته. تذكر كل هذه الأخطاء، وشعر بالخجل والندم.

وصل فرونسكي وأنَّا إلى بطرسبرج، ونزلا في أفخم فنادق المدينة وأقام فرونسكي بمفرده في غرفة مستقلة في الطابق الأول، واحتجز لأنَّا والطفلة والمربية جناحاً خاصاً في الطابق الثاني، وكان أول شيء فعله فرونسكي عقب عودته أنه ذهب لزيارة أخيه فوجد والدته هناك، وكانت قد جاءت من موسكو لبعض شؤونها، ورحبت به والدته وفاريا، وسألتاه عن رحلته بأوروبا، وعن أصدقائهما الذين قضوا الصيف في الخارج، ولكنهما لم تذكرا كلمة واحدة عن أنَّا وصلته بها، أما أخوه فإنه سأله عن هذه الصلة، وأجابه فرونسكي في صرامة أنه يعتبرها صلة دائمة كالزواج، وأنه سيتدبر معها أمر الزواج لكي يتسنى له أن يقترن بها، ولكنه ينظر إليها الآن كزوجته، وطلب إليه أن يقول ذلك لوالدته ولزوجته فاريا،

واستطرد:

- إذا برم الناس بنا فإنني لا أعبأ بهم، ولكني لا أغفر لأهلي أن يتنكروا لنا، وإذا أرادت أسرتي الإبقاء على ما بيننا من صلة القرابة تعين عليها أن تنظر إلى أنَّا كزوجتي..

وكان الأخ الأكبر يعطف عليه ويحترم آراءه، ولكنه لم يقطع في هذه المرة بخطئه أو صوابه، وآثر أن يترك الحكم للمجتمع..

والواقع أن فرونسكي وهو البعيد النظر الخبير بشؤون المجتمع، قد تورط في غلطة لا تغتفر حين توهم أن المجتمع سيرحب به وبعشيقته فبدلاً من أن يفهم أن هذا المجتمع قد أغلق أبوابه دونهما إلى الأبد، راح هو يعقد الآمال الواسعة على تطور الرأي العام والنظريات الاجتماعية..

ولكنه ما لبث أن وجد أن المجتمع ربما استقبله بشيء من الفتور، ولكنه لا يمكن أن يستقبل أنا بتاتاً.. وقد كانت الأميرة بتسي أول سيدة قابلها عقب عودته فهتفت بسرور عندما أبصرت به:

- هأنذا قد عدت أخيراً.. وأنّا!! يسرني كثيراً أن أراك... أين تقيم الآن؟! لا شك أن بطبرسبرج تبدو كئيبة في نظرك بعد رحلتك المُمتعة، وكيف قضيتما شهر العسل في روما؟! والطلاق.. ماذا تم فيه؟!

ولاحظ فرونسكي أن حماستها فترت، عندما علمت أن أنَّا لم تطلق

من زوجها، وقالت:

- سأذهب لزيارتها، وأضرب بكلام زميلاتي عرض الأفق.

وزارت أنَّا في اليوم التالي؛ فكانت زيارة فاترة في جو من الزيف والرياء، وحرصت بتسي في كلامها على المباهاة بجسارتها، لأنها كانت أول من زار أنَّا، ولم يستغرق لقاؤهما أكثر من بضع دقائق.. دار الحديث في خلالها حول شؤون لا أهمية لها إلى أن قالت بتسي:

- إنك لم تحدثيني عن طلاقك!! أنا شخصياً لا أعبأ بهذه الإجراءات الشكلية، ولكن هناك كثيرات أخشى أن يتنكرن لك، إلى أن تكتسب صلتك بفرونسكي صبغة شرعية، ومهما يكن من أمر فإن إجراءات الطلاق في هذه الأيام متناهية في البساطة، وإذن في نيتكما الرحيل يوم الجمعة إلى مزرعة فرونسكي؟! حقاً إن هذا يؤسف له، لأنني لن أتمكن من رؤيتك مرة أخرى قبل رحيلك.

فهم فرونسكي من لهجة بتسي، ماذا ينتظر أنَّا إذا فكرت في الاندماج في المجتمع، ولكنه أراد أن يقوم بمحاولة بين أهله وأقاربه، ولم يفكر في والدته بطبيعة الحال؛ فقد كان يشعر بنفورها من أنَّا لاعتقادها أنها كانت سبباً في ضياع مستقبله في الجيش، ولذلك اتجه بنظره وآماله إلى الأميرة فاريا زوجة أخيه .فهذه على الأقل لن ترمي أنَّا بالحجارة، وسترحب حتماً بزيارتها واستقبالها في بيتها..

وبهذا الأمل ... ذهب فرونسكي إلى بيت فاريا وصارحها برغبته

... فأجابته في حياء:

- أنت تعلم كم أحبك وأحترمك يا أليكسيس، وكيف أرحب بكل شيء في سبيلك، ولعلك لاحظت أنني وقفت منذ البداية موقف المتفرج لأنني لا أستطيع أن أقيدك أو أقيد أنَّا كارنينا، ولكني أعتقد أنه ليس أجدى من الصراحة، ومن تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية.. أنت تريدني أن أزور أنّا، وأستقبلها في بيتي، وأساعدها على العودة إلى المجتمع، ولكني لا أستطيع شيئاً من ذلك، لأن لي بنات يجب أن أحرص على مستقبلهن، ولي زوج يجب أن أحترم صلته بالناس..

وعلى فرض أنني ذهبت لزيارة أنَّا؛ فإنها تفهم حق الفهم أنني لا أستطيع أن أستقبلها في بيتي، وأنني إذا استقبلتها تعين علي ألا أجمع بينها وبين الذين ينظرون إلى أمرها بعين أخرى، وفي ذلك إهانة لها وخدش لشعورها. ثم إنني لا أستطيع بحال أن أرفعها إلى....

فقاطعها فرونسكي بمزيج من الغضب والأسى:

- ولكني لا أرى أنها انحدرت إلى أدنى من كثيرات ممن تستقبلينهن في بيتك.

نهض واقفاً فصاحت فاريا:

- بالله لا تحنق عليَّ يا أليكسيس فليس الخطأ خطئي.

فأجاب بحزن:

- إنني لست حانقاً عليك يا فاريا، ولكن ألمي مزدوج، لأن ذلك يفصم العلاقة بيننا، فإن لم يفصمها فلا أقل من أن يضعفها..

وتركها وانصرف، وأدرك فرونسكي أن من العبث أن يقوم بأية محاولة في ناحية أخرى، وأنه أصبح لزاماً عليهما أن يعيشا غريبين في بطرسبرج بضعة الأيام الباقية، وأن يجتنبا أصدقاءهما إبقاءً لكرامتهما وحرصاً على شعورهما.

وأصبح مركز فرونسكي في بطرسبرج لا يطاق عندما خيل إليه أنه يرى كارنين في كل مكان، ويسمع اسمه على كل لسان.. كان مثله في ذلك مثل ذي الإصبع المريضة الذي يخيل إليه دائماً أنه يضرب إصبعه عمداً في كل شيء يصادفه.. ومما ضاعفت شقاءه أنه رأى من غرابة أطوار أنَّا في تلك الفترة العصيبة ما أشعره بأنها تكتم عنه أمراً يزعجها. كانت تبدي له الحب تارة وتزوّر عنه تارة أخرى، وتقضي الوقت في أكثر الأحايين ساهمة مفكرة صامتة ولا يبدو عليها أنها تشعر بمركزه الذي لا يطاق، وهو الذي ألف منها دقة الحساسية وسرعة الملاحظة وبعد النظر...

وكانت أنا قد رحبت بالعودة إلى بطرسبرج بحافز من حنينها إلى ولدها وشوقها إلى رؤيته، فلم تكف طيلة السفر عن التفكير في المقابلة المنتظرة وإعداد نفسها لها..

ولما اقترب بها القطار من بطرسبرج خفق قلبها بشدة، كما لو

كانت ستجد ولدها في استقبالها على أفريز المحطة، ولم تفكر كيف تعمل على مقابلته؛ فقد كانت ترى من الطبيعي جداً، والبسيط جداً، أن تقابل ولدها ما داما يعيشان تحت سماء مدينة واحدة، ولكنها ما كادت تصل إلى بطرسبرج وتشعر بمركزها غير الطبيعي، حتى أدركت أن مقابلة ولدها ليست من السهولة كما توهمت..

وقضت في بطرسبرج يومين لم تكف في خلالهما عن التفكير في ولدها دون أن تخطو خطوة في سبيل لقائه.. كانت ترى أنه ليس من حقها أن تقصد تواً إلى بيت كارنين لترى ولدها؛ فإنها قد تقابل كارنين هناك، وقد يمنعها الخدم من الدخول

ورأت من المؤلم لنفسها أن تكتب إلى زوجها أو تتصل به، ومن المؤلم لقلبها أن تترصد ولدها في الطريق وتقابله خلسة مقابلة خاطفة..

كانت قد أعدت نفسها لهذه المقابلة وأعدت كلاماً كثيراً تقوله لابنها وقبلات كثيرة تطبعها على جبينه وعينيه وفمه ويديه الصغيرتين؛ فالمقابلة على قارعة الطريق لا تقنعها ولا تشبعها..

وأخيراً علمت بالدور الذي تلعبه الكونتس ليديا إيفانوفنا في بيت زوجها فكتبت إليها تلك الرسالة التي كلفتها كثيراً من كبريائها وكرامتها وعزة نفسها وحرصت على أن تنوه في الرسالة بنبل زوجها وكرمه، حتى إذا وقعت رسالتها بين يديه تعذر عليه أن تنوه في الرسالة بنبل زوجها وكرمه، حتى إذا وقعت رسالتها بين يديه، تعذر عليه أن يفعل ما يناقض

صفات النبل والكرم. وانتظرت الرد بقلق وفارغ صبر وتلقته بمزيج من الألم وخيبة الأمل، وضاعف ألمها أنها احتملته وحدها ولم يشاطرها فيه أحد.

كانت قد كتمت سعيها عن فرونسكي خوفاً من أن يقابل رغبتها في لقاء ولدها بالاستهتار وقلة الاكتراث، وهو لو فعل لكرهته وهي تخشى أن تكرهه لأنه الوحيد الذي بقي لها..

بيد أن رد الكونتس إذا كان قد آلمها في البداية فإنه لم يلبث أن أثار حنقها وسخطها فصاحت:

- يا للقساوة، إنهم يريدون تحطيم قلبي وإيلام الغلام، ولكني لن أرضخ لإرادتهم

كان اليوم التالي هو يوم ميلاد (سيرج) فقررت أن تذهب تواً إلى بيت زوجها، وأن ترشو الخدم والخادمات أو تخدعهم، وأن تقابل ولدها مهما كلفها ذلك، وقصدت إلى حانوت لبيع لعب الأطفال فابتاعت كمية من اللعب ووضعت خطتها..

قررت أن تضع على وجهها نقاباً وتذهب إلى بيت كارنين في ساعة مبكرة قبل أن يكون زوجها قد استيقظ من نومه، وترشو البواب والبستاني وكبير الخدم ليسمحوا لها بالدخول، وتزعم ـ دون أن ترفع النقاب عن وجهها ـ أنها قادمة من لدن أحد أقارب الأسرة لكي تهنئ الغلام بعيد ميلاده وتقدم إليه بعض الهدايا..

وفي الصباح أنقذت خطتها ووقفت بمركبتها أمام البيت وقرعت الجرس فأقبل البواب، وقالت له وهي تدس قطعة نقود في يده:

- أريد أن أرى سيرج.. سيرج أليكسيس كارنين..

ودخلت، ونظر البواب إلى قطعة النقود في دهشة، ثم لحق بها وهو يهتف:

- ماذا تريدين يا سيدتي..

ولكنها لم تسمعه، ولم تجبه، واستمرت في طريقها إلى الداخل فقابلها رئيس الخدم ولاحظ اضطرابها، فسألها في أدب:

- ماذا ترومين يا سيدتي؟!

- إنني قادمة من لدن البرنس سكوردوبوف، لمقابلة سيرج أليكسيس كارنين..

فقال كبير الخدم وهو يصعدها بعينيه:

- ولكنه لا يزال في فراشه..

لم تتوقع أنًّا أن يترك منظر الردهة في نفسها ذلك الأثر العميق الذي أحست به، وكان كل شيء في الردهة على حاله كما تركته، وكما ألفته طيلة الأعوام الثمانية التي قضتها مع كارنين، فأثار ذلك بنفسها جمهرة من الإحساسات والذكريات، بعضها سار، وبعضها مؤلم وكاد

التأثر أن يُنسيها الغرض من قدومها وقال كبير الخدم وهو يُساعدها:

- **هل لك بالانتظار قليلاً يا سيدتي؟!**

ما أن رفع معطفها عن منكبيها ونظر إليها مرة أخرى، حتى عرفها رغم القناع السميك الذي يخفي ملامحها فأحنى قامته باحترام وقال بصوت خافت:

- **تفضلي يا مولاتي.**

فأرادت أن تتكلم فخانتها قوة النطق، ورمقت الخادم العجوز في ضراعة، ثُم وثبت إلى السلم، وراحت ترقى درجاته بسرعة، وتبعها الخادم العجوز وهو يلهث ويقول:

- **من هنا يا مولاتي؟! معذرة عن هذه الفوضى يا مولاتي.. ألا تتفضلين بالانتظار هنا حتى أخطر سيدي الصغير؟**

لكنها لم تسمع، ولم تنتظر، وراحت تعدو نحو غرفة ولدها وهي تصيح:

- **دعني أراه.. دعني أراه..**

فتحت الباب ودخلت، فوجدت الغلام جالساً في فراشه يتثاءب، فهمست وهي تدنو منه بخطوات الهرة: "سيرج". التهمته بعينيها. "يا إلهي، كيف هزل جسمه، وطال ساعداه، واتسعت عيناه، وقصر شعر

رأسه، ولكنه لا يزال هو.. هو.. هو..

- سيرج؟؟

نظر إليها الغلام طويلاً، وكأنه لا يُصدق عينيه، ثُم عرفها، وابتسم، وألقى بنفسه بين ساعديها... غمغمت:

- سيرج.. يا ولدي..

- أماه ...

راح يتقلب بين ساعديها وعلى كتفها، وينقل إليها من جسده تلك الحرارة المُمتعة التي لا يملكها إلا الأطفال، ويقول:

- هذا يوم ميلادي، وكنت أعلم أنك ستأتين.

والتهمته أنَّا بعينيها، ومست رأسه ووجهه وساقيه وساعديه، وكل مكان في جسده، ولاحظت كم تغير في غيبتها، وكم هزل

- لماذا تبكين يا أمي؟

فأجابت وهي تبتلع دموعها:

- أنا لا أبكي.. أنا أبكي سروراً... إنني لم أرك منذ وقت طويل.. لم أرك منذ أجيال.. كلا.. أنا لا أبكي.

ثُم سيطرت على نفسها وقالت:

- أظن أنه قد آن لك أن ترتدي ثيابك.

وجلست على مقعد بجانب الفراش، دون أن تفلت يده من يدها، وقالت:

- كيف ترتدي ثيابك دون مساعدتي؟ كيف؟.

- إنني الآن لا أغتسل بالماء البارد، قال أبي إنني لا يجب أن أغتسل بالماء البارد، ولكنك قد جلست فوق ثيابي يا أماه.

وقهقه ضاحكاً، فنظرت إليه وابتسمت، فهتف بصوت يذهب بين الفرح والبكا:

- أواه يا أمي الصغيرة..

وألقى بنفسه بين ساعديها مرة أخرى، وقال وهو يرفع القبعة عن رأسها:

- إنك لست بحاجة إلى هذه.

لما رآها عارية الرأس، كما اعتاد دائماً أن يراها راح يُقبلها كأنه لم يعرفها إلا في تلك اللحظة، سألته:

- هل كُنت تذكرني، هل اعتقدت أنني مت؟!

- قالوا لي أنك مت، ولكني لم أصدقهم.

- لم تصدقهم يا ولدي العزيز ... الصغير.

- نعم ... كنت أعلم إنك لا تموتين .

وتناول يدها، وألصقها بشفتيه، وفي هذه اللحظة فُتح الباب وأطل منه كبير الخدم، ولكن أحداً لم يشعر به، وتردد الخادم العجوز لحظة، ثُم أغلق الباب بسكون مرة أخرى وقال وهو يُجفف دموعه:

- سأنتظر عشرة دقائق أخرى.

ولكنه لم يستطع أن يمنح الأم والابن كل هذه المهلة لأنه ما لبث أن سمع صوت كارنين، ووقع خطواته، ففتح الباب بسرعة، وهمس في أذن أنّا كلاماً، فاحمر وجهها، ثُم امتقع، وضمت الغلام لصدرها وهي تغمغم: "ولدي العزيز".

ولم تجسر على النطق بكلمة (وداعاً) ولكن الغلام قرأها في عينيها وفهم، وقالت:

- أنت سوف لا تنساني.. أليس كذلك يا سيرج... أنت..

ولم تزد، ما أكثر الكلام الذي أعدته في ذهنها في الليلة السابقة، وما قبلها لكي تقوله له!! ولكنها الآن لا تعلم ماذا تقول، ولا تجد القدرة على الكلام، بيد أن الطفل فهم كل ما كانت تريد أن تقوله له.. فهم أنها شقية، وأنها تحبه، بل وفهم أنها وأباه لا يجب أن يلتقيا.. فهم ذلك من همسات كبير الخدم، ومن نظرة الخوف والخزي التي ارتسمت

في عينيها، حين همس كبير الخدم في أذنها.. ولكنه كان يعلم أنها لم تفعل ما يستوجب خوفها وخزيها.

وأراد أن يلقي عليها سؤالا، بل عشرات الأسئلة فيزيل الشكوك التي تساوره ولكنه لم يجسر، ورأى أنها تُعاني، وأسف لها، وألصق نفسه بصدرها، وغمغم:

- **لا تذهبي.. إنه لم يأت بعد.**

فنظرت إليه لترى إن كان يفهم ما يقول، وأدركت من نظراته الخائفة المتسائلة أنه يفهم، وأنه يتكلم عن أبيه، وأنه يُريد أن يسألها كيف يجب أن يكون شعوره نحوه، وقالت له:

- **أحببه يا سيرج، فإنه أنبل مني وأكرم، وأنا وحدي الملومة، سوف تكبر وتفهم وتحكم.**

فصاح في يأس، والدموع تُبلل خديه:

- **لا يوجد من هو أكرم منك يا أماه.**

- **يا ولدي الصغير العزيز.**

وبكت بكاء الأطفال. قالت:

- **قد انتهى كل شيء، وأصبحت وحيدة كما كُنت.**

وجلست إلى جانب الموقد دون أن تخلع قُبعتها، وراحت تنظر إلى ساعة على الجدار ولا تراها، وجاءت وصيفتها الإيطالية وسألتها عما إذا كانت تريد أن تخلع ثيابها، فنظرت إليها في دهشة، وأجابت: "فيما بعد..."

وحمل إليها الخادم القهوة فقالت : "فيما بعد". جاءتها المُربية الفرنسية بطفلتها الصغيرة، فحملتها وتأملتها، وكان من المُستحيل أن تنظر لوجهها الصغير، دون أن تبتسم، فابتسمت، وقبلتها، ولكنها أحست بأن كل ما تشعر به نحو هذه الطفلة لا يمكن أن يُسمى حُباً إذا قيس بشعورها نحو (سيرج)، وكانت الطفلة وديعة وظريفة، ولكنها لسبب ما لم تكن تُحبها كما أحبت، وكما تُحب ولدها سيرج، ولعل ذلك لأنها رُزقت بها في ظروف مؤلمة، أو لأنها تراها في كل وقت، ولا ترى ولدها سيرج. وأعادت الطفلة إلى المُربية وصرفتهما، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها مجموعة صور، وراحت تتأمل صور (سيرج) في مُختلف سنى حياته، ووقع بصرها ضمناً على صورة فرونسكي، فتذكرته لأول مرة في ذلك النهار، وتذكرت أنه علة شقائها، وقالت في ضجر وعتب:

- ولكن أين هو؟ ولماذا يتركني وحيدة.. فريسة الهم؟!

ونسيت أنها لم تُحدثه عن زيارتها، وأنه لا يعلم بهمومها، فأرسلت تدعوه إليها، وانتظرته بفروغ صبر، وعاد الخادم يقول لها أنه بغرفته مع أحد أصدقائه، وأنه سيصعد إليها في الحال إذا سمحت له بمرافقة صديقة البرنس ياشفين، فقالت لنفسها:

- إذن فهو لا يريد أن يأتي وحده، لكي أحدثه بكل شيء.

وفجأة خطر لها خاطر غريب: ماذا لو فتر حُبه لها، واستعرضت في ذهنها حوادث الأيام الأخيرة، ووجدت في كل منها ما يُؤيد الخاطر، فهو مثلاً قد أصر على الإقامة وحده في غرفة خاصة ولم يتناول الطعام معها في اليوم السابق وهو الآن يرفض أن يُقابلها بمفرده، ولعله يخشى أن تسأله حساباً عن حركاته وسكناته؛ فقالت تُحدث نفسها:

- لكن يجب عليه أن يُصارحني بأنه لا يُحبني، لكي أعرف ماذا أصنع...

ولكنها لم تعرف ماذا تصنع، واستبد بها الوهم، وركبتها الوساوس؛ فقرعت الجرس، وأرسلت وصيفتها لاستدعائه..

انتقلت للغرفة المجاورة وراحت تصلح من هندامها وزينتها لكي تبدو أجمل مما رآها بكل وقت، ولما عادت لغرفة الاستقبال، وجدت فرونسكي وياشفين ولاحظت أن الأول يتأمل صور ولدها، وكانت قد نسيتها فوق المنضدة، وأنه لم ينظر إليها في الحال كما اعتاد أن يفعل كلما رآها مقبلة، وقالت وهي تضع يدها الصغيرة في قبضة ياشفين:

- أظن أننا قد تقابلنا مراراً قبلاً بميدان السباق.

ابتسم البرنس بلطف، وقبل يدها.. قالت:

- إنني أعرفك، وأعرف ميولك وذوقك، وأعلم أن لا هم لك إلا اقتناء

الجياد.

فأجاب البرنس ضاحكاً:

- يؤسفني أن أعلم ذلك؛ فإن ذوقي غاية في الرداءة..

وقصدت أنا إلى حيث كان فرونسكي، واختطفت صور ابنها بشيء من الخشونة وهي تقول:

- دعني أحتفظ بها..

ثم تحولت للبرنس ياشفين وسألت:

- هل تنوي البقاء طويلاً في بطرسبرج؟

- بل سأبرحها غداً إلى موسكو.

فقال فرونسكي:

- إذن يجب أن تتناول معنا طعام العشاء الليلة..

فأجاب ياشفين:

- لا أظن أنني أستطيع قبول هذه الدعوة؛ فإن في نيتي شهود (أميليا باتي) في مسرح الأوبرا..

فهتفت أنَّ:

- (أميليا باتي)!! لقد قيل لي أنها من أبرع الراقصات.

- إذا لم تكوني على موعد آخر؛ فإنني أستطيع أن أحجز لك مقصورة في مسرح الأوبرا لرؤيتها..

فبرقت أسارير أنَّا وأجابت:

- هذه في الحق فرصة طيبة لقضاء سهرة ممتعة أنني أقبل إنما بشرط..

- وهو؟!

- أن تتناول معنا طعام العشاء..

- حسنا.. اتفقنا..

أصغى فرونسكي لهذا الحديث، ونظر إلى أنَّا في دهشة، وسأل نفسه:

- تُرى هل في نيتها حقاً أن تذهب إلى (الأوبرا)؟ حيث لا بد أن تجد سائر أصدقائها وصديقاتها القدماء؟!

كان فرونسكي قد وعد صديقه بمرافقته لشهود جياده الجديدة فانصرفا معاً، ولما عاد فرونسكي وجد أنَّا تعنى بزينتها وقد ارتدت ثوباً من الحرير الشفاف مزيناً بالقطيفة يكشف عن صدرها وساعديها ويبرز فتنة وجهها وجمال عنقها وصدرها؛ فسألها وهو يحول عينيه عنها ولا

ينظر إليها:

- هل في نيتك الذهاب إلى الأوبرا حقاً؟

فأجابت، وقد ضايقها أنه لم ينظر إليها:

- ولماذا تسأل بهذا الصوت الذي ينم عن الذعر؟؟ وهل ثمة ما يمنعني من الذهاب إلى الأوبرا؟؟

فقطب حاجبيه وأجاب:

- كلا طبعاً.

فتجاهلت تهكمه وقالت:

- وذلك رأيي أيضاً.

وظلت تتجمل وترتب زينتها أمام المرآة؛ فقال ليردها إلى صوابها كما حاول زوجها من قبل أن يفعل:

- بحق السماء يا أنّا.. ماذا طرأ عليك؟

- أنا لا أفهم سؤالك.

- أنت تعلمين أنه ليس لك أن تذهبي؟

- لماذا ؟ ثم إنني لن أذهب بمفردي، فقد أرسلت إلى عمتي الأميرة

بربارا وسوف تأتي معي..

ولكنه هز كتفيه، وقال وهو ينظر إليها في يأس:

- ولكن ألا تعلمين..

فصاحت بضجر:

- أنا لا أريد أن أعلم، لا أريد.. أتعتقد أنني أعض بنان الندم على ما فعلت، كلا.. ولو بدأت حياتي من جديد لأقدمت مرة أخرى على ما فعلت. المهم بالنسبة إلينا معاً.. أنا وأنت هو أن نُحب بعضنا بعضاً، وأنا لا أقيم وزناً لأي اعتبار غير هذا، وأسألك، لماذا أردت أن تعيش بمعزل عني في ذات الفندق الذي أقيم فيه؟! ولماذا لا ينبغي علي أن أذهب إلى الأوبرا؟ إنني أحبك، ولا يهمني إلا...

هُنا لمعت عيناها ببريق لم يستطع تأويله، وأكملت عبارتها:

- ولا يهمني إلا أن تحبني، وألا يتحول قلبك عني.. لماذا لا تنظر إليَّ؟!

فنظر إليها، ورآها بكل فتنتها وسط الإطار الحريري الأنيق الذي يُحيط بجسدها، وقال بصوت خافت فيه حزن وفيه ضراعة:

- أنت تعلمين أنني أحبك، وأن قلبي لن يتحول عنك، ولكني أرجوك ألا تذهبي.. أتوسل إليك.

ولكنها لم تسمع صوته، ولم تفطن لرجائه، وإنما فطنت فقط للنظرة الحادة الباردة التي ارتسمت في عينيه؛ فأجابت في ضجر:

- أرجوك أن توضح لي لماذا لا ينبغي أن أذهب..

- لأن ذلك قد يجر عليك..

وحار فيما يجب أن يقوله.. وأجابت أنَّا:

- إنني لا أفهمك على الإطلاق، إن البرنس ياشفين رجل محترم حسن السمعة، والأميرة بربارا ليست أسوأ الناس، ووجودي معهما لا يجب أن يضايق أحداً.. آه... ها هي الأميرة بربارا.

كانت تلك أول مرة أحس فيها فرونسكي بالغضب من أنَّا لإصرارها على تجاهل موقفه، واشتد غضبه وحنقه لسبب آخر، وهو عجزه عن مصارحتها لكيلا يخدش شعورها، ولو قد طوعت له نفسه أن يُصارحها، إذن لقال لها:

"إن ظهورك في دار الأوبرا بهذا الثوب الخليع وبصحبة هذه الأميرة التي يعلم الناس جميعاً أنها تأكل على كل مائدة، ليس فقط بمثابة الاعتراف بمركزك، كامرأة ساقطة، لا تجد لنفسها رفيقة مُحترمة ولكنه كذلك تحد للمجتمع، معناه للخروج منه إلى الأبد".

ولكنه لم يجد الجرأة على مصارحتها؛ فقال لنفسه في ضجر:

- ولماذا لا تفهم من تلقاء نفسها.

انصرفت أنّا في صُحبة الأميرة بربارا، والبرنس ياشفين، وبقي فرونسكي في غُرفته بالفندق فراح يذرعها جيئة وذهاباً ويحدث نفسه بقوله:

- نحن اليوم في الشهر الثاني من الموسم، وهذه أولى حفلات (إميليا باتي)، ولا شك أن المسرح سيكون مزدحماً بجميع أصدقائنا، وسيكون هناك أخي وزوجته، وربما والدتي أيضاً.

وسار أمام الشرفات في الدهليز الأيسر، ورآه أحد أصدقائه الضباط، فصاح مُرحباً:

- أهذا أنت يافرونسكي؟ ما أعجب مظهرك في هذه الثياب.. لقد يخيل إلى الناظر إليك أنك من رجال السياسة أو الفن أو الأدب

فابتسم فرونسكي ولم يجب، ورفع منظاره إلى عينيه. قال الضابط
:

- مما يؤسف له أنك لم تشهد الفصل الأول.

لم يبحث فرونسكي عن مقصورة أنَّا فقد عرف موضع هذه المقصورة من تحول الأنظار إليها، وكانت هي المقصورة الخامسة في الطابق الثاني، وقد جلست أنَّا في مقدمتها بين بربارا وياشفين، ورآها في تلك اللحظة وهي تهمس كلاماً في أذن ياشفين الذي انحنى باحترام

ليصغى إليها.

ورأى اتزان رأسها الجميل بين كتفيها العاجيتين، ولاحظ الوهج العجيب الذي يتألق في عينيها. وتذكر ليلة أن رقص معها في موسكو لم يترك جمالها في نفس الأثر الذي تركه ليلتئذ، وكانت فتنتها في تلك الليلة يحوطها نوع من الغموض البديع. أما الآن بعد إذ لم يبق بينهما خفاء أو غموض، وبعد أن عرف كل دقيقة في جسدها، ومس كل جارحة من جوارحها، فقد بدا له جمالها صاخباً مخزياً مهيناً.

لم تكن أنّا تنظر إليه في تلك اللحظة، ولكنه كان واثقاً من أنها رأته، ولاحظ فرونسكي في ذات الوقت أن وجه الأميرة بربارا شديد الاحتقان، وأنها تضحك ضحكة مصطنعة، وتنظر من وقت لآخر إلى المقصورة المجاورة.. وأما أنّا فإنها بعد أن همست في أذن ياشفين، أشاحت بوجهها لكيلا ترى، أو لأنها لا تُريد أن ترى ما يحدث في المقصورة المُجاورة، وأما ياشفين، فكان ممتقع اللون زائغ البصر يفتل شاربه بحركة عصبية كما اعتاد أن يفعل وهو يضع آخر نقوده على طاولة الميسر

ونظر فرونسكي إلى المقصورة المجاورة لمقصورة أنَّا، ورأى فيها الكونت كارتازوف وزوجته، وكانت الزوجة واقفة، وظهرها نحو أنَّا، وهي ممتقعة الوجه، وشفتاها تتحركان بسرعة، ويداها تشيران ذات اليمين وذات اليسار وكل حركة من حركاتها وكل نظرة من نظراتها تدل على الغضب والانفعال والاشمئزاز.

وراح كارتازوف يتحدث إلى زوجته في رفق كأنما ليرفه عنها ويهدئ من ثورتها، وهو لا يكف طول الوقت عن اختلاس النظرات إلى أنَّا، ولعله كان يرجو أن تتحول إليه؛ فيعتذر إليها ويحني لها قامته احتراماً.

ولاحظ فرونسكي أن أنَّا تشعر بنظراته وتتجاهله عمداً. ثم انصرفت الكونتس كارتازوف مغضبة، وتبعها زوجها الكونت، وبقيت مقصورتها خالية.

ولم يفهم فرونسكي ماذا يمكن أن يكون قد حدث بين أنَّا والكونتس كارتازوف، ولكنه شعر بأن ما حدث كان شيئاً مهيناً ومذلاً لأنَّا.

شعر بذلك حين رأى وجه أنا وتألق عينيها وأحس بأنها تبذل قصارى جهدها للاحتفاظ بهدوئها وسكينتها، وقد نجحت في ذلك إلى أبعد حدود النجاح، فلم يبد عليها شيء من دلائل الاهتياج والانفعال..

وكان أولئك الذين لا يعرفونها ولم يسمعوا حديث النساء عنها ولم يلاحظوا اشمئزازهن أو دهشتهن من جرأتها على الظهور بينهن والظهور في هذا الثوب الذي يفضح فتنتها ويلفت إليها الأنظار. أولئك الذين لا يعرفونها ولم يسمعوا أحاديث النساء عنها لم يسعهم إلا الإعجاب بما يبدو لهم من جمال هذه المرأة وفتنتها ونبلها ورزانتها، ولم يخطر ببال أحدهم أن في أعماقها جحيماً، وأنها تشعر بما يجب أن تشعر به امرأة ترجم بالحجارة.

أحس فرونسكي إذن بأن شيئاً ما قد حدث، ولم يعرف طبيعة هذا الشيء. فشعر بالقلق وضيق الصدر، وقصد إلى مقصورة أخيه، لعله يجد عنده الخبر اليقين، ومر في طريقه بجماعة من الضباط كانوا يتحدثون في الدهليز. وخيل إليه أنه سمع في حديثهم اسم (كارنين)، ولكن أحد الضباط رآه، فصاح بسرعة كأنما لينذر زملاءه بالسكوت:

- آه، فرونسكي، متى ستأتي لزيارتنا بالفرقة؟ يجب أن نؤدب لك مأدبة فخمة.

فأجاب فرونسكي ضاحكاً:

- إنني رهن إشارتك، ولكن ليس الآن بطبيعة الحال.

وحيا زملاءه، وانطلق لمقصورة أخيه، وهناك رأي فاربا ووالدته، وصديقة لها تُدعى الكونتس سوروكين، ورحبت به فاريا واستقبلته بباب المقصورة، وشدت على يده، وانطلقت في الحال تتحدث إليه في الموضوع الذي يشغل ذهنه أكثر من سواه، ولم يرها قط أشد انفعالاً مما كانت في تلك اللحظة.. قالت:

- هذا مؤلم ومثير للاشمئزاز.. لم يكن من حق الكونتس كارنازوف أن تفعل ذلك.. إن مدام كارنينا...

فقاطعها:

- ولكن ماذا حدث؟ أنا لا أعلم.

- ألم تسمع بما حدث؟

- أنت تعلمين أنني آخر من يقال له شيء في هذا الصدد.

- إنني لم أر امرأة أسوأ من هذه الكونتس كارتازوف.

- ولكن ماذا فعلت؟

- لقد قال لي زوجي أنها أهانت مدام كارنينا، لأن زوجها الكونت حيا هذه الأخيرة فردت أنَّا تحيته.

والظاهر أنها قالت لها عبارة مهينة بصوت مرتفع، ثم تركت مقصورتها وانصرفت، وفي هذه اللحظة نظرت الكونتس سوروكين إلى باب المقصورة وقالت تحدث فرونسكي:

- يا كونت.. إن والدتك تريد التحدث إليك.

وقالت له أمه وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة:

- لقد كنت أتوقع قدومك.. إنني لا أراك إلا نادراً..

ولاحظ فرونسكي أنها لا تكاد تقوى على إخفاء ارتياحها.. قال لها ببرود:

- طاب مساؤك يا أماه.. إنني جئت خصيصاً لتحيتك.

- لماذا لا تذهب إلى مدام كارنينا، إنها أوجدت هنا جواً صاخباً

وشغلت الناس بنفسها عن (إميليا باتي).

فقطب حاجبيه وأجاب:

- لقد رجوتك ألا تتحدثي إليّ في هذا الصدد يا أماه..

- إنني لم أقل لك إلا ما يقوله سائر الناس.

فلم يُجبها، وتبادل مع الكونتس سوروكين بعض عبارات المجاملة وغادر المقصورة، وهو يشعر بأن من الواجب عيه أن يفعل شيئاً، أي شيء.. كان حانقاً على أنَّا، لأنها أوقفت نفسها ذلك الموقف الحرج، ومُشفقاً عليها لما تُعاني من ألم ومذلة، وذهب إلى مقصورتها، ووجدها تتحدث لياشفين، فحياها بإحناء قامته، وشد على يد زميلها، وابتسم للأميرة بربارا. وقالت له أنَّا بتهكم:

- أظن أنك جئت متأخراً؛ ففاتك أبدع جانب من البرنامج.

فلم يجب ورأى قفازها على الأرض فالتقطه وقدمه إليها فهمست "شكراً لك".

واضطرب صفاء وجهها الجميل، وخُيل لفرونسكي أنها ستنفجر باكية، ولكنها ملكت نفسها بقوة إرادة خارقة، وألقت معطفها على منكبيها، وغادرت المقصورة والمسرح دون أن تتلفت يمنة أو يسرة. وانتظر فرونسكي لنهاية الفصل الثاني، ثُم عاد للفندق، فوجد أنّا قد سبقته، ورآها جالسة في غرفتها تنظر إلى الجدار ولا تُبدي حراكاً،

وكانت لا تزال مُرتدية ثوبها ومعطفها وقبعتها؛ فأحس بقلبه يتمزق رحمة بها وإشفاقاً. همس: "أنَّا..." فصاحت: "كل هذا بسببك.. بسببك أنت" وبكت يأساً وخزياً وحنقاً. قال:

- ولكني توسلت إليك ألا تذهبي، لقد كنت أعلم أن موقفك لن يرضيك.

فصاحت:

- لن يرضيني!! إنني كنت في جحيم، ولن أنسى هذا الموقف ما حييت. لقد قالت لي أن الجلوس بالقرب مني عار وإهانة..

- إنها امرأة حمقاء لا ينبغي أن يقام لها وزن، ولكن الخطأ خطؤك.. لماذا تستهدفين...

فقاطعته:

- إنني أمقت سكينتك، أنت الذي دفعت بي إلى هذا، لو أنك كُنت تحبني حقاً إذن...

فهتف عاتباً: "أنَّا..."

- نعم.. لو أنك كنت تحبني وتشاطرني آلامي، وشقوتي إذن.

نظرت إليه في جزع، وأشفقت على مصيرها من غضبه ونفوره. فصمتت ولم تُتم عبارتها، وفي اليوم التالي رحلا إلى مزارع فرونسكي.

أتت دارياً تقضي بضعة أسابيع مع كاترين وزوجها ليفين في مزرعة هذا الأخير حين علمت ذات يوم بوجود أنَّا والكونت فرونسكي في أملاك الكونت بتلك المنطقة، فقررت بدافع من وفائها لأنّا وعطفها عليها وفضولها لمعرفة حياتها الجديدة، أن تذهب لزيارتها وصممت على رأيها رغم اعتراض ليفين، واستنكار كاترين، وفي أحد الأيام امتطت جواداً من جياد ليفين، وقامت برحلتها في حراسة أحد الخدم، ووصلت إلى أملاك فرونسكي بعد ثلاث ساعات؛ فقال لها الخدم إن الكونت وأنَّا قد خرجا للنزهة بجواديهما وأرشدوها للطريق التي سلكاها، ولحقت بهما (داريا) والتقت بهما في الغابة التي اعتاد العشيقان الصيد فيها، ودهشت أنَّا حين أبصرت بها، ولم تُصدق عينيها، وألقت بنفسها عن ظهر جوادها وأرغمتها على الترجل، وضمتها إلى صدرها، ودموع الفرح تملأ عينيها، وبعد أن سكن جأشها قدمتها إلى فرونسكي وقدمت فرونسكي إليها، وعاد ثلاثتهم على الفور ليتناولوا طعام الغداء.

وكان فرونسكي يسير بجواده في المُقدمة، وأنّا وداريا تُتبعانه على مسافة بضعة أمتار، والخادم الذي جاء برفقة داريا يسير في أثر الجميع، وفي أثناء الطريق لاحظت أنّا أن داريا تنظر إليها خلسة، وتُطيل النظر، فقالت لها في صرامة:

- لا شك أنك تنظرين إليّ، وتتساءلين عما إذا كُنتِ سعيدة، فماذا رأيت؟! يُخجلني أن أقول لك إنني أسعد امرأة في الوجود، وإنني كمن يستيقظ من حلم مُخيف، فيرى الشمس تُشرق على وجهه، ولا يجد

أثراً للأشباح المزعجة التي تراءت له في حلمه...

فابتسمت داريا وأجابت:

- يسرني أن أعلم ذلك، ولكن لماذا لم تكتبي إلي؟!

- لماذا؟!.. لأنني لا أجسر..

وتنهدت وأردفت:

- هل نسيت مركزي؟

فهتفت داريا:

- لم تجسري على الكتابة إلي!! إليّ أنا!! أنت تعلمين أنني أحبك مهما يكن مركزك، إن الإنسان إذا أحب شخصاً فإنه يحبه لنفسه وكما هو لا كما يريده أن يكون.

فحولت أنّا وجهها، وفكرت، وفهمت معنى هذا الكلام. قالت:

- إذا كنت قد ارتكبت خطيئة فسيغفر لك الله خطاياك من أجل هذه الزيارة، ومن أجل هذا الكلام.

اغرورقت عيناها بالدموع ولاحظت داريا ذلك، فقالت لتُغير مجرى الحديث:

- ما هذه الأبنية الصغيرة؟

- هذه هي بيوت المزارعين، وقد شيدناها منذ أقمنا هنا، وهذه حظائر الماشية، وهذا البناء المرتفع هو مستشفى الولادة الذي شيدته خصيصاً لنساء الفلاحين.

- يا إلهي.. ما أجمل كل هذا.. إنك جعلت من المزرعة فردوساً للجميع.

فابتسمت أنّا بكآبة ولم تجب.

في اليوم الثالث، عاد ثلاثتهم من نُزهتهم اليومية في الغابة، وكان على أنّا أن تتفقد مستشفى الولادة قبل أن تتناول الطعام وعرضت على داريا أن ترافقها، فقال فرونسكي:

- يخيل إليَّ أن الأميرة داريا متعبة، وربما كان من الخير لها أن تعود.. فاذهبي أنت إلى المستشفى، ودعيني أرافقها إلى البيت.

فدُهشت داريا، ونظرت لفرونسكي، وكانت مُتعبة حقاً، ولكن لم يخطر لها أن تعتذر، والتقت عيناها بعيني الكونت، وفهمت أنه يريد أن يخلو بها. قالت:

- الحق أنني متعبة، ويسرني أن أعود.

ما أن ابتعدا، ونظر فرونسكي وراءه، وأيقن أن أنَّا قد توارت داخل المستشفى حتى لمعت عيناه وقال:

- لا شك أنك فهمت أنني أريد التحدث إليك، فإنك كما أرى، أو في صديقات أنَّا وأكرمهن عليها وأحبهن إليها.

ونزع قبعته فانكشفت عن رأس أصلع قد دب فيه الصلع وراح يجفف جبينه المتصبب عرقاً، ولزمت داريا الصمت، وجعلت تنظر إليه خلسة بشيء من الرهبة والجزع، قال:

- نعم. إن لك عند أنَّا مكانة ونفوذك عليها كبير وهي مولعة بك! فساعديني عندها.. ساعديني.

وكان وجهه قلقاً، مُتلهفاً، فيه تساؤل ورجاء، ولبثت ساكنة لا تُجيب، وكانت تترقب أن يُزيد شيئاً على ما قال، ولكنه سار إلى جانبها صامتاً لا يتكلم، ثُم تحول إليها وقال:

- إنك بين صديقات أنّا القديمات، الوحيدة التي جاءت لزيارتنا وإني واثق أنك لم تفعلي ذلك عن شعور بأن موقفنا سليم مجرد عن الشوائب، وإنما لأنك تدركين المتاعب التي تكابد، ولأنك ما زلت مُقيمة على حبها؛ فجئت تبذلين لها من حبك، وتشجعينها بعطفك

فغمغمت:

- هذا صحيح، ولكن...

ولكنه قاطعها:

- كلا، الواقع أنه ليس هناك من يلمس متاعب أنّا كما ألمسها! وهذا طبيعي، إلا إذا أنكرت عليّ أن بين جنبيَّ قلباً يحس ويشعر، إنني مصدر هذه المتاعب، ومن أجل هذا ينبغي أن أكون أول يلمسها ويدركها!!

أعجبت داريا بصراحته وصدقه، وقالت:

- إني أفهم ما تعني، ولكني أخشى أن تكون مُبالغاً مُسرفاً في تقدير مسؤوليتك، إني أعرف أن مركزها في الهيئة الاجتماعية محفوف بالمصاعب، ولكن...

- بل إنه جحيم لا يطاق..!

ومشى في جبينه خط من الألم والعذاب، وأردف:

- مستحيل أن تتصوري عذاباً نفسياً أقسى أو أشد وطأة مما عانت خلال الأيام التي قضيناها في بطرسبرج..

- وماذا يضيركما ما دمتما لا تشعران بحاجة إلى المجتمع؟

ثم أردفت وهي تبتسم:

- لقد قرأت في عيني أنَّا أنها سعيدة، وقد كاشفتني بذلك.

ولكنها ـ ولسانها يجري بهذه الكلمات ـ خالجتها الريب والشكوك في صدق ما تقول:

- ترى هل كانت أنًا سعيدة حقاً؟

فقال على عجل:

- نعم.. نعم.. إنني أعلم! أنها سعيدة هانئة.. في الوقت الحاضر على الأقل، ولكنني لست بالهانئ السعيد! إنني أخاف المستقبل وأحسب له ألف حساب. لقد جمعت بيننا رابطة لا تنفصم مدى الحياة! ولنا طفلة، وقد نرزق أطفالاً آخرين، ومع ذلك فمركزنا القانوني والاجتماعي حافل بالمصاعب والمشاكل.. إنها في الوقت الحاضر في غمرة من أحزانها وعذابها، فطبيعي ألا تُدرك هذه المشاكل.. أما أنا فأدركها وألمسها، إن الطفلة في نظر القانون ليست طفلتي، وإنما طفلة كارنين، وهذا زيف أمقته وأزدريه، وفي مستقبل الأيام قد نرزق ابناً! ابني! ولكنه سيكون بحكم القانون ابن كارنين ولن يحمل اسمي أو يرث أملاكي!!.. ومهما كنا سعداء في حياتنا العائلية، ومهما رُزقنا من أولاد، فسنظل غُرباء لا تجمع بيننا جميعاً رابطة شرعية؛ فتصوري ما في مثل هذه الحياة من حرج وألم!! وقد حاولت أن أتحدث إلى أنّا في هذا الصدد ولكني أشفقت أن يؤلمها حديثي، أو أن تُسيء تأويله، والآن تدبري الموقف من الناحية الأخرى، إنني سعيد، سعيد بحبها، ولكني في حاجة إلى عمل أؤديه.. وقد وجدت عملاً في مزرعتي، إني فخور به، وأراه أشرف مما يتولاه رفاقي في البلاط أو في الجيش... ولكن... ولكن ما الفائدة من أن أكد وأكدح، وأواصل الليل بالنهار في العمل، وليس لي وريث يحمل

اسمي، ويواصل عملي

وتنهد وجفف العرق المُتصبب على جبينه واستطرد:

- ذلك حالي، وهو حال رجل يعلم سلفاً أن كل ولد يرزق به من المرأة التي يحبها لن ينسب إليه. وإنما ينسب إلى رجل آخر. رجل سوف يبغض هذا الولد، ويزدريه، ولا يضمر له من الرحمة والحنان قليلاً أو كثيراً. إنها محنة لا تطاق، وإنني في الحق أتعس رجل في الوجود

وكف عن الكلام، وظهرت على وجهه النبيل علامات التأثر والانفعال؛ فقالت داريا:

- إنني أفهمك.. إنني أفهمك تماماً، ولكن ماذا في استطاعة أنَّا أن تفعل؟!

- آه.. ذلك هو غرضي من الحديث، إن باستطاعتها أن تفعل أشياء كثيرة، في استطاعتها أن تطلب الطلاق، وتتبنى طفلتها. لقد أبدى زوجها موافقة على الطلاق، وأعتقد أنه لن يتراجع الآن. ولكنه يطالب فقط بأن تبدي أنّا رغبتها في الطلاق في رسالة تبعث بها إليه.

وصمت لحظة ثم استطرد:

- وهذا طبعاً لون من ألوان التعذيب النفساني يلجأ إليه هذا الرجل، فهو يعلم أن مجرد ذكر اسمه يؤلمها ويريد الإمعان في إذلالها وإيلامها بإرغامها على الكتابة إليه. وأنا أعلم أنها ستعاني عذاب

الجحيم إذا كتبت إليه، ولكن يقابل هذا العذاب من ناحية أخرى سعادتها وسعادة أولادها.. ولست أتحدث عن نفسي، وإن كنت أتعذب كما لم يتعذب رجل من قبل، ولكن الشيء الوحيد الذي يعنيني هو أنّا وأولادي. ومن أجل هذا ألجأ إليك يا سيدتي الأميرة مستنجداً متوسلاً، ملتمساً منك المعونة على إقناع أنّا بوجوب الكتابة إلى زوجها.

فأجابت داريا وقد شرد لبها:

- طبعاً.. طبعاً.. بلا شك.

- أرجو أن تتوسلي إلى ذلك بنفوذك كله، فأنت وحدك التي تستطيعين إقناعها، أما أنا فلا أرغب، ولا يسعني التحدث إليها في هذا الشأن.

- نعم.. نعم.. سأتحدث إليها وأقنعها.. يا إلهي.. كيف لم تفكر في ذلك من تلقاء نفسها؟!

الفصل الرابع عشر

عندما حل المساء كانت داريا تهم بالرقاد، حين فتح باب غرفتها ودخلت أنّا، وكانت أنّا قد شرعت مراراً أثناء النهار بأن تحدثها في شؤونها الخاصة وفي كل مرة كانت تكف عن الحديث وتقول:

- سوف أحدثك بكل شيء فيما بعد، حين أخلو إليك وها قد تحققت الخلوة المنشودة

ولكن أنّا لم تجد ما تقوله، جلست بالقرب من النافذة، وراحت تنظر إلى داريا، وتحاول أن تنبش في ذهنا كنوزاً من الأسرار كانت تظنها دفينة فيه، ولكنها لم تجد شيئاً يمكن أن يقال. وتنهدت. وسألت فجأة:

- وكيف حال كاترين؟ لا شك أنها ناقمة عليّ.

فأجابت داريا وعلى شفتيها ابتسامة:

- ناقمة عليك!! كلا..

- إذن فهي تبغضني وتحتقرني؟

- كلا يا عزيزتي كل ما هنالك أن الإنسان لا يغتفر مثل هذه الأمور بسهولة.

فأرسلت أنّا بصرها من خلال النافذة، وقالت:

- ومع ذلك فإن الذنب ليس ذنبي، ولا أدري في الحق على من يقع اللوم، ولكن هل كان ممكناً أن تتبدل المصائر وتنتهي الأمور إلى غير ما انتهت إليه؟! حدثيني هل كان ممكناً مثلاً ألا تصيري زوجة لستيفان؟!

- لا أدري، ولكن بالله.. أما حدثتني عن نفسك؟!

- طبعاً.. طبعاً.. ولكننا لم نفرغ بعد من حديثنا عن كاترين. فهل هي سعيدة؟

- يقال: إن زوجها كريم ونبيل.

- إنه خير رجل قابلته في حياتي..

- يسرني أن أعلم هذا...

فابتسمت داريا وقالت:

- والآن.. ألا تحدثينني عن نفسك؟ إن لدي ما أقوله لك. لقد كنت أتحدث إلي.. أعني إلى الكونت فرونسكي.

- لأليكسيس؟ لقد توقعت هذا، ولكن صارحيني، ما رأيك في، وفي حياتي؟

- كيف أجيب على هذا السؤال فوراً، والجواب ليس حاضراً في الذهن؟ الحق أنني لا أعلم.

- كاشفيني برأيك على كل حال، ها أنت ترين أي نوع من الحياة أحيا وسط هذه الحقول الهادئة، والغابات الصامتة، وبين الفلاحين البسطاء المخلصين.

- الحق أنها حياة هنيئة سعيدة لا أرضى بغيرها بديلاً، ولكن تصوري أي عذاب أكابد حين يرحل لشأن من شؤونه ويتركني وحدي؟

- إن ذلك يحدث كثيراً، وأعماله المُتشعبة تتطلب منه أن يقضي نصف وقته بعيداً عني،

وتحركت في مكانها بقلق واستطردت:

- وليس في استطاعتي أن أحمله على البقاء في البيت بالرغم منه فإذا جرت جياده في السباق ذهب ليشاهدها وإذا أخرجت الأرض غلتها أشرف بنفسه على بيعها وإذا.. ولكن هل أستطيع أن أرده؟ إن الوحدة تقتلني ولكن ينبغي مع ذلك أن أروض نفسي على الصبر.

ثم هزت كتفيها بقلة اكتراث واستطردت:

- ولكن دعينا من هذا.. ماذا قال لك أليكسيس عني؟

- إنه حدثني بما كنت أنوي أن أتحدث به إليك، ولهذا لا يصعب عليَّ أن أتولى الدفاع عن آرائه، ولقد دار الحديث بيننا عما إذا كان يمكن، عما إذا لم تكن هناك صعوبة..

وحارت كيف تعبر عما يدور بخدلها، ثم تشجعت وقالت:

- عما إذا يمكن أن نصلح.. أعني أن نصحح موقفك.. أنت تعلمين رأيي، ولكن لا شك أن من الأصوب أن تتزوجا..

فقالت أنَّا في هدوء:

- ومعنى هذا أن أطلب الطلاق؟!

وصمتت لحظة ثم أردفت:

- هل تعلمين أن الأميرة بتسي فيدروفنا كانت السيدة الوحيدة التي جاءت لزيارتي في بطرسبرج؟! أنت تعرفينها طبعاً.. إنها أشد النساء تبذلاً واستهتاراً، وقد اتخذت من دون زوجها عشيقاً، ومع ذلك لم تجد غضاضة في أن تنذرني بأنها لن تزورني أو تتصل بي ما بقيت في هذا المركز الشاذ! فهل سمعت بمثل هذه القحة؟ ولكن لنعد إلى حديثنا ماذا قال لك أليكسيس؟

- قال لي: إنه يتعذب من أجلك، ومن أجل نفسه، وقد تقولين أن هذا ضرب من الأنانية، ولكني أرى أنها أنانية نبيلة، إنه يريد أن تنسب إليه ابنته وأن يصبح لك زوجاً وأن تجمع بينكما صلة شرعية..

فقالت أنّا في مرارة وحزن:

- ولكن.. أية زوجة ... بل أية أم تخلص له مثل إخلاصي وتتفانى في حبه كما أتفانى؟!

- ولكنه لا ينشد إلا أن يمحو هذا العذاب الذي تكابدين..

- هذا مستحيل..!

- ويريد ألا ينشأ أولادك مجهولين بغير اسم أو لقب..

ففكرت أنًّا، وشرد بصرها، وهمست:

- وكيف يمكن ذلك؟

- بالطلاق.. قيل لي إن زوجك قد وافق على الطلاق.

- داريا.. إنني لا أود أن أتحدث في هذا.

ورأت داريا على وجه أنًّا مسحة من الألم فقالت:

- إذن فلندع هذا الموضوع، ولكن يخيل إلي أنك تنظرين إلى الحياة نظرة ملؤها اليأس.

- هذا غير صحيح..! إنني على النقيض جذلة مرحة.

ثم استطردت فجأة وقد شاعت في صوتها نبرة غريبة:

- داريا... تقولين أنني أنظر إلى الأمور في يأس! إنك لا تستطيعين أن تدركي حقيقة موقفي! إنه لا يطاق! والواقع أني أحاول أن لا أنظر إلى الأمور على الإطلاق.. أحاول أن أنسى، وأن أتجاهل!

- ولكن ينبغي أن تتدبري الموقف على وجهه الصحيح، وأن تنشدي

العلاج الممكن!

- وهل ثمة علاج ممكن؟ تقولين إنه ينبغي أن أقترن بأليكسيس. فهل لم أفكر في هذا!

وصمتت وعادت تكرر:

- هل لم أفكر في هذا؟ إنني لا أفكر إلا فيه ليل نهار، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟! أن أطلب الطلاق؟! إن أليكسيس يعلم أن زوجي قد لا يوافق. إن إرادته اليوم رهينة بإرادة الكونتس ليديا إيفانوفا.

- ومع ذلك.. لماذا لا تحاولين؟!

- لنفرض جدلاً أنني حاولت، وأنني وطئت كبريائي في الأوحال وكتبت إليه راجية متوسلة. فماذا يكون؟! أحد أمرين: إما أن أتلقى منه رسالة تفيض بعبارات الزجر والإهانة. وإما أن أتلقى موافقته.. ولنفرض أنه وافق على الطلاق.

وصمتت وهي تلهث، ثم أردفت:

- لنفرض أنه وافق على الطلاق. فهل الطلاق هو كل شيء؟؟ وولدي؟؟ إنهم لن يتركوه لي، ولسوف يحتفظون به في بيت الرجل الذي هجرته، وينشؤونه على احتقاري وازدرائي. ويجب أن تفهمي أنني لا أحب في الوجود إلا شخصين. شخصين اثنين أحبهما أكثر من نفسي، هما سيرج وأليكسيس، فكيف أطيق فراق ولدي وقطيعته؟

وهل يعزيني عن فقده أن يكون أليكسيس إلى جانبي؟ نعم.. إنني لا أحب سوى هذين المخلوقين، ولكن ليس في وسعي أن أجمع بينهما، وإن كنت لا أتمنى من دنياي غير هذا. وسيان عندي كل شيء ما دمت لا أستطيع تحقيق هذه الأمنية. ولا تنحي علي باللائمة يا داريا، فإنك في طهارتك ونقاوتك وراحة بالك لا تستطيعين أن تدركي مبلغ شقائي وألمي. ولا تحتقريني كذلك، فإنني لا أستحق احتقاراً، إنني امرأة منكودة، وليس في هذه الدنيا أشقى ولا أتعس مني..

وسارت نحو الباب، وهي تئن وتبكي..

بعد أسبوع من رحيل داريا أوبلونسكايا، أعلن فرونسكي أنّا بعزمه على السفر للاشتراك في الانتخابات العامة لمجلس المقاطعة، وأعلن ذلك بلهجة قاطعة أشعرت أنّا بأن لا جدوى من إقناعه بالعدول عن عزمه. فقررت فيما بينها وبين نفسها أن تتذرع بالصبر وأن تستعين على وحدتها بالشجاعة.

ولما رحل، فكرت في اللهجة الصارمة التي أعلن بها عزمه، ولكنها راحت تعزي نفسها بقولها:

- أليس من حقه أن يفعل ما يشاء، وأن يرحل متى شاء؟ ولكن تلك اللهجة الجافة الصارمة؟ أليست دليلاً على نفوره وفتور عاطفته؟

ثم أرادت التخلص من وساوسها وأوهامها؛ فراحت تشغل نفسها بكل صغيرة وكبيرة في البيت والحديقة والمستشفى، وإذا أقبل الليل

عمدت إلى (المورفين) لتخدير أعصابها، والتخلص من سهادها وأرقها، ولكن كل ذلك لم يمنعها من التفكير في أمرها، وفي أمر الصلة بينها وبين فرونسكي. وقد هداها التفكير إلى أن أفضل وسيلة للاحتفاظ بعشيقها ومنعه من هجرها. هي أن تطلب الطلاق وتقترن به، وصحت عزيمتها على ذلك، وقررت أن تفاتح فرونسكي بالأمر في أول فرصة.

وانقضت خمسة أيام، ولم يعد فرونسكي، وفي اليوم السادس خطر لها أن تلحق به، ثم عادت فقنعت بالكتابة إليه، وزعمت في رسالتها أن الطفلة مريضة مشرفة على الموت، وأنها ترجوه أن يعود في أقرب وقت، ولكنها ما كادت تبعث بالرسالة حتى ندمت، وأشفقت على نفسها من غضبه متى علم بأنها كذبت لكي تحمله على العودة.. ثم قالت لنفسها: "بحسبي أن يعود.."

وفي مساء اليوم السابع عاد فرونسكي فخفت لاستقباله، وهي تشعر بمزيج من الغبطة والحيرة، ولا تعلم كيف تبرر كذبتها.. سألها حين وقع بصره عليها: "والطفلة؟!"، فأجابت: "إنها بخير.." وأنت، وشد على يدها فأجابت: "كعهدك بي.."

وتناولا الطعام معاً، وسرد فرونسكي بعض القصص عن الانتخابات، واطمأنت أنّا وهدأ روعها، فسألت:

- حدثني بصراحة.. ماذا خطر لك عندما قرأت رسالتي؟

- أيقنت أن الطفلة بخير.

ابتسم؛ فأدركت أنه صفح عنها. قالت:

- وهل غضبت؟

- كلا.. إنما أغضبني أنك لا تريدين الاعتراف بأن هناك واجبات تقتضي.

فقاطعته في ضحر:

- أية واجبات؟ غشيان المراقص والملاهي؟

- كلا يا صديقتي.. هناك واجبات لا يستطيع الإنسان أن يغفلها من ذلك مثلاً أن شؤون أملاكنا تحتم علي السفر إلى موسكو غداً. فهل أقبع في عقر داري، وأضرب بمصالحنا عرض الأفق؟ كلا يا أنَّا. لماذا تعذبين نفسك هكذا بالأوهام والوساوس.. أنت تعلمين أنني لا أستطيع أن أحيا بدونك..

ولكن أنَّا لم تسمع عبارته الأخيرة، ولم تفهم إلا أنه ينوي الرحيل في اليوم التالي، فقالت بحدة:

- كلا.. كلا.. إذا كان لا بد لك أن تعود اليوم لترحل غداً. أو إذا كنت قد سئمت هذه الحياة..

- لا تكوني قاسية هكذا يا أنَّا.. أنت تعلمين أنني على استعداد

للتضحية بكل شيء في سبيلك.

- إذا ذهبت إلى موسكو غداً؛ فإنني أذهب معك. إنني لا أستطيع الإقامة هنا وحدي.. إما أن نعيش معاً، وإما أن نفترق ليس أحب إليّ من أن أقضي معك ما بقي لي من أيام في هذه الحياة، ولكن ذلك يقتضيك أن.

- أن أطلب الطلاق!! حسناً... سأفعل ذلك... وسأكتب إليه. ولكن هذه الحياة لا تطاق.. وسأذهب معك إلى موسكو غداً.

فقال وهو يبتسم:

- ولماذا تقولين ذلك بلهجة التهديد.. قلت لك أنه ليس أحب إلى من أن أقضي معك كل لحظة من لحظات حياتي.

ولكن نظرته الصارمة كانت تناقض صوته الرقيق. كانت في عينيه نظرة من يريد أن يقول: "يا للشقاء!" ورأت أنّا هذه النظرة وفهمت معناها، ونهضت لساعتها فكتبت إلى كارنين تضرع إليه أن يوافق على الطلاق، وفي اليوم التالي رحلا معاً إلى موسكو.

ليس هناك ما يعقد أتفه الأمور كسوء التفاهم بين الزوجين، وقد أصبح سوء التفاهم بين أنّا وفرونسكي جرحاً دامياً لا يندمل أبداً. وعلى الرغم من أنه لم تنشأ بينهما خصومة خطيرة، إلا أن قلق أنا وتذمرها، وإلحاحها الدائم في طلب إيضاح عن جميع حركات فرونسكي وسكناته،

كل ذلك جعل حياتهما معاً عبئاً ثقيلاً لا يطيقانه، وزاد الطين بلة في تلك الفترة العصيبة من حياتهما ظهور عامل جديد لم يحسب له فرونسكي حساباً، وذلك هو غيرة أنّا، والواقع أن أنّا كانت تجد في كل امرأة تتحدث إلى عشيقها، أو يتحدث عنها عشيقها منافساً يهدد سعادتها بالزوال. وقد هيأ فرونسكي لهذه الغيرة غذاء وصب عليها بترولاً دون أن يشعر، وذلك أنه كان يتكلم عن والدته ذات يوم، فاتهمها بفساد الذوق وقصر النظر، وذكر عرضا أنها تحاول إقناعه بالاقتران بابنة الكونتس سوروكين.

وهكذا، عندما طالت إقامتهما في موسكو، راحت تتهمه في سرها بأنه يتسكع في موسكو عامداً ليظل على اتصال بوالدته، وبالكونتس سوروكين، وأثار كل ذلك حفيظتها عليه، وأدمى جروحها القديمة، فرأت فيه علة شقائها وخزيها وفضيحتها وسبب آلامها وفرقتها عن ولدها..

على أن ذلك لم يمنعها من النظر إلى الأمور بعين الحكمة والرزانة في بعض الأحيان، وعندئذ كانت تقول لنفسها: "إن غيرتي الخرقاء تنخر سعادتي.. وتسمم حياتنا.. ومتى صفا الجو بيننا وجب أن أقترح عليه العودة إلى المزرعة، وهناك نعيش في هدوء وسلام.. نعم.. إن غيرتي لا مبرر لها، فهو لا ينفر مني، من المستحيل أن ينفر مني، ومن المستحيل أن ينسى أنني ضحيت بولدي من أجله"

وحز الألم في قلبها عندما تذكرت هذه التضحية، فلم تتمالك

نفسها من البكاء. وكان فرونسكي قد دعي لتناول الطعام عند بعض أصدقائه، فلما عاد استقبلته وفي عينيها نظرة خضوع واستسلام وسألته:

- **هل نعمت بسهرة طيبة؟**
- **نعم.. شكراً لك.. ولكن ماذا أرى؟؟ ما هذه الحقائب؟**

فقالت بلهجة الاعتذار:

- **لقد خطر لي أننا نكون في المزرعة أسعد منا هنا.**
- **الواقع.. أنه ليس أحب إليَّ من ذلك.**

ولكن عينيه قالتا غير ذلك، وسألته أنّا بعد صمت قصير:

- **حدثني.. كيف قضيت سهرتك؟**
- **قلت لك أنها كانت سهرة بديعة، وقد ذهبنا بعد الطعام إلى حوض السباحة لشهود الحفلة التي أقيمت هناك لبطلة السباحة في السويد..**

فانقلبت سحنة أنّا، وسألت:

- **كيف؟ وهل سبحت أمامكم رغم برودة الجو؟**
- **نعم.. وكانت ترتدي ثوباً للسباحة أحمر اللون مقيتاً متى نعود إلى المزرعة؟**

فهزت رأسها بعنف، كأنما لتتخلص من خاطر يزعجها، وقالت:

- بأسرع ما يمكن.. بعد غد..

- بعد غد.. هذا مستحيل.. إن بعد غد هو يوم الأحد، وأنا على موعد مع والدتي للحصول منها على نقود، وبعض الأوراق.

فحدجته بنظرة ارتياب اضطرب لها على الرغم منه، فضاعف الاضطراب ريبتها، وجرى ذهنها إلى الكونتس سوروكين، وابنتها.. قالت:

- ولماذا لا تذهب إليها غداً؟

- غداً؟ مستحيل لأنها يجب أن تعد لي النقود والأوراق التي أطلبها.

- إذن نبقى..

- لماذا؟

- إما أن نرحل يوم الأحد أو لا نرحل بتاتاً.

فصاح في دهشة وفراغ صبر:

- ولكن هذا جنون.

- الجنون ألا تفكر.. ألا تفكر إلا في لذائذك، وأن تتجاهل آلام الغير.

فتقدم إليها في حنق وغضب، وصاح:

- إن هذا لا يطاق.. إن لكل صبر نهاية.. لماذا تعملين هكذا على

تسميم حياتي؟

فقالت وقد راعتها نظرة الحنق التي ارتسمت في عينيه:

- **ماذا تريد أن تقول؟**
- **أفصحي أنت.. ماذا تريدين مني؟**
- **أريد أن أقول أنه إذا لم يكن باستطاعتنا أن نجتمع على حُب فخير لنا أن نفترق**

وتركته وانصرفت لغرفتها، وتهالكت على أحد المقاعد، وهي تقول لنفسها:

- **إنه يمقتني ولا ريب في ذلك، إنه يحب امرأة أخرى، ولم يبق لي في قلبه موضع، فلأذهب، ولكن إلى أين؟!**

وفكرت، ولم تدر إلى أين تذهب: إلى عمتها؟! أو إلى داريا؟! أو تغادر روسيا.. وماذا يقول الناس؟.. وماذا يقول كارنين؟

وتذكرت فجأة عبارة نطقت بها، يوم هجرت زوجها وولدها ورحلت معه، وتذكرت قولها: يا إلهي.. لماذا لم أمت!! نعم... لماذا لم تمت؟! لماذا لا تموت الآن؟! إن الموت هو المخرج الوحيد.. وبموتها تستطيع أن تمحو عارها، وعار أليكسيس كارنين، وعار سيرج. وسيحزن سيرج، ولكنه سيحبها.

وانقضت الليلة كأسوأ ما تنقضي الليالي، وكانت تلك أول مرة يبيتان فيها على خلاف، ولكنها قالت لنفسها في الصباح: "علام كان الخلاف؟ على يوم الرحيل؟ وماذا يضيرني لو قضيت هنا يوم آخر؟.. ثم إن هذا ليس أول خلاف بيننا فلنرحل إذن في اليوم الذي يلائمه".

وقصدت إلى غرفته لتقول له ذلك، وبينما كانت تجتاز الدهليز خيل إليها أنها سمعت صوت مركبة تقف أمام الباب، فأطلت من النافذة بدافع الفضول، ورأت في المركبة صبية حسناء في مقتبل العمر تصدر أوامرها إلى السائق. وما لبث السائق أن دق الجرس، وتحدث إلى البواب..

وبعد دقيقة أو دقيقتين، خرج فرونسكي مهرولاً وقبل يد الصبية وتناول منها شيئاً، وتحدث إليها وهو يبتسم، ثم ابتعدت المركبة، ولوّح فرونسكي بيده للفتاة مودعاً ودخل المنزل.

وشهدت أنَّا هذا المنظر، وأحست بأن قلبها ينسحق، وانبعثت ريبها وشكوكها، وأطل شيطان الغيرة برأسه، فقالت لنفسها: "ليس من الكرامة أن أبقى في هذا البيت لحظة أخرى".

قصدت إلى غرفته لتنهي إليه عزمها، ولكنه ابتدرها بقوله:

قد أرسلت والدتي ابنة الكونتس سوروكين بالنقود التي طلبتها، ولم يبق إلا أن أحصل منها على الأوراق الخاصة بنصيبي من ميراث أبي...

وأصغت إليه أنا، وتطلعت إليه بعينيها ولم تنطق بكلمة، قال:

- أصبح من المحتمل الآن أن نرحل غداً..

فدارت على عقبيها وانصرفت وهي تقول:

- باستطاعتك أن ترحل، أما أنا فلا...

- أنَّا... إن هذا لا يُطاق.

- ربما.. ولكنك سوف تأسف.

خرجت، فهم باللحاق بها، ولكنه عاد فجمد في مكانه، وغمغم:

- كلا.. لقد جربت معها كل وسيلة، ولم يبق إلا التظاهر بقلة الاكتراث

وارتدى ثيابه، وتأهب لزيارة أمه.

وانتظرت أنا أن يقول لها كلمة قبل رحيله ولكنه لم يفعل.. وسمعت وقع أقدامه وهو ينصرف؛ فغاص قلبها بين جنبيها، وأسرعت إلى النافذة، وأطلت منها، ورأته يثب إلى المركبة.. وشيعته ببصرها حتى توارت به المركبة ثم غمغمت:

- انتهى كُل شيء.

ثُم هالها أن ينتهي كل شيء، واستولى عليها الذعر، ودقت الجرس

وسألت الخادم:

- **هل تعلم إلى أين ذهب الكونت؟!**

- **إنه أمر السائق أن يذهب به إلى المحطة.**

- **حسناً. سأبعثك برسالة إليه، وأرجو أن تلحق به قبل أن يصل إلى المحطة.**

وكتبت: "إنني مذنبة.. عد بحق السماء؛ فالوحدة تخيفني من نفسي".

ما أن انصرف الخادم حتى جعلت تسير بغرفتها كالحيوان الحبيس وتقول لنفسها: ."مستحيل أن ينتهي كل شيء هكذا، ولا بد أن يعود، ولكن لماذا كان يبتسم لها؟"..

وانقضت ربع الساعة فقالت: "الآن قد لحق به الخادم في المحطة، وقدم إليه رسالتي.. إنه يقرأ الرسالة. ترى هل يعود؟ مستحيل أن أدعه يرى عيني الحمراوين.. يجب ألا يعلم أنني كنت أبكي.. وشعر رأسي.. نعم، إنه معقوص مرتب، ولكن متى رتبته وعقصته؟"

ونسيت أن وصيفتها رتبت شعرها وعقصته في الصباح. قالت: "ولكن كيف استطاع أن يتركني هكذا... كيف طوع له قلبه... كيف نسي حبي وتضحياتي؟"

وانقضت ربع ساعة أخرى وسمعت صوت مركبة فأسرعت إلى النافذة وأطلت منها. "نعم... وافرحتاه... إنها مركبته.." ولكن المركبة كانت خالية إلا من السائق والخادم الذي أرسلته أنا للحاق بفرونسكي.

وقال الخادم أنه لم يستطع اللحاق به، وأنه سافر بالقطار إلى (نيجني) حيث توجد والدته.

يا إلهي.. ماذا تصنع؟.. إن القلق والشك والوحدة كلها كفيلة بأن تقتلها قبل أن يعود، إذا كان في نيته أن يعود على الإطلاق. كتبت: "عد في الحال.. يجب أن أتحدث إليك".

وقالت للخادم:

- ابعث إليه بهذه البرقية في (نيجني).

ولما انصرف الخادم، قالت لنفسها: "ولكن ماذا أصنع في انتظار الرد.. يا إلهي.. ما هذا الشقاء!" وتهالكت على مقعدها، وانفجرت باكية. ووجدتها وصيفتها في هذه الحالة، وأدركت ما بها، فقالت كأنما لتجد لها مخرجاً من جحيمها:

- رفهي عنك يا سيدتي. اخرجي للنزهة، هذه أمور تحدث دائماً في كل بيت

- صدقت.. سأخرج للنزهة، وإذا وردت برقية، فابعثي بها إليَّ في بيت

الأميرة داريا أو بلولسكايا.

وارتدت ثيابها، وخرجت في مركبة زوجها، وكان الجو صحواً، وقطرات الندى تتألق على أوراق الشجر الذي يحف بجانبي الطريق. ولكن الطبيعة بكل مباهجها عجزت عن إدخال السلوى على نفسها.. راحت تجيل البصر حولها وتتحدث إلى نفسها بما يشبه هذيان المحموم. "ما أجمل هؤلاء الفتيات الصغيرات.. إنهن في طريقهن إلى المدرسة.. إن أيديهن حمراء من فعل البرد. كما كانت تحمر يداي، وأنا في الطريق إلى المدرسة في بطرسبرج"

وعندما تذكرت بطرسبرج، تذكرت كذلك كارنين، ورسالتها إليه، ثم فرونسكي وبرقيتها إليه، وهمست: "من كان يظن أنني أطأطئ الرأس هكذا؟.."

وقفت بها المركبة أمام بيت داريا، فدخلت وهي تحاول أن تبتسم، ووقع بصرها على مرآة في الدهليز، ورأت ابتسامتها أشبه بالبكاء، فقالت:

- كلا، يجب أن أقول لداريا أنني أتعذب، وأنني أستحق هذا العذاب.

وسألت الخادم:

- هل يوجد زائرون؟!

- كلا.. لا يوجد سوى الأميرة كاترين.

ففكرت أنَّا: "كاترين.. لقد كان فرونسكي يحبها، ومن يدري، فلعله ندم على أنه قابلني، ولعله ندم على أنه لم يقترن بها"..

ذهب بها الخادم إلى قاعة الاستقبال، ورحبت بها داريا، وسألتها:

- هل طابت لكما الإقامة نهائياً في موسكو؟

فارتسمت على شفتي أنَّا ابتسامة حزينة وأجابت:

- أظن أننا سنبرحها قريباً..

- هل تلقيت رداً على رسالتك إلى زوجك؟

- كلا.. وقد بدأت أشعر باليأس.

- من الخطأ أن تيأسي.. إن ستيفان ينوي الرحيل إلى بطرسبرج قريباً وفي نيته أن يقابل كارنين ليحثه على الموافقة.

فقلبت أنَّا شفتيها ولم تجب، ولكنها كانت تقول لنفسها: "لماذا لم تأت كاترين؟! لعلها ترى في وجودي خدشاً لكرامتها، ولماذا أعتب عليها.. أنا لا أجهل أن من حق كل امرأة شريفة أن تبرم بي وتتنكر لي.. نعم.. إنني ضحيت بكل شيء في سبيله، وهذا جزائي.. يا إلهي.. كم أمقته!

قالت بصوت مرتفع:

- هل ترى كاترين غضاضة في أن تقابلني؟!

- كلا.. كلا.. لماذا تتوهمين ذلك؟! ها هي قد جاءت.

والواقع أن كاترين دخلت الغرفة في تلك اللحظة وأبصرت أنّا واحمر وجهها. قالت بصوت خافت:

- إنني سعيدة برؤيتك.

وشدت على يدها، وشعرت وهي تنظر إلى وجهها الفاتن الحزين، بأنها لا تستطيع أن تكره هذه المرأة الجميلة الغامضة السيئة الطالع.

ودار الحديث بين النساء الثلاث حول الحياة الريفية، وكانت أنَّا تصغي ولا تتكلم إلا نادراً.. وأخيراً نهضت لتنصرف وقالت وهي تشد على يد داريا وتبتسم لكاترين:

- إلى اللقاء.. يسرني أنني استطعت أن أودعكما.

وقبلتهما، وانصرفت.

قالت كاترين لأختها:

- ما أجمل هذه المرأة، إن مرور الأيام لا يزيدها إلا فتنة، ولكني رأيت على وجهها اليوم مسحة ألم تدعو إلى الرثاء والإشفاق.

- نعم.. إنها ليست كعهدي بها.. لقد خيل إلي حين قبلتني أنها

ستنفجر باكية.

وانصرفت أنّا وهي أشد يأساً مما كانت، ولم تفد من رؤية هاتين الزوجتين الهانئتين، إلا شعوراً ملحاً بسقوطها وضياعها، وعادت بمركبتها إلى البيت فوجدت برقية في انتظارها، فضتها ووجهها يتهلل بشراً وقرأت فيها:

- لن أتمكن من العودة قبل الساعة السابعة، أليكسيس.

وضغطت البرقية في يدها، ثم بسطتها بين أصابعها وأعادت تلاوتها وقالت لنفسها:

- لا يتمكن من العودة قبل الساعة السابعة! وكيف أقضي الوقت حتى الساعة السابعة... كيف أقضي كل هذه الأجيال؟

وخطر لها أن تذهب إلى (نيجني) لتقابله هناك وتعود معه، وراقها هذا الخاطر، فإنها ستجد في رحلتها القصيرة من ضروب التسلية ما يرفه عنها ويساعدها على قتل الوقت، ثم إن سفرها سيمكنها من مقابلته في الساعة الخامسة أو السادسة حين يهم بركوب القطار.

الخاتمة

انقضي الوقت بطيئاً مُتثاقلاً وهي تغدو على إفريز محطة (نيجني) وتجيل البصر في كل ناحية علها تراه، ولكن لا... أنه لن يأتي قبل الساعة السادسة، لو كان في نيته حقاً أن يصل إلى موسكو في الساعة السابعة كما أبرق إليها.

يا إلهي.. كيف تقضي الساعات الباقية! من كان يظن أنها ستشعر بكل هذا السأم؟ ترى ماذا سيقول فرونسكي حين يراها في انتظاره؟ هو ذا ناظر المحطة، لا شك أنه سيسألها للمرة العاشرة عن القطار الذي تروم السفر فيه.. ما أقذر هذا الغلام! ترى فيم يتحدث هذان الرجلان بمثل هذه الحماسة؟

ومر بها الرجلان؛ فسمعت أحدهما يقول: "كلنا قد خلقنا لهذا الشقاء". فأجابه الآخر: "ولكن الله خلق لنا عقولاً وإرادة لنقبل من أنواع الشقاء ما نريد، ونرفض ما نريد"، ومضى الرجلان بسبيلهما، وهما يتحدثان في حماسة.

ورددت أنَّا: "نعم.. لنقبل من أنواع الشقاء ما نريد، ونرفض ما نريد".

وبدأت المحطة تمتلئ بالراغبين في السفر، ودقت الساعة السادسة فخفق قلب أنّا، ونظرت إلى باب المحطة في لهفة كمن ينظر إلى شيء يتوقف عليه حياته أو موته، فجأة، أبصرت بفرونسكي، فهتفت: "ها هو"...

وهمت بالوثوب نحوه، ثم جمدت في مكانها على الأثر، ولم يكن فرونسكي بمفرده، بل كان متأبطاً ساعد تلك الصبية الحسناء التي زارته في الصباح، وهما يضحكان بصوت رنان، وعلى وجهيهما دلائل السعادة، وأحست أنّا بالأرض وهي تميد تحت قدميه، وبالدنيا تظلم في عينيها وبقلبها يكف عن الحركة، وتراجعت ببطء.. وسقطت على المقعد الحجري سقوط الطير الجريح، ولكنها لم تحول عينيها عن فرونسكي ورفيقته، وكانا يتحدثان تارة، ويضحكان تارة أخرى، ولا يحول أحدهما عينيه عن وجه الآخر.

وأقبل القطار، وشعرت أنّا بالأرض تتزلزل تحت قدميها، فرفعت رأسها كمن يفيق من غيبوبة، وغمغمت: "نعم.. هذا ما كنت أتوقع".. وخيل إليها أن القطار وحش هائل يتحفز للوثوب، وأن مصباحه الأمامي الساطع عين مخيفة تريد ابتلاعها، وجرى ذهنها إلى محطة موسكو، وقطار موسكو، والحارس الذي دهمه القطار يوم رأت فرونسكي لأول مرة..

وأرسلت البصر إلى حيث كان فرونسكي، ورأته يهم بركوب القطار؛

فقالت وعيناها تلمعان كمصباح القطار: "كفى.. كفاني عذاباً، وكفاك لهواً.. سأنقذ من يدك الطير الذي جرحته، ولذلك لن تُعذبه، وتلهو به"

وتحرك القطار فأغمضت عينيها، وترنحت قليلاً، وفي هذه اللحظة القصيرة احتشدت في ذهنها ذكريات جميلة ومرت بها صور حياة بأسرها، بما فيها من مباهج وأحزان ومسرات وآلام، وتذكرت كارنين. سوف يعض بنان الندم حين تلوك الألسنة اسمه مرة أخرى. وسيرج إنه لم يصدق في المرة الأولى أنها ماتت، ومن يدري فقد لا يصدق في هذه المرة أيضاً. والحياة إنها مُستمرة مُتجددة ولكن هل يهمها كيف ستستمر، وكيف ستتجدد، وفتحت عينيها، ورأت القطار يتحرك فقدرت المسافة بينها وبينه بنظرة سريعة ثم ألقت حقيبتها على الأرض، ورسمت على صدرها علامة الصليب وقذفت بنفسها تحت العجلات.

الفهرس